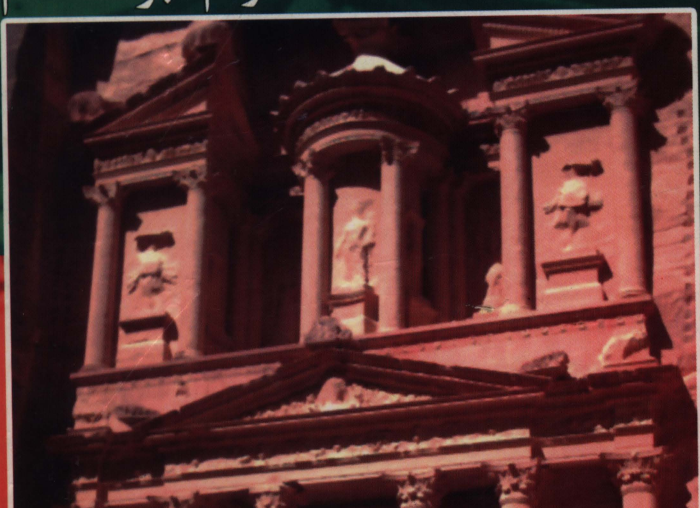
الأنباط

((تاريخ وحضارة))

عزام أبو الحمام



دار أسامة

الأنباط
تاريخ وحضارة

تأليف

عزام أبو الحمام المطور

دار أسامة
للنشر والتوزيع

الناشر

دار أسامة للنشر و التوزيع

الأردن – عمان

- هاتف : 5658253 – 5658252
- فاكس : 5658254
- العنوان: العبدلي مقابل البنك العربي

ص. ب : 141781

Email: darosama@wanadoo.jo
Email: info@darosama.com
Email: sales@darosama.com
www.darosama.com

الطبعة الأولى

2009م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2739/ 8/ 2008)

939

المطور، عزام

الأنباط تاريخ وحضارة/ عزام أبو الحمام المطور.- عمان: دار أسامة للنشر، 2008.

(   ) ص .

ر.أ :(2008/8/2739).

الواصفات: /الأنباط//التاريخ القديم//الأردن/

ISBN: 978-9957-22-275-8

* تم إعداد بيانات الفهرسة و التصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

الفهرس

الفصل الثاني- المدن والحواضر النبطية والأنماط المعمارية وسماتها

الفصل الثالث- الديانات النبطية

الفصل الرابع- المجتمع وانظمته (السياسية- الاقتصادية- القيمية)

المقدمـــة:

تعددت جوانب الإثارة في تاريخ الأنباط وحضارتهم مثلما تعددت جوانب الغموض أيضا، وعلى الرغم من مرور أكثر من قرن على إكتشاف هذه الحضارة على يد "بيركهارت" وتوالي البحوث منذ ذلك الوقت، إلا أن صورة الحضارة النبطية لا تزال بحاجة للمزيد من المقاربات التي تجلي الجوانب الغامضة وتستكمل الأجزاء الناقصة لهذه الحضارة الفريدة وسماتها المثيرة.

ويحاول هذا الجهد المتواضع التوجه إلى القارئ المثقف بمستوياته المتعددة، إذ أن جل ما كتب عن حضارة الأنباط (وخصوصا بالعربية) إما أنه جاء جافا قاسيا تحت وطأة "تقاليد التخصص الآثاري" مما سيرهق القارئ العادي ويحرمه تمثل تجربة الأنباط الكلية. أو أنه جاء إستعراضيا- مسطحا- تقريريا - مما سيفقد تجربة الأنباط الحضارية من روايتها الإنسانية التي لا غنى عنها لتمثل جوهر تلك الحضارة. أو أنه جاء "جزئيا" لدواعي الأعراف والشروط الأكاديمية. وهذه الملاحظات لا تقلل من شأن تلك الأبحاث العلمية، بل على العكس، فهي التي شكلت قاعدة البيانات الضرورية لهذا الكتاب الذي سعى لتحقيق قدر معقول من التوازن بين دقة المعلومة وبين " ترابط الرواية الحضارية " وكليتها. فلا هو أهمل دقة المعلومة وسبر أغوارها وتقليب معانيها المحتملة، ولا هو ركن إلى التقريرات المتسامحة المختزلة بقصد التسويق السياحي الإعلاني محترما ثقافة القارئ وأحقيته في المعرفة التاريخية التي تمثل حقيقة التجارب الحضارية الإنسانية بكل ما فيها من عبر وحكم ودروس.

في الفصل الأول من الكتاب: حاولنا البحث في الجذور الأولى لهذه الحضارة بأصولها السكانية، وبحثنا في نشأة وتطور نظامها السياسي في خضم الأحوال السياسية السائدة آنذاك. ثم استعرضنا بإسهاب المنطقة الجغرافية التي نشأت فيها وترعرت هذه الحضارة المثيرة لننتهي إلى سلسلة ملوك دولة الأنباط، وذلك كي يتمكن القارئ من التأسيس لمزيد من فهم جوانب هذه الحضارة في الفصول اللاحقة.

في الفصل الثاني: إستعرضنا وبإسهاب - بما يشبع رغبة القارئ العربي برسم صورة أكثر إكتمالا - لما هو دارج من معارف إعلامية حول المدن والحواضر

النبطية والأنماط المعمارية وسماتها. فكثير من القراء بما فيهم المثقفون لا يعرفون عن الأنباط غير البتراء والعمارة النبطية المنحوتة في الصخر، وربما زاد بعضهم شيئا من هنا وشيئا من هناك. وقلة تعرف أن البتراء لم تكن هي المدينة الوحيدة المزدهرة في مملكتهم، وقلة تعرف أيضا أن الكثير من الأنماط المعمارية والسكنية خصوصا كانت ولا تزال معروفة منذ عهد الأنباط إلى عصرنا هذا.

في الفصل الثالث: استعرضنا دين الأنباط بعناصره المختلفة من آلهة معبودة ومن معابد منتشرة في أهم المواقع النبطية، ثم قدمنا للقارئ أهم ما توافر من معطيات تاريخية وآثرية لبعض معتقداتهم وقيمهم ورموزهم الدينية، ذلك كله بعد أن مهدنا بمقاربة لنشأة تعددية الآلهة في ضوء حقيقة وحدانية الخالق وما فطر الناس عليها من دين التوحيد .

في الفصل الرابع – وهو الآخير- استعرضنا أنظمة المجتمع النبطي التي نظمت ذلك المجتمع فضبطت إيقاعاته لفترة قد تزيد عن خمسة قرون مديدة، وهذه الأنظمة هي: الإقتصادي، الإجتماعي، السياسي – الإداري، القيمي. وفي النظام السياسي – الإداري إستعرضنا نظام الأنباط العسكري وأهم وقائعهم الحربية والتي كان أهمها الحروب الخمسة مع دولة اليهود على حدودهم الغربية.

وأخيرا أستميح القراء عذرا على ما سيجدوه من تكرار في بعض المعلومات والمناقشات أيضا، فأكثر ذلك كان لا مناص منه ونحن نعتمد على نصوص أو نقوش بعينها في استشفاف جوانب حضارية أو تاريخية مختلفة، وفي بعض الحالات عمدنا إلى ذلك لحفظ الترابط بين الصور وإستحضار خلفياتها التاريخية أو الحضارية لمزيد من الفائدة. وسيجد القارئ أيضا أننا تجنبنا في حالات كثيرة إسناد الكثير من المعلومات المقتبسة تجنبا للتكرار.

ولا بد أن أتوجه بالشكر إلى كل من ساهم في إخراج هذا الكتاب إلى القارئ العربي، دار أسامة للنشر والتوزيع، ووزارة السياحة التي قدمت لنا بعض التسهيلات، مكتبة الجامعة الأردنية ومكتبة جامعة اليرموك ومكتبة مديرية دائرة الآثار العامة ومكتبة عبد الحميد شومان في المملكة الأردنية الهاشمية، وأتوجه بالشكر إلى أفراد أسرتي الذين تحملوا معي الكثير من الإجهاد والتعب أثناء الإعداد لهذا الكتاب.

نتائج البحث وملخص عام:

في الفصل الأول وبعد استعراض ومناقشة كل المعلومات المتوفرة عن تاريخ الأنباط ونشأتهم وتطورهم تبين أن أصلهم العربي (الجزيرة العربية) بات أمر لا جدال فيه، وتبين أن نشوء وتطور نظامهم السياسي اتخذ مسارا موضوعيا وفق قوانين الطبائع البشرية في العمران، فقد كونوا قبائل كبيرة أو إتحاد قبائلي كبير استطاع الزحف إلى الشمال الغربي لتعبئة ما خلفه الأدوميون والأقوام الأخرى كالمدينيين والمؤابيين من فراغ عقب انهيار أنظمتهم السياسية، وأتخذ هذا المسار مراحل متعددة بالطبع كانت مرحلة البداوة هي الغالبة في بداية نشأتهم وربما أواسطها إلى أن طغت عليهم المدنية في المراحل المتأخرة بفعل الاحتكاك مع اليونانيين ثم الرومان وربما غيرهم من الجماعات المدنية، وهم خلال هذه المسيرة طوروا نظامهم السياسي فأصبح نظاما ملكيا تربع على سدتة أكثر من عشرة ملوك خلال ما يقرب من ثلاثمائة سنة (١٦٩- ١٠٦).

وبخصوص منطقتهم الجغرافية والديمغرافية فإن هذه الرقعة تمركزت في "جبال الشراة – سعير" التي كانت للأدوميين قبلهم، غير أنهم راحوا يوسعون هذه الرقعة لتشمل مناطق المديانيين في الشمال الغربي للجزيرة العربية بمحاذاة البحر الأحمر، ثم امتدادها في صحراء النقب الفلسطينية التي كانت للأدوميين أيضا، وفي الشمال شملت رقعتهم منطقة حوران وأمتدت في بعض المراحل لدمشق وأجزاء من الجولان السوري، أما من الشرق فقد شملت امتدادا صحراويا واسعا محاذيا من الشمال لصحراء النفوذ ومشكلا قوسا من الصحراء الواصل بين الشمال الغربي للجزيرة العربية وشمالها الشرقي صعودا نحو حوران.

وخلال هذه الرقعة الممتدة من الأراضي الشاسعة ضمت مملكة الأنباط مجتمعات متنوعة في أصولها الثقافية وأنماطها المعيشية وإن كانت الغلبة للنمط البدوي الذي بدت فيه المدن كجزر معزولة متباعدة، على أن هذه الأنماط المتنوعة في المجتمع

النبطي كانت مصدرا للثراء الثقافي ثم الإقتصادي الذي كان واضحا في حضارة الأنباط. وكان من الواضح أن المدينة (البتراء الحجر وبصرى لاحقا) قد لعبت دورا قياديا ومركزيا في تطور حضارة الأنباط على قلة عدد سكانها.

في الفصل الثاني: إستعرضنا ما توافر من معلومات عن أنماط العمران النبطي وسماته وأنواعه، وتبين لنا تجاور العديد من هذه الأنماط والأنواع خلال مختلف المراحل دون أن يقضي احداها على الآخر شأن الأنماط الثقافية والمعيشية، وتبين أيضا أن معمار الأنباط المنحوت في الصخور والمبني أيضا اتخذ لنفسه طابعا مميزا مما جعله الوجه الأبرز لحضارة الأنباط .

وفي الفصل الثالث: إستعرضنا ما أمكن من المعطيات المتعلقة بالديانات النبطية، وتبين لنا أن ديانات الأنباط لم تكن لتتميز كثيرا عن ديانات الأقوام السامية الأخرى في تلك المرحلة، فالأنباط عرفوا أهم الآلهة السائدة آنذاك في المنطقة، وتأثروا بديانات الأقوام السامية من حولهم ولا نستبعد أن يكون دين التوحيد معروفا لدى طائفة كبيرة من الأنباط استنادا إلى بعض الدلائل اللغوية وأخرى تتعلق بالسياق التاريخي. وعرف الأنباط التطهر والصلاة والدعاء والحج والأضاحي والصدقة لبيوت الآلهة..إلخ. وكان من الواضح تماما أن المجتمع النبطي مجتمع متدين ومحافظ على درجة كبيرة مع أنه كان على استعداد دائم لتقبل الآخر في دينه وثقافته واختلاف عرقه أيضا، وهذا ما أتاح للثقافة الهلينية ترك بصمات واضحة في الدين وفي مناحي الحياة الأخرى. وبالنسبة لأهم آلهتهم فقد كان "ذو الشرى" في منطقة جبال الشراة – على الأقل – أهم هذه الآلهة، في حين أن الأولوية والرياسة ستصبح لآلهة أخرى في المناطق الأخرى، وخصوصا "اللات" ثم "العزى" و "منوة" و"سيع القوم" وغيرها الكثير.

في الفصل الأخير، استعرضنا وناقشنا منظومات المجتمع النبطي الأساسية: النظام السياسي ثم الإقتصادي ثم القيمي.

وكان من الواضح تماما ان نجاح الأنباط الأول تمثل في عالم الإقتصاد الذي بدأ كتجارة ترانزيت في البدايات القائم على الخدمات ثم ما لبث أن تمكن من التجارة

الإقليمية والدولية عندما راح يوسع مرتكزاته ليشمل الزراعة والصناعة جنبا إلى جنب مع تطوير سياسيات وإجراءات زراعية مبتكرة أفادت من كل مقدرات مناطقهم التي غلب عليها القحط والجفاف بإستثناء القليل منها.

وفي النظام الإجتماعي للأنباط كان من الواضح أن مجتمع الأنباط مجتمع تتمركز فيه سمات المجتمعات السامية العربية دون أن ترفض ما يناسب من عناصر جديدة من شأنها إثراء المجتمع النبطي، ولا شك أن المجتمع النبطي كان من التنوع للدرجة التي نجد فيها الأنماط الإجتماعية الثلاث: البدو وهم الأغلبية، المزارعون، ثم أهل المدن الذين كانوا حاضنة للكثير من العناصر السكانية الأجنبية التي تمازجت مع المجتمع النبطي مع الوقت وترك بعضها بصمات حضارية في العمران والقيم والعادات..إلخ.

وأخيرا، النظام القيمي الذي حاولنا من خلال مناقشة واستشفاف ما كان للأنباط من تمايز عن الساميين من قيم وعادات وتقاليد، وكان أن خلصنا إلى أن نظام الأنباط القيمي كان جزءاً من النظام السامي على العموم، غير أن بعض البيانات التي ساقها سترابو حول دفن الأموات مثلا ألمحت إلى بعض التمايز في نظمهم القيمية والدينية لأسباب لم تزل غير جلية بينما لا تزال بعض القضايا في هذا الجانب مثارا للجدل والنقاش، في حين أن جل أفكار الأنباط وقيمهم الحقيقية لا تزال مجهولة لأنهم لم يتركوا لنا آثارا مكتوبة في هذا الصعيد، والنقوش القصيرة التي وجد معظمها على قبورهم وفرت لنا بعض ملامح من قيميهم وتقاليدهم وعاداتهم وآدابهم وفنونهم..إلخ.

وعلى العموم، فإن إستعراض ما توافر من بيانات ومعطيات وإشارات متفرقة عن حضارة الأنباط يدلل بما لا يدع مجالا للشك أن الأنباط إجترحوا لأنفسهم وللعرب من بعدهم حضارة راقية وقوية عكست تمثلاثها الجميلة في حروف اللغة النبطية التي كونت البراعم الأولى لحروف اللغة العربية التي نكتب بها هذه الحروف، وعكست نفسها في الحضارة العمرانية الجميلة التي لا تزال

باقية في البتراء والحجر والنقب ووادي رم وسيعا وصلخد والنقب ومصر وبيتولي في إيطاليا ..إلخ. ولا بد ان وراء كل ذلك إرادة قوية تطلعت إلى البناء وتحدي الصعاب والتحديات الكبيرة التي أحاطت بالأنباط في كل مراحل مسيرتهم الشاقة منذ أن كانوا قبائل متنقلة إلى أن طوى الرومان صفحة نظامهم السياسي عام ١٠٦ ميلادي.

الفصل الأول

تاريخ الأنباط وتأسيس دولتهم

تاريخ الأنباط وتأسيس دولتهم:

١- من هم الأنباط ومن أين جاؤوا..؟ هل هم عرب أم غير ذلك ؟

٢- نشوء الدولة وتطورها والنظام السياسي /الاقتصادي.

٣- الوضع السياسي الإقليمي في أثناء فترة الأنباط (التأثيرات السياسية الخارجية).

٤- حدود الدولة النبطية ومناطق نفوذها وجغرافيتها ومناخها.

٥- الملوك الذين حكموا الدولة النبطية.

أولاً: من الأنباط ؟ أهم عرب أم غير ذلك ؟

ظل أصل الأنباط موضوعا للنقاشات والاجتهادات بين الباحثين والمختصين الغربيين خصوصا بشكل مبالغ فيه، ظنا منهم أن حضارة الأنباط المتقدمة قد تكون نتاجا لبعض الشعوب القادمة من خارج الجزيرة العربية التي تمتاز بحضارة بدوية – رعوية أو زراعية يستبعد أن تكون حضارة الأنباط نتاجا لها، بعد أن كشفت الآثار المعمارية في المدن النبطية عن حضارة تمتاز بالرقي في العديد من المجالات خاصة العمرانية منها التي تبرز في الأبنية المنحوتة في الصخر والقصور والفلل المبنية من الحجر المشذب وفي أنظمة الري المتقدمة التي تعبر عن عبقرية هندسية بالغة.

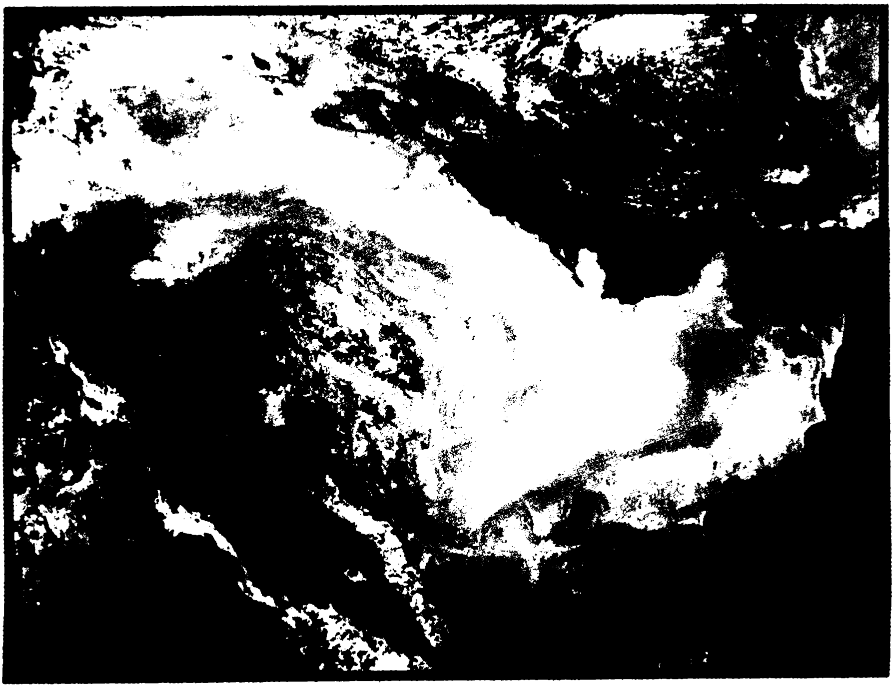
الاسم: ويرد حول اسم الأنباط و اشتقاقه أكثر من رأي: فيقول ابن منظور أن "النبط" هو الماء الذي ينبط من البئر. و أيضا النبط هو ما يتجلّب من الجبل كأنه عرق من عروق الصخر. كما جاء في تاج العروس أن "النبط" جيل ينزل بالبطائح في بلاد الرافدين.

والموطن الأصلي للأنباط والزمن الذي هاجروا فيه غير معروفين على وجه الدقة[١] وذهب بعض الباحثين إلى أن أصل الأنباط جاء من "تبايوت" الوارد في التوراة (سفر التكوين – ١٣:٢٥و ٩:٢٨)، ونبايوت هذا هو بكر اسماعيل حسب التوراة، فيما ربط البعض الآخر الأنباط باسم "نبيت" الوارد في سجلات الملك الأشوري تجلات بلاسر (٧٢٧-٧٤٥ ق.م) التي تشير إلى الحروب التي كانت تقع بين قبائل متعددة من شمال شرقي الجزيرة العربية والقوات الأشورية. غير أن ثمة مؤشرات لغوية تدحض

أي رابطة بين "تبيت " ونبطو، إذ أن الأنباط عرفوا أنفسهم "بنبطو" من خلال نقوشهم، وبذلك فإن الاسم الأشوري لا يمكن مقاربته لاسم الأنباط في ضوء اختلاف حرفين أساسيين بين الاسمين[٢]، وعلاوة على ذلك، فإن ورود الاسم في سجلات تجلات بلاسر كان أسبق بكثير على ظهور الأنباط المعروف في القرن الرابع قبل الميلاد. أي بفارق أربعة قرون مديدة من السنوات.

وأشارت بعض الاجتهادات إلى أن الأنباط قدموا من الساحل الغربي للخليج العربي، فيما أشارت اجتهادات أخرى لكونهم قدموا من جنوب بلاد الرافدين لورود اسم الأنباط من بين القبائل الرافدية "النبطيين" وخصوصا في كتب الإخباريين المسلمين، وهؤلاء النبط غير أنباط العرب، لأنهم أعاجم مع أنهم تكلموا اللغة الآرامية، واشتبه الاسم على الإخباريين المسلمين لاشتهار هؤلاء بالزراعة واستنباط الماء من الأرض. وبعض النصوص التاريخية مثل (Pliny) أشارت إلى أنهم كانوا قد استوطنوا جزيرة في البحر الأحمر قبل أن يدحرهم أو يطردهم الأسطول المصري، وهذا مدهش ونحن نعرف أن الأنباط إنما هم الأكثر ارتباطا بالصحراء والقوافل التجارية[٣]، غير أن آراء جميع الباحثين في تعيين الموطن الأصلي للأنباط متفقة على شيء واحد هو تحديدهم للمنطقة الكبرى التي كانت منبتهم أي الجزيرة العربية، غير أن آراءهم تفترق حول تحديد الناحية المعنية من تلك الجزيرة، هل هي الحجاز، أم جنوبي منطقة الجوف، أم منطقة الخليج أم جنوبي الجزيرة العربية؟ وسنظل نجهل متى احتلوا منطقة الصخرة (أي بتراء) ما دام أقدم أخبارهم لا تتجاوز أواخر القرن الرابع إلى ما قبله[٤] لكن هذا الحدث جرى بالتأكيد عقب أفول دولة الأدوميين سكان البتراء السابقين على الأنباط، وذلك إما عقب حملة نابونئيد الأشوري (٥٥٢ ق.م) الشهيرة أو عقب ذلك بقليل إثر حملة قمبيز الفارسي (٥٢٥ ق.م) التي ربما أجهزت على الأدوميين أو ما تبقى لهم من كيان سياسي، لكن دون القضاء على البنى الاجتماعية والعشائرية لهم، حيث سيظهر الأدوميين مرة أخرى بأشكال متنوعة في تاريخ المنطقة، وقد توجوا هذا الظهور السياسي في العهد الروماني ببناء أسرة حاكمة استطاعت نزع الحكم من المكابيين اليهود في فلسطين وتمكنت أيضا من توسيع حدود ولايتهم كما لم تكن من قبل.

وسنعود للحديث عن الأدوميين في الصفحات القادمة نظرا لما لذلك من علاقة وثيقة بتاريخ المنطقة، خصوصا ما قبل الأنباط.



صورة جوية بالأقمار الصناعية لشبه الجزيرة العربية

ومن المرجح حسب الكثير من الباحثين -خصوصا الجدد- أن يكون الأنباط جزءا من قبائل ثمود الوارد ذكرها في القرآن الكريم (سورة الحجر) التي كانت تنتشر في وسط الجزيرة العربية وشمالها، وقد أثبتت النقوش المكتشفة في مناطق الجزيرة العربية انتشاراً واسعاً لهذه القبائل في تلك المناطق، وعزز ذلك ما وجد للأنباط من تراث ديني فيما يتعلق باسماء الآلهه خصوصا، وثمة وجاهة كبيرة في هذا الرأي من أوجه كثيرة، فالوجود النبطي المتأخر في شمال غرب الجزيرة العربية وحتى جنوبي بلاد الشام وشرقيها يعتبر امتدادا طبيعيا لوجود الثموديين، خصوصا أن معظم هجرات القبائل العربية من الجزيرة كانت تأخذ هذا المنحى في أغلب الوقت إضافة إلى المنحى الآخر المتجه إلى الشمال الشرقي

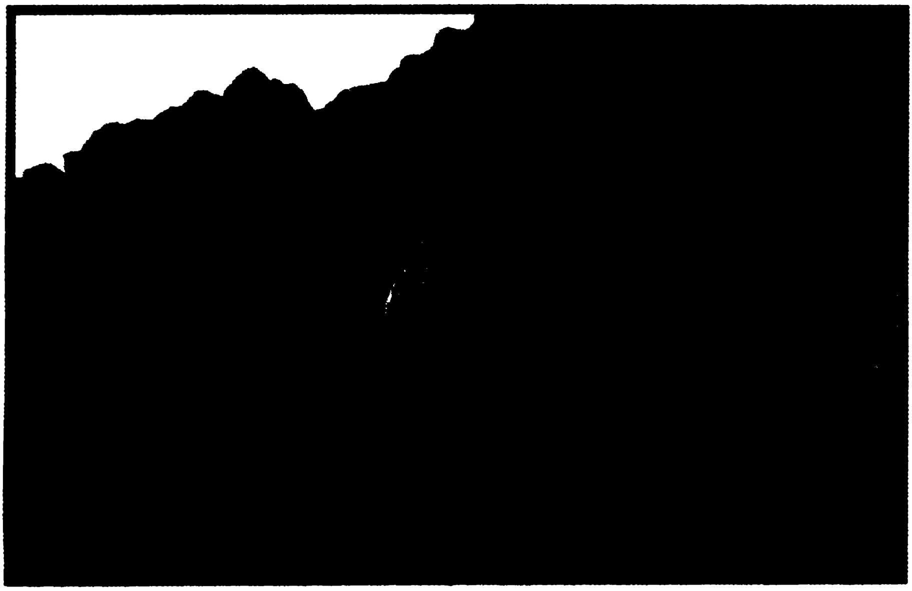
للجزيرة، أي باتجاه بلاد الرافدين، ولكن الاتجاه إلى الشمال الشرقي لم يَكُنْ متاحا باستمرار في ضوء الجهود الحربية الواسعة التي كانت دولة الرافدين تقوم بها مما سيضطرها لأخذ المنحى أو الاتجاه الأخر نحو الشمال الغربي وصولا إلى بلاد الشام، إذ أن "نابونئيد - Nabonidus " (٥٥٥-٥٣٩ ق.م) الملك الأشوري كان قد هاجم تيماء عدة مرات إلى ان أحتلها وأقام فيها بنفسه لتنظيم الدفاعات التي كانت ضرورية لصد هجمات القبائل المحاذية لمملكته، وقد أقام نابونئيد خلال الأعوام (٥٥٢-٥٤٤ ق.م) في تيماء حيث قام من هناك بعدة حملات بين الواحات العربية ونفى الكثير من السكان، ويشير البعض[٥] إلى أن هذه الفترة هي نفس الفترة التي بدأ منها استقرار الأنباط في المناطق الأدومية، ويعزز هذه النظرية الحفريات التي قامت بها كريستال بنت (C.Bennet) في بصيرة عاصمة الأدوميين[٦]. وعلى الأرجح فإن نهاية الأدوميين جاءت على يد نابونئيد في حملته الشهيرة هذه التي كان قد سجلها على حجر "سيلع" عام ٥٥٣ ق.م بعد أن أخضع بصيرة عاصمة الأدوميين، ومن هذه اللوحة يستنتج أنه لم يكن للأنباط وجود سياسي آنذاك، لكن ذلك لا ينفي وجودهم كقبائل بدوية عاشت في ظل الدولة الأدومية، قبل أن يتمكنوا - فيما بعد - من الاستيلاء على المنطقة وتكوين دولتهم[٧]، ومن المعروف تاريخيا ان نبوخذ نصر قد سبق هذه الحملة بحملة على مملكة اليهود الجنوبية عام ٥٨٦ ق.م لتأديبهم جراء مساعدتهم لحكام الفراعنة (الملك نخاو) هم وعدد آخر من ملوك سوريا وفلسطين (ومملكتي عمون ومؤاب خصوصا). ومن ذلك نتنبه إلى أهمية دويلات المنطقة في ذلك العصر- مثل كل العصور اللاحقة- بالنسبة للدول العظمى في كل مرحلة، مما يعني أيضا تأثير سياسات تلك الدول في البناء السكاني لدويلات المنطقة. لكن دولة الأدوميين استطاعت تجنب غضبة نبوخذ نصر من خلال إعلان الولاء للأشوريين ومن خلال الامتثال لرغبتهم بدفع الجزية والامتناع عن تأييد المصريين، ونقرأ من النقش الذي خلفه تجلات بلاسر "استلمت الجزية من سانيبو من بيت عمون، وسلمانو المؤابي، ومتني من عسقلان ويوحاز من يهودا، وكوشملكو الآدومي،

ومازور... وهانو من غزة، وهذه الجزية تتكون من الذهب، والفضة، والتنك والحديد والملح، وملابس الكتان الملونة المزخرفة بالزخارف المحلية والملابس الصوفية ذات اللون القرمزي الداكن، إضافة إلى جميع الأشياء الثمينة"(٨). وهذا الرأي لا ينهي النقاش بشأن نهاية الأدوميين إن كانت على يد الأشوريين كما تتوقع أغلب الفرضيات، أو على يد الفرس الذين تبعوا الحملة الأشورية بحملة أخرى بعد حوالي عقدين من الزمن. لكن الملاحظ أن الوجود الأدومي ظل مستمرا في العديد من مناطق جنوب الأردن، حتى "بصيرة" نفسها فقد بينت الحفريات فيها آثار تعمير وبناء في العصر الفارسي القصير الذي دام سبع سنوات.

لقد اتبع الأشوريون سياسة تهجير الجماعات في نطاق الدولة الأشورية، وكانت سياساتهم اتجاه هذه الجماعات ليست بمعاملتها كسبايا أو عبيد، بل هم مثل أفراد الرعية الأشورية، وهذه السياسة خلقت نماذج جديدة من المجتمعات لم تكن معروفة من قبل، والمفهوم الأشوري للتهجير له قداسته واحترامه عندهم نظرا لعلاقته بالمفاهيم الدينية التي يؤمنون بها؛ لأن الآلهة هي التي أعطتهم الحق في أن يكونوا فوق جميع الشعوب(٩).

والبحث في تاريخ الأنباط وأصولهم لا يمكن أن يستقيم بدون البحث في تاريخ أسلافهم وربما شركائهم في مجتمع الأدوميين. فمنطقة الأدوميين شكلت النواة الجغرافية لدولة الأنباط. وكانت مملكة الأدوميين قد قامت في جنوب شرقي الأردن بين وادي الحسا وخليج العقبة، في الفترة الممتدة من القرن التاسع الميلادي، حتى الغزو الفارسي في القرن الخامس قبل الميلاد. ومن المرجح أيضا أن الأدوميين كانوا يتمركزون في جنوبي فلسطين، خصوصا منطقة صحراء النقب التي وجدت فيها الكثير من الآثار الأدومية (عراد) وأن جغرافيا الأدوميين كانت تضم منطقة مدين وتيماء ومنطقة الحجر إلى الشرق من سواحل البحر الأحمر. ووجد الأثريون أن النقوش الأدومية بقيت قيد الاستعمال حتى العصر

الهلنســـتي، فقد عثر على كسرتين من الفخار تحملان كتابة أدومية، الأولى في تل الخليفة (Gluck 1971) والثانية في موقع قلعة العزى الواقع إلى الجنوب من تل عراد إلى الجنوب الغربي من البحر الميت في فلسطين، وكتب على الكسرة الاولى اسماء، مثل قوس بنا، وقوس نداب، وبي قاقس، بينما يتحدث النص المكتوب على الكسرة الثانية عن إعطاء أوامر لإحضار طعام إلى أحد المذابح(١٠)، وأظهرت الحفريات الأثرية في أم البيارة وفي طويلان بالقرب من البتراء وجود استيطان أدومي منذ القرن السابع قبل الميلاد، وقد لوحظ تجاور الاستيطان النبطي والأدومي، مما يشير إلى أن الأنباط حلوا تدريجيا بين الأدوميين الذين لم يرفضوهم، حيث اختلطوا بهم وذابت العناصر المتبقية منهم(١١)، ويقترح جلوك أنه عن طريق علاقات الدم السابقة إضافة إلى علاقات التزاوج، فقد قام الأنباط بتنبيط الأقوام الأخرى كالمؤابيين والأدوميين"، أي أنهم لم يحاربوهم أو لم يحتلوهم أو لم يطردوهم، بل قاموا بامتصاصهم في الجسم الأوســـع، المجتمع النبطي الأوســـع، وكان الأنباط قد قاموا بتبني الأساليب الدفاعية والتنظيمات التي كان المؤابيون والأدوميون قد أوجدوها في مناطقهم وعملوا على تطويرها لمئات السنين، وورث الأنباط أيضا الأبنية قبل أن يقوموا بتحسينها أو بترميمها وفق مخططاتهم، وفي بعض الحالات أبقوا عليها كما وجدوها، لكنهم أيضا بنوا الكثير من المصاطب الزراعية والسدود أو البرك المائية ومئات المستوطنات الزراعية جنبا إلى جنب مع المستوطنات الزراعية القائمة أصلا(١٢). وبالطبع فإن مملكة الأنباط الجديدة راحت ترث الكثير من الدويلات أو المشيخات السابقة لها مما سيفسح لها امتداداً جغرافيا وديمغرافيا واسعا ضم حدود مدين القديمة وتيماء والحجر في الجزيرة العربية، ولهذه المناطق حضارات مثبتة قبل أن نعرفها ايضا من خلال الأنباط الذين بنوا فوق ما وجدوه من إنجازات سابقة لهذه الحضارات، وامتد التمازج الديموغرافي أيضا إلى حدود سيناء عبر النقب الفلسطيني الذي حفظ لنا آثارا مهمة عن الفترة النبطية.



دأبت الحضارات الجديدة على إعادة ترتيب العناصر الحضارية السابقة مثلما كانت تعيد ترتيب حجارة الأبنية التي أبقت عليها الحضارات السابقة. (تصوير البلحث - جنوب الأردن)

وثمة من يشير إلى أن الأنباط أصلا لم يكونوا قبيلة واحدة مثلما قد يعتقد البعض، بل إنهم تجمع واسع من القبائل الجزرية إضافة إلى بعض العناصر البشرية من مجموعات أخرى من الشمال ومن بلاد الشام ويعتقد فريدمان (Freedman,1992) أن اسم الأنباط يجب أن يفهم كمدلول واســـع لجماعات من أصول مختلفة، حيث أن الأنباط حفظوا لهجات السكان وخطوطهم أو هذه الجماعات من شمال نهر الأردن وجنوبه سواء الأدوميين أو المؤابيين أو السوريين، ودل على ذلك النقوش الثنائية مثل الصفوية والثمودية إلى جانب النبطية[١٣]. ومن المحتمل أيضا أن تكون بعض العناصر السكانية تمازجت مع الأنباط قبل ظهور دولتهم ونظامهم السياسي خصوصا الأدوميين والمؤابيين وفروع متعددة من الثموديين، ومثل هذا التخمين يحمل قدرا من الوجاهة في ضوء ما نعرف عن الحركات السكانية الواسعة في المنطقة إن كان بسبب التقلبات السياسية والحملات العسكرية في المنطقة أو بسبب الظروف الاقتصادية للمنطقة من

ظروف الجفاف والخصب ومتغيرات العلاقات التجارية خصوصا ما اتصل منها بطرق التجارة. وبما أن الأنباط كانو يستخدمون الخط الآرامي، وهم في كل المراحل كانوا جيرانا للآراميين في الشمال والشرق، فليس بمستبعد أن الحلف النبطي ضم أعدادا أو قبائل من هؤلاء، ويعزز هذه الفرضية ما عرف عن الأشوريين من سياسات النقل الجماعي للسكان في أوقات الاضطرابات، ليس عقابا لهم في كل الحالات، بل من أجل تغيير البنية الديموغرافية لهذه المنطقة أو تلك.

وثمة صيغة أخرى منطقية للتركيبة الديمغرافية للأنباط يوردها الكثير من الباحثين، وهي أن الأنباط شاركوا قبائل أخرى عديدة للمناطق التي تواجدوا فيها إبان قيام المملكة النبطية، وحسب هاموند أيضا فمن المحتمل أن تكون "نبطو" عبارة عن اتحاد بين عدد من القبائل الحليفة[١٤] التي انضوت تحت مظلة أكبر أو أقوى قبائل الاتحاد. بل إن الاتحاد النبطي كان يجمع أيضا وحدات إقليمية صغيرة أدركت أهمية هذا الاتحاد لبقائها وازدهارها، ويجب أن لا ننسى الامتداد الجغرافي – الديمغرافي الكبير الذي ضمته دولة الأنباط مما يؤكد التنوع الكبير في الأصول السكانية لمجتمعات هذه الدولة، ومما سيظهر لاحقا أيضا في سياسات التسامح والانفتاح التي اعتمدها الأنباط اتجاه الأجانب الذين عايشوهم في البتراء وغيرها من المناطق، ولا بد من أن قســما من التجار أقام في المناطق النبطية وتزاوج وتصاهر مع الأنباط، وثمة دلائل كثيرة أيضا على هذا الانفتاح والتنوع منها التأثيرات المعمارية الواضحة لكل الحضارات الرئيسية المحيطة كالمصرية والهلينستية والفرثية (الفارسية) والأشورية، ويتجلى ذلك أيضا في استخدام الأنباط للغات الأخرى إلى جانب لغتهم، خصوصا اللغة الآرامية واليونانية، كانت الآرامية في الحقيقة لغة التعاملات التجارية والرسمية والدينية، ومع بداية التأثيرات الهلينستية بدأت اللغة اليونانية تأخذ هذا الدور وتزاحم الآرامية إلى أن أزاحتها تماما لصالحها ثم لصالح الرومانية فيما بعد.

ومن كل ذلك يستنتج أن الأنباط كانوا نواة التحالف أو التجمع أو المجتمع الأحدث الذي صار يعرف فيما بعد بالأنباط، ويستنتج أيضا أن هؤلاء الأنباط بكل مكوناتهم البشرية والثقافية ما هم إلا قبائل عربية تشاركت في الأصول والقيم والتقاليد

مما سهل تمازجها لتشكل دولة مركزية في المنطقة. والدلائل الواضحة على عروبتهم، هي:

١- أن الذين عاصروهم من الأجانب كالمؤرخ ديودورس والجغرافي سترابو والتوراة وصفوهم بأنهم عرب.

٢- أن موطنهم الأصلي هو الجزيرة العربية وبالذات أراضي المملكة العربية السعودية.

٣- أن اسماء ملوكهم ومعظم أعلامهم عربية كالحارث ومالك وعبادة وجميلة وشقيلة وخلدو (خلود أو خالدة) وصالح وسلمو...إلخ.

٤- أن اسماء آلهتهم وأصنامهم كانت معروفة وشائعة في أرجاء الجزيرة العربية وحضاراتها الشمالية والجنوبية.

٥- ثبت أن أصول الكتابة العربية الحالية والحروف خصوصا يستندان إلى ما وصلت إليه الكتابة النبطية في هذا المجال.

ثانيا- نشوء نظام الحكم والدولة: نشوء وتطور الدولة والنظام السياسي/الاقتصادي:

لم تكن الدول وأنظمة الحكم لتوجد فجأة بدون مقدمات ومرتكزات تستند إليها، فلا بد أن يسبق ذلك تطور الكثير من البني السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ومن العدل الافتراض أن دولة الأنباط لا تشذ عن هذه القاعدة، أي أن حضارة الانباط كانت امتدادا طبيعيا لمجموعة من التطورات التي حصلت في المنطقة مثلما أوردنا لبعض المؤشرات، فحضارة الأنباط هضمت ما سبقها من حضارات خصوصا حضارات الأدوميين والمؤابيين والمدينيين مثلما أشرنا، لكن العوامل الأساسية في نشوء الدولة ونظام الحكم تمثلت في الموقع الجغرافي الاستراتيجي للمنطقة آنذاك مثلما في أغلب العصور، نتيجة وقوعها على خطوط التجارة والاتصال البري والبحري مثلما كان ذلك سيتضح لنا لاحقا، فإذا ما قيض للمجتمع الجديد العناصر الأساسية للدولة من إقليم شاسع مترامي الأطراف يتحكم بطرق أهم التجارات

لذلك العصر، ومن عناصر سكانية متقاربة أو متشاركة في الأصول والثقافات، ومن نظام سياسي مستقر ورشيد، فإن ذلك لا بد من أن ينتج دولة قوية مثلما هي دولة الأنباط.

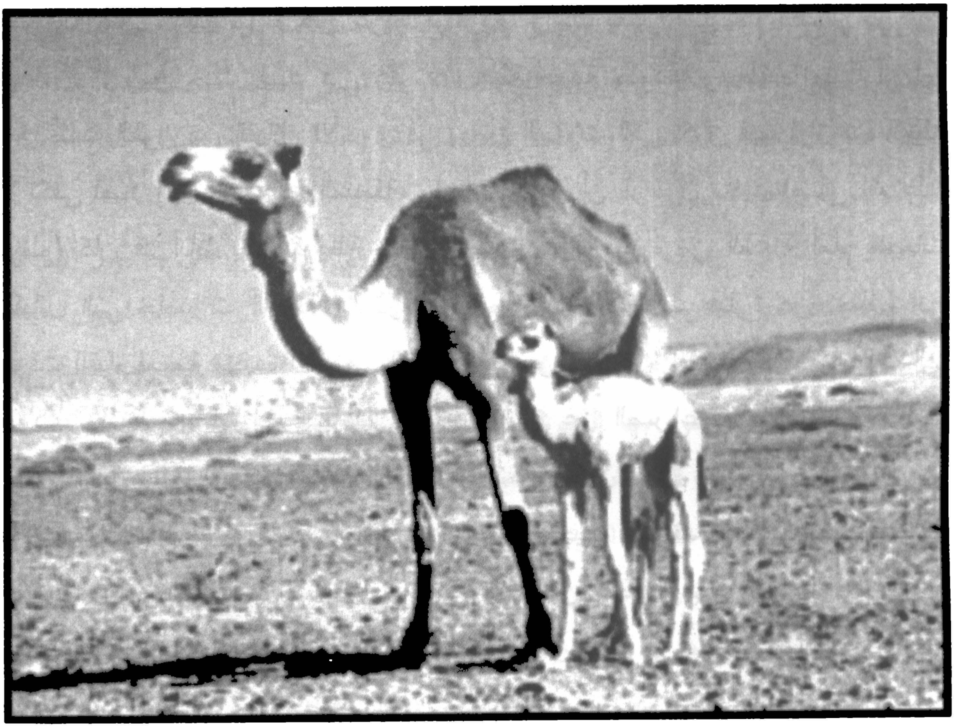
إن أول مرجع معروف - بخلاف الآثار- يذكر الأنباط يعود للقرن الأول قبل الميلاد، لمؤرخ يوناني، ديودورس السقلي (المتوفي سنة ٥٧ ق.م، وكان عمله مستندا إلى شاهد عيان كان قد كتب في القرن الرابع قبل الميلاد في الفترة التي انتشر فيها نفوذ الاسكندر المقدوني) وقد وصف ديودورس حياة الأنباط في ذلك التاريخ (أي القرن الرابع قبل الميلاد) واصفا إياهم بأنهم يعيشون حياة البداوة في أراض صحراوية قاحلة *" لقد آلوا على أنفسهم ألا يبذروا حبا، ولا يغرسوا شجرا يؤتي ثمرا، ولا يعاقروا خمرا، ولا يشيدوا بيتا، ومن فعل ذلك كان عقابه الموت، وهم ملتزمون بهذه المبادئ لأنهم يعتقدون أن من تملك شيئا استمرأ ما ملك، واضطر من ذلك إلى أن ينصاع لما يفرضه عليه ذوو القوة والسطوة"*[١٥]، وهكذا فإن الصورة التي ينقلها صديق ديودورس عن أحوال الأنباط في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، وهي الفترة نفسها التي بدأ فيها الأنباط بالظهور على المسرح السياسي، هذه الصورة التي ترسم مجتمعا بدويا من الطراز الأول، لكن هذا المجتمع - كما سيشير ديودورس لا حقا- كان شديد الاهتمام بالتجارة إلى جانب تربية قطعان الماشية، وهذه التجارة ستوفر له ثراء كبيرا سيدفع به إلى الاستقرار للتمتع بهذا الثراء الذي زودته به التجارة، ومن الطبيعي أن يمارس الأنباط التجارة منذ هذه الفترة وربما قبل ذلك بكثير من السنوات، فهم إنما ورثوا ما وجدوه عند أسلافهم الثموديين والأدوميين والقيداريين الذين أملى عليهم موقعهم الجغرافي مثل هذا النشاط[١٦].

ويصلنا خبر أيضا عن مقاومة الأنباط لأحد الجيوش المقدونية التي كانت في سوريا حين بدأ الصراع بين القواد من خلفاء الاسكندر، وكانت آنذاك لا تزال بيد أنتيجونوس الذي أرسل إليهم حملتين في عام ٣١٢ ق.م، الأولى بقيادة أثنايوس، ونتج عنها فشل ذريع، وسنعود لتفصيلها، والثانية بقيادة ابنه (ديمتريوس) التي لم يكن نصيبها بأفضل من الأولى، إذ قنع بأن ينسحب مقابل بعض الهدايا القيمة والإبقاء على علاقات طيبة بالأنباط[١٧].

ويصبح من شبه المؤكد أن يكون الوجود السياسي للأنباط قد بدأ في التبلور مع بداية القرن الرابع قبل الميلاد، وإن اصطدام القوة السلوقية بقيادة إنتيجونوس لدليل على وجود قوة نبطية منظمة، لكن ذلك لا يحسم بوجود دولة ونظام حكم واضح المعالم مثلما بدأنا نعرفه في بداية القرن الثاني قبل الميلاد، إذ تشير المكتشفات الأثرية، خصوصا المسكوكات النقدية إلى أن أول ملك نبطي على الأرجح كان الملك الحارث الأول (١٦٩- ١٦٨ ق.م)، ومن المحتمل أن يكون قد سبق هذا الملك ملك أو أكثر. وعلى الرغم من الذكر التاريخي الشهير لوجود الأنباط في جنوب الأردن منذ عام ٣١٢ ق.م، إلا أننا لم نستطع حتى الآن تمييز مظاهر حضارتهم المادية السابقة لبداية القرن الأول قبل الميلاد[١٨].

ومع ذلك يجوز افتراض أن المجتمع السياسي النبطي كان قد تبلور إلى مستوى جيد قبل تاريخ الحارث الأول بكثير، إذ أن كل الدويلات التي كانت تقوم في بلاد الشام وفي أطراف الجزيرة العربية كانت غالبا ما تستند إلى نظام الدويلة - المشيخة- ومثل هذه الدويلات كانت تعتمد على بنية سياسية عشائرية اتحادية إلى حد بعيد قبل أن يجري الارتقاء إلى المرحلة اللاحقة، أي الدولة المركزية أو الوطنية، فالتجمعات والأحلاف العشائرية هي الوحدات الأساسية المكونة للمجتمع وللدولة، وهذه الوحدات الكبيرة هي التي تشكل آليات العمل والفعل في المجتمع والدولة من حيث إيجاد القوة- السلطة وتوجيهها، وهي كذلك تقوم بوظائف إدارية وعسكرية واقتصادية معينة كحماية الحدود والطرق التجارية والآبار وعقد الصفقات التجارية الكبيرة وإمداد الحملات العسكرية بالمقاتلين. .إلخ. والمشايخ أو القضاة (كما يسميهم العهد القديم) هم عماد النظام السياسي وهم حلقات الاتصال مع رأس النظام السياسي، وكل شيخ أو قاض يتولى إدارة منطقة معينة عادة ما يكون لها مدينة مركزية، أي عاصمة أو حاضرة، والشيخ الذي أحيانا ما يلقب بشيخ المشايخ أو بالملك يشرف على إدارة المنطقة بنفسه في كل المجالات، وهو غالبا ما يتلقى المساعدة في الإدارة من مشايخ محليين أو قضاة أو قادة يمثلون التجمعات السكانية القائمة وتأمين الطرق التجارية التي تمثل مصلحة مشتركة لأكبر القبائل، ونادرا ما يوجد تنسيق مع الدويلات المجاورة

باستثناء ما يختص بالمراعي ومصادر المياه لمنع التعديات وفض الخلافات عند وقوعها، لكن تنسيقا أخر لا بد من أن يجري في حالات الحروب وصد الهجمات من الأعداء والخصوم، وفي هذه الحالة يجب على كل منطقة المساهمة بالجهد الحربي أو الدفاعي بقدر استطاعتها، ولا نعرف الكثير عن قوانين وآليات هذه المشاركات باستثناء الاعتماد على العدد، إذ تتقدم هذه التجمعات بأعداد من المقاتلين أو من الضرائب أو الماشية والابل والخيول تبعا لأعداد رجالها أو أعداد بيوتها، لكننا نعرف عن المجتمعات العربية اللاحقة حتى صدر الاسلام مرورا بالجاهلية بعضا من المعلومات المهمة في هذا الشأن. فإن على القبيلة أو العشيرة أو الحلف العشائري القيام بما يوكل



إليه من القائد الأعلى أو الملك أو الشيخ وفق الاتفاقيات أو المعاهدات التي كانت عادة ما يتم إبرامها بين القبائل، وهذا النوع من المعاهدات التي غالبا ما تكون شفوية لها من القوة والثبات ما يصل حد التقديس، والوفاء بالعهود والمواثيق المقطوعة جزء جوهري من ثقافة القبائل العربية منذ قديم الزمان، ولدينا نص صريح من هيرودوت في هذا

الشأن بخصوص معاهدة القبائل العربية في الشمال الغربي للجزيرة لقمبيز الملك الفارسي الذي قاد الغزو الفارسي لمصر ٥٢٥ ق.م مرورا بمناطق القبائل العربية حيث تعهدت تلك القبائل أو ملكها بتقديم المياه اللازمة للجيش الفارسي في أثناء عبوره عبر جنوب الاردن فالنقب فسيناء: "وما من أمة تحترم العهود وتقدسها مثل العرب، فإذا أراد رجلان أن يوثقا العهود بينهما فإنهما يقفان على جانبي رجل ثالث يحمل حجرا حادا يســتخدمه لجرح راحتي يديهما بالقرب من أسفل الإبهام، ثم يأخذ بعض خيوط الصوف من ثيابهما ويغمسها بدمهما ويلطخ بها سبعة أحجار تقع بينهما، وهو يردد اسم كل من ديونيسيوس وأورانيا، ثم يقوم الشخص الذي أخذ العهد على نفسه بتوصية أصدقائه بمن عاهده سواء كان غريبا أم قريبا، وبذلك يعتبر أصدقاؤه أنفسهم ملتزمين بهذا..[١٩]، ومن حيث المبدأ فإن على كل قبيلة حماية حدودها ومنطقتها مثلما أن لها حق طلب العون من القبائل الأخرى في بعض الحالات التي تكون فيها قوة هذه القبيلة لا تكفي لصد الهجمات على المنطقة، ونحن نستذكر أن الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) كان قد أناط ببني قريظة وبني النضير حماية جزء من المدينة أمام هجمات القبائل التي حاصرت المدينة (الأحزاب)، فيما كانت الأحزاب عبارة عن تحالف آني مؤقت للقيام بمهمة محددة ألا وهي القضاء على بؤرة الدعوة الإسلامية التي انتقلت إلى يثرب، ولدينا من التراث الجاهلي أخبار غزيرة عن الصراعات والتحالفات القبلية، وثمة قوانين وأعراف ثابتة لهذه المواثيق والتحالفات لا مجال هنا لتفصيلها. ولا بأس بالإشارة إلى بعضها: قاعدة التآخي أو البنعمة، حيث تتحالف قبيلتان فيصبح جميع أبنائها بمثابة أبناء العم الحقيقيين، "وهي نوع من الحلف الهجومي والدفاعي"[٢٠]، وقاعدة الجيرة أو الاستجارة، وهي مناشدة شخص قوي أو قبيلة قوية لتحصيل حق ضائع أو للحماية من خطر داهم، ومن تلك القواعد أيضا الدخالة والقصرى والموالاة...

ومع أن ديودورس كان قد وصفهم "بأنهم بدو رحل، يقتنون الإبل ولا يعرفون الخيل، لا يزرعون الحبوب،..إلخ، وكذلك كان أمرهم حينما جرى حصارهم للمرة الثانية من قبل ديمتريوس في الصخرة (البتراء أو السلع) خاطبوا اليونانيين قائلين" ليس

من الحكمة في شئ أن يعلن اليونان حربا على شعب لا يملك ماء أو خمرا أو حبا، نحن لا نعيش كما يعيش أبناء اليونان، ولا نرغب في أن نصبح عبيدا لهم "[٢١]، مما يعني أنهم كانوا لا زالوا في طور البداوة، إلا أنه من المحتمل أن يكون الأنباط أكثر تقدما في نظامهم السياسي مما نعتقد قبل ظهورهم السياسي في المنطقة، وإن وصف ديودورس هذا ربما كان جزئيا وانتقائيا إلى حد كبير، فإن ما عاينه ديودورس أو شاهد العيان الذي إعتمد عليه لم يكن ليعلم بالجانب الآخر من الصورة، ففي المركز من هذه القبائل ثمة حواضر أو مدن تتمركز فيها الأنظمة السياسية/الإدارية، وفيها قدر من التمدن، وهذا النمط من التمدن لا بد أنه ظل متجاور ومتسق مع الأنماط الأخرى البدوية والزراعية التي لا تزال تعيش حتى أوقاتنا هذه، وستظل كذلك إلى أمد بعيد لا يمكن التكهن به، ما دام أن طبوغرافيا المنطقة لا تزال تحتفظ بخصائصها هذه التي يغلب عليها السمات الصحراوية وشبه الصحراوية، والتي لا تزال تشكل الجزء الأكبر من تضاريس المنطقة.

من ناحية أخرى، فإن للأنباط تجارب غنية في الحروب على ما يبدو قبل قيام دولتهم، وهذه ميزة كان لا بد منها في عصر كثرت فيه القلاقل والهجمات من جهات عديدة، فحملات الغزو والسلب كانت لا تزال شائعة في المنطقة منذ أمد بعيد، وما الحملات التي كانت تقوم بها الجيوش الأشورية والفارسية من الشرق والمصرية من الغرب إلا صدى لهذه الهجمات أو تأديبا للقائمين عليها لحماية مصالح الدول الكبرى في ذلك الحين، ثم إن القبائل العربية نفسها كانت تتبادل الأدوار في هذه اللعبة الحربية الواسعة التي كانت ضرورية على ما يبدو لاستمرار العيش أو حماية النفوذ والمصالح، والوثائق التاريخية والأثرية حافلة بأنباء الكثير من الغزوات والحروب والمعارك منذ نهاية عصر البرونز وبداية العصر الحديدي، ولم يكن قيام الممالك والدويلات في المنطقة (آرام – ماري – إسرائيل – أدوميا – عمون – مؤاب – قيدار. .إلخ) ليحد من الصراعات والمعارك والغزوات، بل إن حروبا أوسع صارت تنشب بين هذه الكيانات الصغيرة بين الحين والآخر، وكانت بين كل ذلك مجموعات من القبائل البدوية الكبيرة التي لا ترتبط بأي من تلك الكيانات (مثل قبائل الشاسو والعبيرو) مما سيكون

سلاحا لها وعليها في الوقت نفسه، فهي مرة في حل من الالتزامات الدفاعية المترتبة على الدولة أو الدويلة، وهي مرة أخرى هدفا لغزوة هذه الدولة أو تلك خصوصا من الدول الكبيرة كدولتي المصريين والأشوريين.

وفوق كل ذلك، كانت القبائل العربية، تواصل الصراع على العيش والنفوذ، فإلى جانب قساوة الصحراء ومتطلبات العيش فيها، فإن الزحف السكاني الذي ظل يدفع سكان الجنوب نحو الشمال ربما خلق ازدحاما في ظل ضآلة الموارد المائية والغذائية، وإذا ما أضفنا إلى ذلك هجمات الجيوش الكبيرة المنظمة على المناطق القبلية أمكننا تخيل الفوضى الإضافية التي ستدفع بمجموعات واسعة إلى الغرب، المنفذ الأقل قوة لصد هذا التدفق،وهو أيضا الأكثر إغراء من ناحية الموارد، خصوصا المائية والمناخ مقارنة بالمناطق الداخلية والشرقية لشمال الجزيرة العربية. ويبدو أن المناطق الغربية الشمالية المحاذية لبلاد الشام إضافة إلى بلاد الشام نفسها ظلت نسبيا اكثر أمنا واستقرارا من المناطق الشرقية والداخلية لشمال الجزيرة العربية، وهذا ما سمح ببناء حضارات في أطراف الجزيرة عاشت فترات طويلة مثل حضارة القيداريين (المديانيين) واللحيانيين والصفويين، وهكذا ظلت هذه المناطق المحاذية لمنطقة بلاد الشام خصوصا والهلال الخصيب عموما تكتنز إرثا حضاريا غنيا بعناصر بناء الدول والأنظمة السياسية والإدارية، وظل هذا الإرث هاديا للمجموعات العشائرية الكبيرة المندحرة والفائضة من هذه المناطق لمعاودة استرجاع أمجادها وبناء أنظمتها السياسية الخاصة بها، القادرة على حماية مصالحها، مستفيدة مما وجدته أيضا من أساسات وقواعد في هذا المجال، ويشهد على ذلك تبنيها لمختلف النظم الزراعية والصناعية (كصناعة الفخار) والعمرانية والإدارية (كتعيين حكام ولايات أو نواحٍ أو قضاة ومشايخ)، ثم اتخاذهم المدن السابقة مقرا لهم (كالبتراء والسلع وبصيرة) التي كانت للأدوميين، و(الحجر، والعلا وتيماء) التي كانت للقيداريين الثموديين، (وصلخد، السويداء) التي كانت للآراميين السوريين (آرام دمشق)...إلخ.

ويجب التذكير أيضا في سياق الإرث الحضاري لبناء الدول بأن بلاد الشام ومنطقة الأردن تحديدا كانت قد خبرت بناء الدول – الدويلات منذ عصر مبكر،

وتحديدا منذ المرحلة الثانية من العصر الحديدي (١٠٠٠-٥٨٦ ق.م)، وهذه المرحلة من أهم المراحل السياسية في منطقة جنوبي بلاد الشام، خصوصا الأردن، إذ ظهرت مجموعة من الدول في بلاد الشام ومنها شرقي الأردن، وتمتعت هذه الدول بمركزية في الحكم وبعلاقات خارجية مع الدول المجاورة[٢٢].

ومنذ نهايات القرن الرابع قبل الميلاد، حتى بدايات القرن الثاني قبل الميلاد، أي ما يزيد على قرنين من الزمن، لا نملك صورة تامة عن مجريات التطور في هذه الحقبة الطويلة باستثناء القليل الذي تجود به قطع الآثار الصماء التي يعثر عليها بين الحين والأخر في الحفريات التي يقوم بها مختصون معظمهم من الأجانب، إلى أن تصلنا لمحات سريعة من الجغرافي الروماني سترابو Strabo الذي هو الآخر ينقل عن صديقين له عاش أحدهما في البتراء في القرن الأول قبل الميلاد، ينقل لنا سترابو صورة مجتمع جديد مناقض لما وصفه ديودورس قبل أكثر من قرنين من الزمان، هنا تختفي البداوة وتصبح الغلبة للتمدن والكسب والثراء والاستقرار في بيوت الحجر، وهنا يظهر الملك ونظام الإدارة، وهنا تتعمق القيم المادية على الزهد البدوي في الملكية، فيعاقب الخامل الفقير ويكافأ الغني المجد، وفوق كل ذلك، يصبح شرب الخمر طقسا من طقوس الضيافة والكرم والعبادة... إلخ.

وحسب إسترابو فقد حدثت معجزة الانتقال إلى عصر التمدن من عصر البداوة، فوجدنا مجتمعا متمدنا ومدينة مأهولة ومصقولة في الصخر، ومنازل مبنية محاطة بالحدائق، والمدينة تعج بالأجانب، وهي تعج بالثراء وبالتجارة القادمة من جنوب الجزيرة العربية ومن آسيا حتى الهند إلى الشرق، هذه هي عاصمة مملكة الأنباط المستقلة[٢٣].

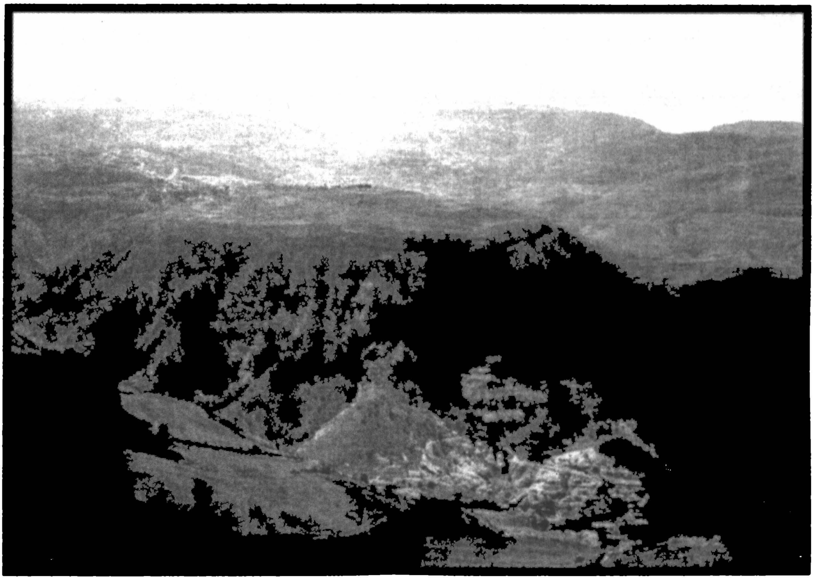
يتحدث سترابو عن البتراء في أوج ازدهارها العمراني والتجاري، بعد أن قطعت المدينة شوطا كبيرا في التمدن والتحضر من خلال الاتجار والاستقرار اللذين كانا مرتبطين إلى حد كبير، لكننا مع ذلك لا نستطيع تحديد بداية الازدهار على وجه التعيين، لكننا سنتقلى المزيد من الإشارات المفيدة من سترابو نفسـه ومن مصادر أخرى كالمؤرخ اليهودي يوسيفيوس الذي كتب كثيرا عن دولة المكابيين خصوصا

حروبهم مع دول الجوار مضطرا الإشارة إلى الأنباط من منظاره اليهودي المتعصب لليهود - للمكابيين ثم للرومان الذين منحوه الجنسية الرومانية.

من الناحية الاقتصادية، أقصد مسيرة التطور الاقتصادي للأنباط، فإن خط سير هذا التطور يمكن أن يكون أكثر وضوحا من غيره، وبالإمكان إعادة تصور المحطات الرئيسية لمسيرة التطور هذه لكن دون الكثير من التفصيلات، ومصادرنا الأساسية في هذا التطور هي ذاتها المصادر الأساسية الكلاسيكية: ديودورس اليوناني، وسترابو الروماني ويوسيفيوس بدرجة أقل، وأفضل تلك المصادر الفخار النبطي ومختلف اللقى الآثارية المادية المتنوعة.

من المؤكد أن الأنباط قبل ظهورهم السياسي في القرن الرابع قبل الميلاد كانوا قبائل وجماعات يغلب عليها الطابع البدوي في نمط العيش والاقتصاد، جماعات عماد اقتصادها قطعان الإبل بالدرجة الأولى ثم الأنواع الأخرى من الماشية خصوصا الضأن كما شهد سترابو، ولو افترضنا أيضا أن قسماً منهم كان قد اعتاد حياة التمدن في الحجر أو في تيماء أو العلا قبل هجرتهم إلى الغرب نحو جبال الشراة "سعير"، فإن هذه الفئة لا بد من أنها أعادت بناء نفسها والمعطيات الجديدة، أي الاستعداد للارتحال الدائم، ثم الاهتمام أكثر باقتناء الإبل، مع الاحتفاظ بالتطلع إلى الفرص التجارية أو فرص الاستقرار كلما أمكن ذلك، دون أن ننسى أن شرائح متزايدة من الأنباط كانت على صلة بالزراعة قبل نزوحها الجبري والاختياري نحو الشمال الغربي، أي نحو بلاد الأدوميين، ولا شك أيضا في أن امتهان الزراعة كان ذا صلة وثيقة بالعمل التجاري للأنباط، فهو ضروري لتموين القوافل بالحبوب خصوصا وبالمنتجات الأخرى التي توفر سلعا لهذه القوافل يمكن المتاجرة بها والحصول من خلالها على بعض المال أو بعض السلع التي تحملها القوافل عندما كانت تتوقف في المحطات التي يقطنها الأنباط. وهكذا يمكن الافتراض أن الأنباط قدروا قيمة الأعمال الزراعية في وقت مبكر وعلى الأرجح بعد استقرارهم في بلاد الأدوميين، وقد جذبت بلاد الأدوميين خصوصا جبال الشراة - سعير ما يمكن تسميته بطلائع المزارعين الأنباط ليشاركوا الأدوميين خبراتهم في هذا المجال ثم ليبدؤوا مزاحمتهم فيه في وقت لاحق ليرثوا هذا

القطاع أيضا من قطاعات العمل الاقتصادي بعد أن كانوا قد احتكروا قيادة القوافل التجارية وتهيئتها بكل مستلزماتها ذهابا وإيابا عبر شرايين الطرق المتفرعة شمالا وجنوبا، شرقا وغربا.



"بصيرة" عاصمة الأدوميين، تقع على التلة الحصينة المحاطة بالأودية – قرب الطفيلة

وبالنسبة لهؤلاء ثم لكل الأنباط القادمين من الشرق والجنوب، فإن بلاد الأدوميين أصبحت أكثر المناطق استقبالا للجماعات الجديدة، ويجب الاستذكار دائما أن الأنباط ليسوا بغرباء عن المنطقة، وليسوا بغرباء عن الأدوميين، فلا بد من أنهم تعارفوا قبل ذلك من خلال عمليات النقل التجاري والتبادل التجاري، ولربما تعاون الطرفان في توفير خدمات القوافل التجارية في أرجاء المنطقة، وكان للأدوميين تجارة واسعة أيضا، وربما كانوا وسطاء أكثر منهم أصحاب تجارة بسبب موقع بلادهم المتوسط بين الأسواق الكبرى، وبالحد الأدنى فقد شكلت بلادهم ملتقى الطرق التجارية المتجهه نحو الشمال والغرب أو العكس نحو الشرق والجنوب مرورا بتيماء ومكة نحو جنوب الجزيرة ونحو شرقيها إلى الهجرة (الجرعاء) على الخليج العربي، ثم على ميناء البحر الأحمر الأكثر قريب لهم (لوكي كومي) و (إيلة). هذه الطرق التجارية كانت قد وفرت للطرفين حدا معينا من التعارف وربما التزاوج في مرحلة أبكر مما يعتقد بعض

الدارسين الذين جعلوا الاختلاط والتمازج النبطي الادومي لاحقا لانهيار دولة الأدوميين مع أواسط القرن السادس الميلادي على يد الملك الأشوري نابونئيد (٥٥٢ ق.م) أو الملك الفارسي قمبيز، إن افتراض هذا التمازج سيظل مدعوما بالكثير من الدلائل ومنها الدلائل اللغوية حيث تتشابه اسماء الأشخاص وكذلك الدلائل الدينية حيث المشاركة في الآلهة، ومن ذلك مثلا أهم الآلهة الأدومية التي تبناها الأنباط أو كانوا يشاركونهم فيها: ذو الشرى الذي خلف " قوس" إله الأدوميين. إذ أن المكتشفات الأثرية كشفت النقاب عن عدد كبير من المستوطنات الأدومية المتأخرة في المناطق التي آلت أخيرا للأنباط. ويرى الأثريون أن النقوش الأدومية بقيت قيد الاستعمال حتى العصر الهلنستي، فقد عثر (Gluck 1971) على كسرتين من الفخار عليهما كتابة أدومية الأولى في تل الخليفة، والثانية في موقع العزى الواقع إلى الجنوب من تل عراد إلى الجنوب الغربي من البحر الميت في فلسطين، وكتب على الكسرة الأولى اسماء مثل قوس بنا، وقوس نداب، وبي قاقس، بينما يتحدث النص المكتوب على الكسرة الثانية عن إعطاء أوامر لإحضار طعام إلى أحد المذابح[٢٤] والحقيقة أن الزراعة في جنوبي بلاد الشام كانت قد راكمت تراثا عريقا منذ العصر الحجري النحاسي، وظل هذا التراث يتراكم ويتطور فجمع بين الزراعة وتربية الماشية، وبمرور الأيام اتجه مزارعو العصر البرونزي القديم (٣٥٠٠-٣١٠٠ ق.م) إلى الزراعات الشاملة، ثم اهتموا بزيادة الإنتاج لأغراض التصدير، وأدى هذا إلى ظهور أنظمة اقتصادية معقدة رافقها إنتاج بضائع لا علاقة لها بالزراعة[٢٥] أما بالنسبة لأنواع الزراعات فإنها أصناف المزروعات تكاد تكون نفسها منذ أبعد العصور، فطبوغرافيا المنطقة ومناخها وأمطارها هي التي تتحكم أكثر بهذه المزروعات شأن المناطق الأخرى في العالم، لذلك فإنه يمكن القول أن العنب وأشجار اللوزيات والرمان وما شابه ذلك عرفت في المنطقة منذ أقدم العصور، ولا شك أيضا في أن الزيتون كان من أقدم الزراعات على الرغم من إشارة سترابو التي قال فيها أن الأنباط كانوا يستخدمون زيت السمسم بدلا من الزيتون، لكن إشارات أكثر دلالة وصلتنا من مصادر متعددة عن انتشار الزيتون في المنطقة مثلما انتشرت في المناطق الكنعانية المجاورة، أما الحبوب فهي أيضا من أقدم

الزراعات لأنها ظلت ولا تزال متطلبات أساسية لغذاء الإنسان والحيوانات الأليفة أيضا.

في مجال الصناعة، ورث الأنباط نوعين أساسيين من أنشطة الأدوميين الصناعية وأهمها صناعة الفخار التي تشير الدراسات إلى تطوره المباشر عن الفخار الآدومي الذي يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد[٢٦]. ثم تعدين المعادن، خصوصا النحاس الذي اشتهرت به منطقة فينان قرب الطفيلة، ثم مناجم النحاس وغيره في سيناء القريبة مما سنتعرض له في الفصل الرابع في مناقشة النظام الاقتصادي للأنباط.

ثالثا- الوضع السياسي الإقليمي في أثناء فترة الأنباط (العوامل السياسية الخارجية):

نعاود التعرض مرة أخرى لبدايات ظهور الأنباط على المسرح السياسي في نهايات القرن الرابع قبل الميلاد، ولكن لا بد من وجود معادلات دولية أو إقليمية ستساعد الأنباط على هذا الصعود بعد أن استطاعوا بناء قوتهم الذاتية ليس على أنقاض دولة الأدوميين مثلما يميل بعض الدارسين لوصف نشوء الدول، بل على الأساسات المتبقية من هذه الدولة مثلما وردت الكثير من الإشارات الأثرية خصوصا المخلفات العمرانية، والنظم الدينية والآلهة، المصاطب الزراعية وآبار المياه، وطرق التجارة.

كان الاسكندر المقدوني قد استكمل اجتياحه مناطق شرق آسيا وشمالها الغربي، ووقعت سوريا تحت حكم السلوقيين ورثة المقدوني في المشرق، حيث ظلت حدودهم غير مستقرة بسبب استمرار الصراع مع أشقائهم البطالمة في مصر، وتنازع الطرفان السيطرة على السواحل الشرقية للبحر المتوسط والممالك المحاذية لها، ويبدو أن السلوقيين ترددوا في التوغل إلى الجنوب أو أنهم جعلوا من ذلك مهمة ثانوية قبل أن يتعرفوا على أهمية المنطقة تجاريا واقتصاديا، حيث كيان الأنباط النامي إلى أن أرسل أنتيجونوس حملتيه الشهيرتين اللتين مرا ذكرهما ذلك في العام ٣١٢ ق.م في محاولة منهم لجني بعض المكاسب كالسيطرة على الطرق التجارية والسيطرة على استخراج القار من البحر الميت، لنجد الأنباط وقد تحصنوا في الصخرة (البترا) دون أن يحقق منه الشئ الكثير قبل عودته..

وإلى الغرب من هذه القوة الصاعدة أو الضاربة، كانت قوة البطالمة الذين سيطروا على مصر وراحوا يحاولون التوسع والسيطرة على الطرق البحرية التي كان الأنباط يتمتعون بالسيطرة عليها منذ ذلك الحين، خصوصا سواحل البحر المتوسط كغزة وعسقلان حتى رفح إضافة إلى الموانئ الفينيقية في الشمال، وهكذا وجد الأنباط أنفسهم أمام تحديات كبيرة وعظيمة ليس لهم بها من قبل، لكن هذه التحديات لم تكن هي الوحيدة، فثمة تحديات أخرى مزعجة على حدودهم الغربية حيث مملكة يهودا التي ظلت تعيش في حالة مستمرة من عدم الاستقرار والتقلب نتيجة بعض الأحداث الداخلية ونتيجة لمعادلات الصراع الدولي على المنطقة بين القوتين العظميين قبل الاجتياح المقدوني والفارسي القصير، كانت الدولة الفارسية " الفرثيين " في الشرق تسعى جاهدة لحماية مصالحها وطرقها التجارية نحو الغرب المارة بمناطق شمال شبه الجزيرة العربية، حتى حدود فلسطين أو حدود سيناء، وبالمقابل كانت الدولة البطلمية تجاهد بكل السبل لحماية مصالحها في الشرق، التي تضم طرق التجارة إلى الجزيرة العربية البحرية والبرية إضافة إلى الكثير من مناجم النحاس والمعادن الأخرى التي كان بعضها في سيناء وجنوب الأردن.

استمر صراع خلفاء الاسكندر المقدوني في جنوب سوريا وسواحلها الغربية، وكانت الغلبة تميل لصالح البطالمة، إذ أنهم استطاعوا الوصول إلى موانئ البحر الأحمر بشكل مبكر، وعلاوة على موانئه على الشواطئ المصرية فقد أسسوا موانئ لهم في الساحل الشرقي للبحر الأحمر ليسيطروا على الطرق التجارية البحرية والبرية المارة إلى جنوب الجزيرة العربية وإلى شرقيها حيث عبر هذه الخطوط تجلب أهم أنواع التجارة الشرقية، البخور والمر والحرير.

ونتيجة لضعف البطالمة في القرن الثاني الميلادي، تمكن السلوقيون من السيطرة على المنافذ و الطرق التجارية. حيث تمكن انطيوخوس الثالث من انتزاع غزة من البطالمة إلى جانب ذلك ازداد الضغط الفارسي على العراق ما أدى إلى فوضى عارمة في العراق نتج عنها تحول الطريق التجارية منها نحو جنوب سورية فعاد الازدهار إلى التجارة النبطية. وهنا يمكن القول أن ازدهار الأنباط في أثناء مرحلة

النزاع السلوقية البطلمية كان نتيجة استغلالهم الوضع السياسي والاقتصادي في المنطقة في هذه الفترة. وقد استمروا في ازدهارهم وقوتهم واستقلالهم الذاتي حتى الفترة الرومانية.

وقد وصف ديودورس الصقلي الأنباط قائلا: لقد واجهوا الغرب بقوة ورفضوا العبودية بوقوفهم في وجه الأشوريين ثم الميديين والفرس والمكدونيين، وكان حكام مصر البطالمة قد أدركوا أهمية المنطقة الاستراتيجية وغناها وخطرها على إمبراطوريتهم، لذا حاولوا إخضاع الأنباط لسيطرتهم لكنهم فشلوا فاتجهوا إلى محاولات الصلح والتعاون مع الأنباط واستمالتهم، بعد أن فشلت محاولات البطالمة بضرب حصار على الموانئ البحرية النبطية في البحر الأحمر والساحل المتوسط إضافة إلى قيامهم بإنشاء محطات برية لضرب التجارة التي تمر ببلاد الأنباط. لكن الأنباط ردوا بعنف على البطالمة ودأبوا على مهاجمة السفن التجارية البطلمية والاستيلاء عليها وقاموا بتدمير المحطات البرية وعرقلوا نشاط السلوقيين والبطالمة التجاري. ولذلك حاول كل من البطالمة والسلوقيون استمالتهم إلى جانبه وتحسين علاقاته معهم. ومع ذلك ظل السلوقيين يثبتون أقدامهم في الشمال السوري ويمتدون جنوبا لتصبح المنطقة الجنوبية من بلاد الشام تحت نفوذهم بما في ذلك دولة الأنباط ودولة يهودا الجنوبية، وهذه المسـألة لا تزال محط اجتهاد الباحثين، وأغلبهم يعتقد أن مملكة الأنباط نجحت في الحفاظ على استقلالها، إلا أن ذلك يظل محط تساؤل في ظل بعض الحقائق الموجودة وبعض الحقائق الأخرى الغائبة، **أما الحقائق الموجودة بين يدينا الآن، فهي:**

١- كان الملك الحارث الأول ١٦٩- ١٦٨ ق.م هو أول ملك نبطي معروف لدى الباحثين، ولا يوجد قبله أية آثار أو إشارات تشير إلى ملك اسبق منه !

٢- سك معظم ملوك الأنباط في عهد ازدهار دولتهم نقودا برونزية حرص معظمهم على وضع صورة الملك السلوقي أو البطلمي على أحد وجوهها، وسك الحارث الثالث (٨٧-٦٢ ق.م) عبارة "فيل هيلين Philhellene" ومعناها "المحب لليونان" وقد فسرها البعض بالانتشار الواسع للحضارة اليونانية وهيمنتها على العالم آنذاك، دون أن يشير إلى مغزاها السيادي.

وأما الحقائق الغائبة فهي أيضا تحمل مغازي عميقة لا نجد لها اجابات شافية حتى الآن لدى معظم الباحثين، وأهمها:

١- كيف كان وضع الأنباط السياسي قبل ظهور الملك الحارث الأول ١٦٩ ق.م حتى بداية العصر الهلنستي، أي بداية الغزو اليوناني للمنطقة منذ عام ٣٢٢ ق.م ؟ ونحن هنا بصدد قرن ونصف تقريبا من الغموض ؟

٢- كيف تعامل اليونانيون البطالمة والسلوقيون مع الأنباط في الفترة المشار إليها التي لا نملك عنها ما يعتمد عليه من أي نوع من البيانات التاريخية أو الأثرية باستثناء حملة إنتيجنيوس عام ٣١٢ ق.م؟

٣- كيف أدار الأنباط صراعاتهم وعلاقاتهم الخارجية في هذه الفترة المظلمة بالنسبة للباحثين الذين يقفز أغلبهم عنها دون أن يتمعنوا فيها، وهي فترة ليست بالقصيرة ليجري تجاهلها، فهل كان الأنباط خلال هذه المرحلة دويلات قبلية أم ولايات مشيخية متحالفة أم أنها كانت دولة مركزية تدار وتقاد بقمة هرمية أم تقاد بمجلس موسع يضم القادة ومشايخ التجمعات القبلية السائدة آنذاك ؟

بالمقابل فإن لدينا من المعلومات ما يفي بالحد الأدنى من الغرض في الفترة الهلنستية منذ أواخر القرن الثاني قبل الميلاد، حتى عام ١٠٦ ميلادي العام الذي ضم فيه تراجان المملكة النبطية إلى ولايات الإمبراطورية الرومانية، لتفقد منذ ذلك التاريخ استقلالها الذي نعرفه من خلال ملوكها المتتالين في سلسلة على درجة عالية من المتانة والصحة، ونعرفه أيضا من خلال إدارة الأنباط عدة معطيات في الشأن الخارجي وأهمها الحروب الخمسة مع دولة الحشمونيين (المكابيين) و(الهيروديين) في جنوب فلسطين، وحروبهم مع السلاجقة أيضا.

سيكون أمامنا وضع افتراضات لا نستطيع الجزم بصحتها للفترة التي سبقت قيام أسرة مالكة للأنباط منذ أوائل القرن الثاني قبل الميلاد، والافتراض المنطقي– من وجهة نظرنا – هو أن الأنباط كانوا يشكلون مشيخة أو دويلة صغيرة تقوم على مركز قوي متمثل في البتراء ومنطقتها (جبال الشراة)، ولها مجال حيوي واسع

يتحكم بالطرق التجارية، وهذه الدولة تقوم على تقاسم الأدوار والواجبات والمنافع بسلطة الاتفاق والتراضي لا بقوة السلطة المركزية وحسب ،ويستدل من حملات أنتيجوناوس Antigonas ٣١٢ ق.م أن الحملة العسكرية الأولى التي سيرها إلى البتراء استطاعت الوصول إلى البتراء بسهولة على ما يبدو بعد أن تجاوزت مسافات شاسعة من منطقة دمشق دون أن تعترضها قوة تذكر، بحيث تستطيع مفاجأة أهل البتراء الذين كان شبابهم في الخارج حسب رواية ديودور الصقلي، وكانت الحملة مكونة من أربعة آلاف من المشاة وستمئة من الفرسان، وقد سارت الحملة ما يقرب من ثلاثة أيام، وهذا يشير إلى أنه لا توجد سلطة مركزية تراقب الحدود، بل إن هذه الحدود مسؤولية جهة أخرى، هي - على الأرجح - أحدى القبائل المحاذية للحدود، وربما كانت قبائل المؤابيين التي كانت في حالة من الضعف الشديد في هذه الفترة وفق ما نعرف من خلال مصادر عديدة منها سفر المكابيين، وهذه القبيلة إما أنها غير ملزمة بمقاومة الحملة لعدم وجود معاهدات بهذا الشأن أو أنها لم تستطع ذلك أو أن الإغريق أبرموا معها معاهدة ودفعوا لها بعض الهدايا مقابل تسهيل المرور عبر أراضيها. والغريب أن المشكلة تعود وتتكرر بعد بضع شهور ولكن هذه المرة يكون الأنباط في حالة ترقب وتوقع لها، ولذلك فقد كانوا بثوا العيون والحراس في المناطق المشرفة للإنذار باقتراب العدو، فلما علموا بزحف ديمتريوس (ابن الحاكم أنتيجيوناس) نحو صخرتهم على رأس حملة أضخم من الأولى، أسرعوا بحمل أمتعتهم، وأمنوا أموالهم وما لم يستطيعوا حمله من متاعهم في مواضع غاية في الحصانة والمنعة (يعتقد أنها صخرة البيارة قرب البتراء) ثم تفرقوا في الصحراء، فلما وصل ديمتريوس إلى الصخرة لم ينجح في اقتحامها، وانتهى به الأمر أخيرا إلى الرحيل عنها بعد أن قنع بما تلقاه من هدايا الأنباط.

والأسئلة في شأن هذه الحملة ومعطياتها كثيرة ولكنها تتمركز حول وجود السلطة المركزية، فلا ذكر للملوك أو الأمراء أو الجيش، كل ما في

الروايات أن شباب الأنباط بادروا في اللحاق بجيش الأغريق بعد أن عادوا إلى البترا وعلموا بقصة الغارة، ولا نعلم أين كان هؤلاء آنذاك؟ هل كانوا في غزوة قريبة أم كانوا رعاة في الجبال أم أنهم كانوا في رفقة إحدى القوافل أو في إحدى الأسواق الموسمية!؟.

أما في المرة الثانية، أي الحملة التي قادها ديمتريوس بعد بضعة شهور، فإن التساؤلات أيضا تدور حول المحور نفسه، صحيح أن أهل البتراء أدركوا الأبعاد الخطيرة التي خلفتها غارتهم على معسكر أثنيوس في المرة الأولى، وأنهم أحسنوا في اتخاذ خطوة دبلوماسية بإرسالهم رسالة اعتذار وإعلان حسن نوايا لأنتيجيوناس، وصحيح أيضا انهم بدؤوا باتخاذ خطوات عملية من المراقبة والاستعداد لرد فعل أنتيجيوناس، لكنهم لم يكن لديهم حدود ليدافعوا عنها قبل وصول الحملة إلى الصخرة – البترا، ولنتجاوز هذه القضية، فإن أسلوب التراجع للدفاع عن الحصن قد يكون في ذلك الحين هو أفضل السبل العسكرية، لكن سيظل السؤال يدور حول دور الأجزاء الأخرى من البلاد في الدفاع عن عاصمتهم آنذاك إذا كانت تلك عاصمتهم من حيث المبدأ؟

وما نستطيع افتراضه بشأن وضعية البتراء في ذلك الوقت بالنسبة إلى الأجزاء الأخرى من المنطقة هو أنها مركز تجاري للمنطقة وليست عاصمة سياسية أو إدارية، وهي حتى وقت لاحق ظلت كذلك إلى أن تنبه الأنباط وكل القبائل المحيطة إلى أهمية قيام كيان مركزي ليس لمواجهة التحديات الكبيرة التي فرضها وجود الإغريق في المنطقة وصراعهم على النفوذ فيها، بل بسبب استمرار التحديات المحلية والإقليمية أيضا المتمثلة في غزوات القبائل وحروبها الداخلية وتهديد القوافل التجارية، ثم التحدي الأخطر المتمثل في الدولة اليهودية في الشرق التي ما فتئت تتطلع إلى السيطرة على بعض المناطق الشرقية لنهر الأردن حيث دأبوا على الإغارة عليها واحتلال بعضها فترة من الزمن.

رابعاً- حدود الدولة النبطية ومناطق نفوذها وجغرافيتها ومناخها:

كان لجغرافيا مملكة الأنباط أهمية حاسمة في مكانتها نظرا لموقعها الاستراتيجي المسيطر على ملتقى القارات والبحار القديمة مما جعلها تتحكم بطرق التجارة البرية والبحرية ما بين الشرق والغرب، فقد شملت هذه الجغرافيا شمال شبه الجزيرة العربية والسواحل الشمالية للبحر الأحمر مكان مملكتي مدين وأدوم، وهي المنطقة التي أطلق عليها الرومان "بلاد العرب الصخرية" Arabia Petraea، وشملت كذلك منطقة بادية الشام[٢٧] وبلغت رقعة الأنباط أقصى امتداد لها في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد، حيث شملت منطقة دمشق وجنوبي سورية وجبال لبنان الشرقية[٢٨]، ومن النقب وسيناء وشرقي الأردن وفلسطين وشمال الجزيرة العربية حتى خيبر ومناطق الخليج العربي، لذا لفتت هذه المملكة أنظار الامبراطوريات الكبرى اعتبارا من الإمبراطورية الأشورية في الربع الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد، حيث برهن الأنباط انتماءهم العربي من خلال رفضهم الاحتلال[٢٩] والدفاع عن حريتهم وكرامتهم والتصدي للغزوات الخارجية وإيقاف التوسع السلوقي في البلاد العربية[٣٠].

شكلت المنطقة الأدومية نواة البنية الجغرافية للأنباط، وكان الأنباط قد سيطروا على أدوم ومؤاب في القرن الرابع قبل الميلاد[٣١]، وكانت مملكة الأدوميين قد قامت في جنوب الأردن بين وادي الحسا وخليج العقبة، في الفترة الممتدة من القرن التاسع حتى الغزو الفارسي في القرن الخامس قبل الميلاد، وكانت بصيرة عاصمة الأدوميين، وهي القرية الحالية التي تحمل الاسم نفسه قرب الطفيلة[٣٢]، ومن اهم مواقع الأدوميين في شرقي الأردن إضافة إلى بصيرة والبتراء التي كانت تسمى "الصخرة" زمن الأدوميين، ويعتقد الكثير من الدارسين، خصوصا التوراتيين أن السلع - البترا هي نفسها التي ورد ذكرها في التوراة زمن إمازيا حيث الرواية الدرامية التي يقتل فيها إمازيا عشرة آلاف من الأسرى الأدوميين من خلال رميهم من أعلى قمة من السلع.

وكان الأدوميين قد ورثوا هذه المنطقة من الحوريين سكان الكهوف الذين عرفوا في منطقة سعير- جبال الشراة منذ أقدم الأزمان حسب بعض الدارسين، ويبدو

أن "سعير الحوري" كان أميرا على تلك الأقوام وبه سمي الجبل جبل سعير، ولقد ورد في التوراة ذلك اللفظ حيث يتحدث سفر التكوين عن الجزء الجنوبي من الأردن، وذلك الجزء الذي يمتد من وادي الحسا إلى خليج العقبة[٣٣]، ويوجد سبب قوي للاعتقاد أن البتراء هي (سلع) المذكورة في التوراة، أضف إلى هذا أن الاسم العبري والاسم اليوناني (بتراء) يدلان على المعنى نفسه "الصخر" مع أن كلمة سلع في اللغة العربية تعني بالتدقيق الشق في الصخر، وهذا أكثر تطابقا مع طبيعة البتراء وموقعها. ونحن نفهم من أقوال التوراة أن سلع تقع في مملكة أدوم القديمة التي كان يسمى سكانها الأصليون (حوريون) أو سكان الجبال، وهم الذين طردهم الأدوميون وحلوا محلهم، حتى جاء الأنباط فطردوا الأدوميين بدورهم واستولوا على بلادهم. وتروي التوراة أن (أمصيا) ملك يهودا (٧٩٦-٧٨١ ق.م) احترب مع الأدوميين في معركة كبيرة وألحق بهم الهزيمة وذبح عشرة آلاف منهم على أرض المعركة (أو عشر عائلات لأن الكلمة العبرية تعطي كلا المعنيين) وأخذ عشرة آلاف آخرين (أو عشر عائلات) إلى الصخرة (سلع) التي استولى عليها "وطرحهم عن رأس سلع فتكسروا أجمعين"، وقد وجدت على قمة (أم البيارة) وهي أعلى القمم الضخمة بين جبال البتراء غربي الهيكل – بعض الدلائل الثبوتية على إقامة الانسان فيها في العصر الحديدي (حوالي القرن التاسع ق.م) ولكن يبدو أن البتراء كانت تستعمل كملجأ أكثر منها سكنى للإقامة الدائمة.. ولا بد من أن الأسرى قذف بهم من أعلى هذه القمة[٣٤]. وثمة خلاف أيضا على موقع "سعير" المشار إليه عند بعض الدارسين الذي يعتمدون على ما ورد من تناقضات في تعريف التوراة نفسها لجبال سعير، إذ أن بعض النصوص الكثيرة في التوراة تشير إلى سعير وأدوم بما يضعهما غربي وادي عربة، ويمكن ملاحظة ذلك في سفر التثنية – الاشتراع بما فيه من مفاهيم أو إشارات مختلفة عن سعير – وأدوم، أو أن هذه المنطقة تعتبر امتدادا لها، أي لجبال الشراة التي تجمع أغلب الدراسات على كونها النواة للمنطقة أو الجزء الأهم فيها.

وبلغت دولة الأنباط أقصى اتساعها الجغرافي أيام حارثة الرابع، أي في أواخر القرن الأول قبل الميلاد والنصف الأول من القرن الأول الميلادي، إذ ضمت منطقة

واسعة إلى جنوب البتراء بلغت حتى حدود العلا، وكان وجودها واضحا في منطقة النقب، كما كان امتدادها إلى الشمال قد بلغ أقصاه بضم دمشق (في عهد حارثة الثالث سنة ٨٥ ق.م). وهذا الاتساع في معظمه سياسي وتجاري، إلا أن الاتساع التجاري قد تجاوز هذه الرقعة كثيرا، إذ شمل موانئ البحر المتوسط، وسيناء، وموانئ مصر، وساحل البحر الأحمر شرقي النيل، ويستخلص من النقوش النبطية التي وجدت بمصر أن الأنباط هنالك كانوا جالية خاصة لها كاهنها، وفيهم الرفاء (الذي يصلح الملابس) والاسكاف (الذي يصنع الأحذية ويصنعها) والجصاص (الذي يعد الجص أو الجبس للديكور)، ولديهم جمالون من نقلة السلع ذهابا وإيابا بين مصر وبترا، حتى كانت لهم جالية في بيتولي بإيطاليا، ومن الثابت أنهم بلغوا في تجارتهم اليمن، إن لم يكونوا تجاوزوها إلى الهند، أما شرقا فقد كانت صلاتهم التجارية تجعلهم يرودون موانئ شرق الجزيرة العربية لينقلوا السلع القادمة من الهند أو من أواسط آسيا إلى هجر أو (الجرعاء)، ومن المرجح أن " جرعاء " هي نفسها الواقعة على الخليج العربي[٣٥].

خامساً- أقاليم دولة الأنباط:

ونظرا لامتداد رقعة الأنباط، فإنه يمكن تقسيم بلادهم حسب طبيعتها الجغرافية كما يلي:

أولاً- منطقة جبال الشراة شرقي الأردن:

وهي نواة الدولة النبطية وفيها عاصمتها الخالدة البتراء، وجبال الشراة كانت موئل حضارتي المؤابيين وعاصمتهم "ديبون – ديبان" في مادبا حاليا والأدوميين وعاصمتهم "بصرى – بصيرة" في محافظة الطفيلة حاليا، وتتكون المنطقة من سلسلة جبلية تنتهي إلى الجنوب من مادبا شمالا (وادي أرنون – الموجب) وإلى خليج العقبة جنوبا ثم تتجه إلى الشرق قبل أن تعرج شمالا إلى جبل رم الذي يكاد يفصل حدود المملكة العربية السعودية عن المملكة الأردنية الهاشمية، وبذلك فإن هذه المنطقة تتكون من سلسلة من الجبال إلى الشرق من البحر الميت وشريط صحراوي في الجنوب (النقب) وشريط أخر في الشرق ويعتبر امتدادا لشمال شبه الجزيرة العربية.

ثانياً- المنطقة الشمالية الغربية لشبه الجزيرة العربية:

أي المنطقة الجنوبية لمملكة الأنباط: تشمل هذه المنطقة الجغرافية شمال غرب المملكة العربية السعودية، والمنطقة المتممة لها الواقعة جنوب الأردن من رأس النقب إلى العقبة، وتمتد من وادي القرى جنوبا إلى رأس النقب والعقبة (إيلة) شمالا وهذه المنطقة الممتدة تضم جبال الحجاز الشمالية، ويطلق عليها "مدين" ويعد جبل رم في الأردن الحد الشمالي لها، وتضم أيضا حوض تبوك، وصحراء حسما التي تتألف من هضاب حجرية رملية منفصلة، وتمتد جنوب شرق سلسلة جبال مدين (الحجاز)، وإلى الجنوب من هذه الصحراء تقع واحة تبوك. وتضم هذه المنطقة مركزين مهمين من مراكز الأنباط: مدينة الحجر وميناء "لوكي كومي" الذي يقدر موقعه بموقع "أم لج" على البحر الأحمر.

ثالثاً- حوض صحراء الحماد:

يشكل القسم الأكبر منها الجزء الشرقي من الأردن حاليا، وهي تمتد من رأس النقب جنوبا إلى الحرة عند جبل العرب شمالا، ومن المرتفعات الأردنية المطلة على وادي الأردن غربا إلى وادي السرحان شرقا، وتعرف الحماد بأرض الصوان، خاصة منطقة الجفر، ويعبر هذه الصحراء عدة طرق قديمة، أهمها: الطريق التجاري البتراء - بصرى الشام. ثم طريق دومة الجندل - باير - البتراء. ثم طريق وادي السرحان - الأزرق - بصرى الشام.

رابعاً- وادي السرحان:

ويقع إلى الشرق من حسما والحماد، ويمتد من الجوف جنوبا إلى الأزرق شمالا، ونظرا لانخفاضه، فإن الأودية تصب فيه من كل الجهات، مما ساعد على تشكل واحات متعددة، مثل: دومة الجندل (الدومة)، الأزرق وبعض السبخات المالحة مثل قريات الملح، وكانت دومة الجندل تشكل عقدة الطرق التجارية من الاتجاهات المختلفة، ولهذا كله اتخذ الوادي طريقا للقوافل والهجرات البشرية على مر العصور.

خامساً- حرة جبل العرب:

تمتد من جنوب شرق دمشق إلى جبل العرب في سوريا، ثم تستمر باتجاه الجنوب الشرقي إلى الصفاوي في الأردن حتى طريف في السعودية، وتعتبر من اكبر الحرات في شبه الجزيرة العربية، حيث تبلغ مساحتها أكثر من ٤٥ ألف كيلومتر مربع، يغطي سطحها الحجارة البازلتية السوداء، وتتألف من هضاب مستوية، وفي بعض الأحيان تختفي لتشكل القيعان(٣٦).

سادساً- سهل حوران:

وحوران هي الهضبة الواقعة جنوب دمشق في الشمال ووادي اليرموك وجبال عجلون في الجنوب ومنخفض الأزرق في الجنوب الشرقي إلى هضبة الجولان وجبل الشيخ غربا وصحراء الحماد وجبل العرب شرقا..

وحوران سهل يقع إلى الجنوب الغربي من الجزء الشمالي للحرة، ويشكل أرضا خصبة كانت تنتج كميات كبيرة من الحبوب، حيث كانت تسـمى " أهراء روما " في الفترة الرومانية، وأهم قراها سيع وصلخد وبصرى (من أعمال محافظة السويداء في سوريا) وأم الجمال، وتمر منها شبكة طرق تجارية(٣٧).

وفي الشمال ضمت منطقة الأنباط منطقة حوران بكاملها وفق غالب الشواهد، وإن كان ذلك قد تم بصورة تدريجية أو في وقت متأخر من قيام المملكة النبطية. ويعود وجود الأنباط في حوران إلى زمن مقارب للوجود النبطي في النقب، وتشير " بردية زينون " إلى وجود الأنباط هنالك حوالي سنة ٢٥٩ ق.م، ولكن طبيعة ذلك الوجود المبكر غير واضحة، ولعل سيطرة الأنباط بالمعنى الصحيح على حوران لم تتم قبل عهد عبادة الأول حين اصطدم بينايوس سنة ٩٣ ق.م في النزاع على الجولان، وعهد حارثة الثالث الذي استولى على دمشق سنة ٨٥ ق.م (٣٨).

وتكمن أهمية المنطقة في كونها همزة وصل بين وادي السرحان، وهي الطريق الآتي من الجزيرة العربية إلى سوريا، وبين شمال سوريا وجنوبها، إضافة إلى أهميتها الزراعية؛ حيث كانت تشكل مستودعا لمنتجات الحبوب والفواكه. وقد عرفت

عند الأنباط باسم "باشان"، وذكرها الأشوريون باسم "حورانو"، وقد تبع القسم الأكبر منه مملكة الأنباط، وكانت بصرى عاصمتهم الثانية، ومن أهم مراكزهم التجارية.وقد أسس الأنباط فيها عدة مدن ومستوطنات مثل: أم الجمال وسيع وقنوات واللجاة وغيرها، وتبعت دمشق لهم في بعض الأحيان، وربطها الأنباط بشبكة من الطرق[٣٩]. وقد وجد في مدينة السويداء السورية خرائب وآثار نبطية منها معبد، مثلما وجد في صلخد أيضا مبانٍ ومعبد تعود للأنباط[٤٠].

ويشير د.إحسان عباس إلى أن الأنباط أقاموا في حوران مصالح تجارية في المقام الأول بغض النظر عن مدى نفوذهم السياسي والشاهد على ذلك أنهم لم يصطدموا بالرومان حين احتل هؤلاء سوريةعام ٦٤ ق.م، ولم نسمع عن أية مواجهة بينهم وبين البارثيين (الفرتيين) حين دخلوا سورية(البقاع) سنة ٥١ ق.

وثمة اسئلة كثيرة بحاجة إلى توضيحات جادة بشأن العلاقات النبطية بمناطق نفوذهم في الشمال، أي في سورية، ذلك أن تلك المناطق تكاد تكون منفصلة عنهم جغرافيا بسبب حاجزين كبيرين، هما: حلف المدن العشر (الديكابولس) والمنطقة التي تسمى بيرايا (البرية)، وكانت الطريق إليها عبر المدن العشرة، وطريق وادي السرحان الذي يبتعد شرقا ثم ليعاود التفافه ليصل إلى حوران[٤١].

سابعاً- وادي عربة:

وهو الجزء الجنوبي من حفرة الانهدام الأردنية، حيث تمتد من الحافة الجنوبية للبحر الميت شمالا إلى خليج العقبة جنوبا مسافة ١٨٠ كيلومتراً، ويتراوح مستوى هذا الوادي من ٤٠٠ م تحت سطح البحر عند طرفه الشمالي قرب البحر الميت إلى ٤٠٠ م فوق سطح البحر عند الريشة في منتصف المسافة تقريبا، ثم ينخفض ليصل إلى مستوى سطح البحر عند إيلة- العقبة، وتحيط الجبال بهذا الوادي من الجهتين، الشرقية والغربية مثل الجدار، فجبال الشراة من الشرق وهي جبال رملية تتخللها الأودية السحيقة التي تحوي بين جنباتها مدينة البتراء، ويحده من الجانب الغربي جبال صحراء النقب، مما جعل طرق التنقل بين الشرق والغرب محدودة[٤٢].

ثامناً- صحراء النقب:

هي القسم الجنوبي من فلسطين، تقع إلى الغرب من وادي عربة، تشكل مثلثا رأسه خليج إيلة (المرشرش) في الجنوب وعلى خليج العقبة، وقاعدته بين غزة على البحر المتوسط في الغرب والخليل في الشرق، وتشكل هذه الصحراء نصف مساحة فلسطين تقريبا (١٢،٥٧٧كيلو متر مربع)، بالرغم من طبيعتها الصحراوية الجافة، إلا أنها شهدت نهضة زراعية في عهد الأنباط، ويبلغ معدل الأمطار السنوي فيه نحوا من (١٢٠ ملم) وعدد الأيام الماطرة ١٠- ٣٠ يوما ولعل أهم مدنها غزة ذات الميناء الشهير، وعبودة، ونتسانا (عوجا الحفير) والخلصة، ومن مدنها الحالية التي بنيت في عهد الكنعانيين بئر السبع(٤٣). ومن غزة تمر الطريق الساحلية بين مصر وسوريا، وبها ينتهي طريق البخور الآتي من جنوب الجزيرة، وتمتد سلسلة جبال صخرية من الخليل باتجاه الغرب لتصل إلى شرق غزة تسمى محدودبات النقب.

وتعتبر الخلصة Elussa العاصمة الإقليمية للنقب زمن الأنباط، تجاورها من الشرق "كرنب" وعبودة من الجنوب على الطريق التجاري النبطي المؤدي إلى غزة. أما كرنب فتقع على تلة صغيرة ترتفع ٤٧٩ م عن سطح البحر، وتقع على بعد عدة كيلومترات جنوب ديمونا ملتقى الطرق القديمة، ويعود أبكر استيطان في كرنب إلى النصف الأول من القرن الأول الميلادي(٤٤). وتقع عبودة على الطريق التجاري الرئيس بين البتراء وغزة، وتحتوي على معبد وقلعة نبطية وحي سكني مبني بشكل منظم يحيط به مع القلعة سور دفاعي، يشتمل على برجين دفاعيين يتكون كل منهما من ثلاثة طوابق، ويبدو أن الاستيطان في عبودة استمر حتى الفترة البيزنطية(٤٥).

تاسعاً- صحراء سيناء:

تقع هذه الصحراء إلى الغرب من صحراء النقب وهي شبه جزيرة على شكل مثلث رأسه في الجنوب عند رأس محمد، وقاعدته على البحر المتوسط ما بين رفح في الشرق وبور سعيد في الغرب، ويمكن تقسيمها إلى ثلاث مناطق(٤٦):

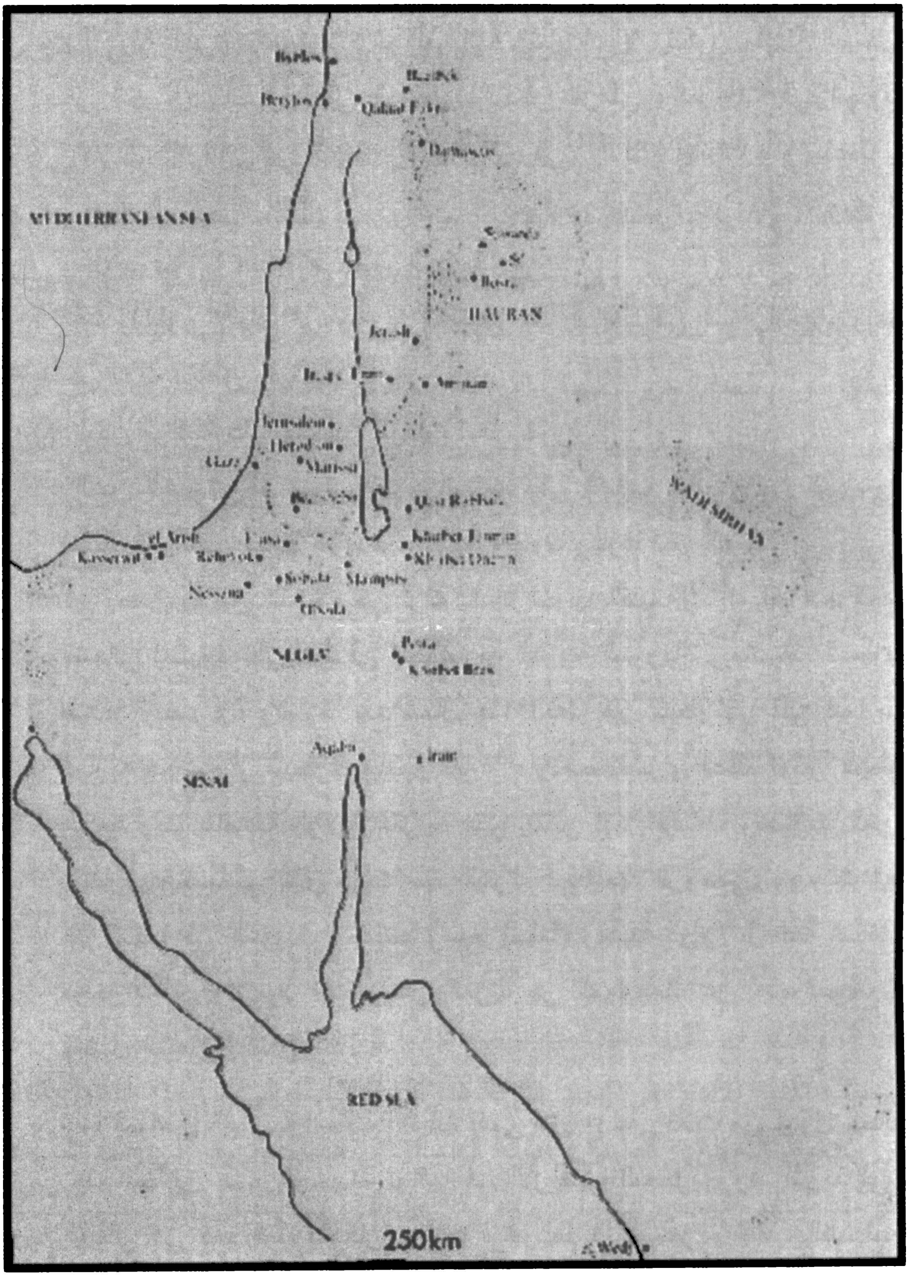
أ- **المنطقة الساحلية المحاذية للبحر المتوسط.**

ب- **منطقة التيه:** وهي سهل صحراوي عظيم تتخلله بعض الجبال التي تفصله عن منطقة الطور، ويمر عبر وادي العريش متجها إلى الشمال، كذلك يمر منه وادي فيران الذي تقع فيه مدينة فيران، وقد عثر في هذا الوادي على الكثير من النقوش النبطية.

ج – **منطقة الطور:** وهي المنطقة المحصورة ما بين جبال التيه على شكل قوس والمنطقة الممتدة من السويس إلى إيلة، وتتألف من جبال عالية وأودية عميقة.

ويكاد الوجود النبطي في سيناء يكون امتدادا لوجودهم في النقب، وإن لم يكن ذلك الوجود مشمولا بالاستثمار الزراعي الواسع، وقد كان المرجح أن سيناء لم تكن منطقة استقرار لهم، وإنما كانت طريقهم إلى مصر، ولكن يبدو من متابعة البحث والكشوف في شبه الجزيرة أنها كانت جزءا مكملا من النبطية. ويكاد وجود الأنباط في سيناء يعود إلى العهد الهلنستي، ولذلك تكون صلتهم بسيناء موازية – زمنيا – لصلتهم بالنقب ومنطقة إيدوم وجنوبي سوريا، وكانت أهم مواطنهم فيها إلى الشرق من قناة السويس وإلى الجنوب الغربي من إيلة في الشمال، وفي المنطقة الجبلية الجنوبية(٤٧).

وإذا ما نظرنا نظرة شاملة لجغرافيا الأنباط فسنراها ذات امتداد واسع شمل رقعة واسعة من المملكة الأردنية الحالية باستثناء مدن تحالف الديكابولس، وهذا التحالف يقتطع من الأنباط منطقة غنية ومهمة تبدأ من حدود مدينة مادبا جنوبا إلى مدينتي جرش ثم إربد في الشمال، وهذه المدن تشكل نحو نصف السلسلة الجبلية الغربية لشرقي الأردن فيما تشكل جبال الشراة الجزء الجنوبي منها، والسلسلة تتكون من جبال وهضاب ترتفع بين (٦٦٠- ١٢٠٠) م فوق مستوى سطح البحر، ويكون نهر الأردن حدها الغربي شمال البحر الميت. أما بخصوص ما كان يسمى منطقة "بيرايا"، وربما هي أصل كلمة "البرية" العربية، فهي كانت منطقة متغيرة السيادة ما بين الأنباط ودولة اليهود خصوصا، في عهد المكابيين، وهي المنطقة الجافة التي تحاذي البحر الميت من الشرق، حتى حدود جبال الشراة من الغرب.



خارطة مناطق التواجد النبطي

المصدر: Mckenize.,Judith, The Architecture of Petra,1990,Newyork-oxford

وتشكل الصحراء الحد الشرقي لمملكة الأنباط ويمتد إلى شمال شبه الجزيرة، حتى حدود دولة العراق المعاصرة شرقا وبادية الشام شمالا وتتكون منطقة الصحراء من الحجر الجيري والصوان في الوسط، والحجر الرملي والغرانيت في الجنوب، والحجر البازلتي البركاني في الشمال والشمال الشرقي(٤٨). لكن الأنباط ظلوا يسيطرون على الصحراء الممتدة إلى الشرق من مدن الديكابوليس ليصلوا عبر هذا الطريق إلى حوران وجنوب سوريا حيث مصالحهم الحيوية.

أما مناطق الأنباط في سوريا الحالية، فقد أسهبنا في استعراضها، ويمكن إيجازها في ثلاث مناطق رئيسية:

١- المدن الواقعة على المنحدر الغربي لجبل حوران.

٢- المدن الكبيرة والصغيرة والقرى الواقعة على الجانب الجنوبي من الجبل وفي السهل الزراعي الممتد غربا نحو درعا وجنوبا وشرقا نحو الحماد.

٣- في بعض مناطق اللجاة وهي تركونيا (تراخونيا القديمة)(٤٩) ويقع خط الحدود الشمالي للأنباط على خط في الجمهورية العربية السورية، ويمتد هذا الخط بين صلخد وبصرى، وأما ما يقع شمال هذا الخط، فإن سيطرتهم عليه فيما يبدو تجارية محضة أو سيطرة سياسية آنية(٥٠)، وتضم بصرى أعظم الآثار النبطية، فقد صارت عاصمة الولاية العربية التي ينتشر فيها الأنباط، وصارت المركز التجاري والسياسي الذي ورث مجد البتراء في العهد الروماني. ووجدت أيضا آثار مهمة في السويداء وصلخد وسيع (سيعا) ومدينة دوبو/ تل دبة المكتشف مؤخرا(٥١)، وسنعود لاستعراض المزيد من المعلومات عن هذه المواقع في الفصل المتعلق بالمدن النبطية.

أما المناطق الجنوبية لمملكة الأنباط فهي تتوزع على ثلاث من الدول الحالية، وأقصى هذه المناطق صحراء سيناء الواقعة في الأراضي المصرية، وقد أشرنا إلى أن الوجود النبطي في هذه المنطقة كان موازيا لوجودهم في صحراء النقب الفلسطينية، وأن الاهتمام النبطي فيها كان يندرج في إطار تأمين طرق التجارة عبر مصر خصوصا مينائها الهام الإسكندرية، وكان خط سير القوافل النبطية يسير من إيلة –

على البحر الأحمر عبر النقب إلى غزة، ومن غزة إلى الاسكندرية عبر حواف صحراء سيناء مرورا بوادي العريش ووادي فينان الذي عثر فيه على الكثير من النقوش النبطية(٥٢).

ومن خلال الرقعة الجغرافية الواسعة لبلاد الأنباط، يتبين لنا بيسر أن معظم هذه البلاد تقع على قفار شحيحة المياه، تكثر فيها المرتفعات الصخرية المتنوعة، ففي حوران الحجارة البازلتية، وفي النقب الحجارة الجيرية، وفي جنوب الأردن وشمال غرب المملكة العربية السعودية الحجارة الرملية والجيرية، كما تتوافر في بعض المناطق أنواع مختلفة من الأشجار التي وفرت مادة الخشب التي استخدمت في البناء، وتتميز بلاد الأنباط بوقوعها بين البحرين الأحمر والأبيض المتوسط، مما أعطاها أهمية استراتيجية، جعلها تتحكم بطرق التجارة الدولية القديمة البرية والبحرية بين الشرق والغرب(٥٣).

سادساً- الملوك الذين حكموا الدولة النبطية:

من المؤكد أن النظام السياسي للأنباط مر - قبل أن نعرفه - بمراحل تطورية إلى أن جاء بالصورة الأخيرة التي عرفناه بها ألا وهو النظام الملكي النبطي، ومن المؤكد أن المرحلة الأسبق لهذا الشكل كان النظام القبلي الذي يترأسه شيخ أو مجلس شيوخ يجري تثبيته إما بالتوافق أو بالتوارث أو بالأسلوبين معا وفق ما نعرف عن الأعراف البدوية التي لا تزال فاعلة حتى عصرنا هذا، ومن المحتمل أيضا أن الأنباط مروا في مرحلة لاحقة على النظام المشيخي ربما كان في شكل إمارات أو دويلات صغيرة، ولا بد أن القبيلة كانت عماد هذه الدويلات الصغيرة، وإنه لمن الحق التساؤل عن سبب تأخر الأنباط في إيجاد الدولة المركزية (قياسا إلى المرحلة التطورية التي تجاوزت نمط الدويلة - المدينة أو دولة المدينة التي كانت معروفة في بلاد الشام على الأقل منذ أواخر العصر االبرونزي (١٢٠٠ ق.م)، وإن التخمين بأن سبب ذلك يعود إلى حالة عدم الاستقرار السياسي والسكاني في المنطقة أمر منطقي في ضوء الحقائق التي أصبحنا نعرفها عن أحوال المنطقة في تلك المرحلة. إذ أن الحملات العسكرية الكبيرة لا تكاد تنقطع عن المنطقة منذ أمد بعيد، حتى نهاية العصر المقدوني

٣٣٢ ق.م، فمن حملات تجلات بلاسر إلى نابونئيد إلى شلمناصر إلى نبوخذ نصر من الحكام الأشوريين إلى حملات قمبيز الفارسي ٥٢٥ ق.م وليس انتهاء بحروب البطالسة والسلوقيين من أجل الاستحواذ على المنطقة وحروب الجيوش اليهودية لأجل زيادة رقعة الدويلة اليهودية، كل ذلك إلى جانب استمرار الغزوات القبلية الواسعة النطاق في ضوء التخلخل السكاني الدائم في الشرق خصوصا الناتج عن حملات الأشوريين بدرجة أقل من الفرس، وقد لاحظنا آنذاك قيام أنظمة جديدة وانهيار أنظمة قائمة خصوصا في الشرق (بلاد الرافدين وفارس)، ومن الأنظمة المنهارة حضارة قيدار وحضارة الأدوميين وحضارة اللحيانيين والصفويين وآراميي الغرب (العموريين وآراميي دمشق) ونظام (دويلات اليهود) في فلسطين و نظام (فراعنة مصر) في الغرب.

وكنا قد أشرنا في مناقشة نشوء نظام الحكم في الصفحات السابقة إلى أن الأنباط كانوا قد بدؤوا يظهرون كقوة سياسية منذ أواخر القرن الرابع قبل الميلاد على الأقل عندما بدأ خلفاء الاسكندر المقدوني الصراع على احتواء المنطقة الجنوبية من بلاد الشام والمنطقة الشمالية من شبه الجزيرة العربية للسيطرة على مفارق الطرق التجارية البرية والبحرية، مما سيدفع بالأنباط إلى واجهة الحدث السياسي والعسكري، وكانت مثل هذه الأحداث تجري دون أن نسمع شيئا عن ملك الأنباط أو حتى عن أية إشارة لنظامهم السياسي، وروايات ديودورس بشأن حملات أنتيجونيوس على (الصخرة-البتراء) تضمنت إشارات متناقضة في هذا الشأن، فالجيش السلوقي وصل إلى البتراء على حين غرة مثلما توحي الرواية، ويبدو أن ذلك وقع في النهار أو في آخر النهار لأن شباب (الصخرة-البتراء) كانوا خارجها آنذاك، ولما عادوا إليها بادروا باللحاق بجيش أنتيجيونوس وباغتوا معسكرهم في أثناء نومهم وقضوا وطرهم وعادوا بسلام غانمين. إذن أين الجيش والحرس والقادة والمسؤولين؟ لنفترض أن ديودورس كان قد تجاهل مثل تلك التفاصيل، لكن علم الآثار وحفرياته لا تدلنا على أية مسكوكات أو نقوش أو وثائق أخرى تفيد العكس، هذا ما يدفعنا للاستنتاج أن نظام الحكم لم يكن قد تحول إلى نظام سياسي ملكي أو غيره آنذاك، وعلى الأرجح أن المنطقة وشؤونها المختلفة والسياسية منها كانت تدار وفق النظام القبلي الذي سبق أن استعرضناه أيضا،

وهو قائم على وحدات إدارية صغيرة هي غالبا ما تكون المجال الجغرافي أو الديموغرافي لمجموعات سكانية، والقبيلة أو العشيرة كانت عماد هذه الوحدات، خصوصا في ظل المرحلة التي كان ديودورس وقبله هيرودت قد وصفاها بالطابع البدوي، إنه النظام البدوي – العشائري الذي لا يزال فاعلا في أيامنا هذه بهذه الدرجة أو تلك في الكثير من البلدان العربية، ولأن مجتمع الأنباط كان قد ورث مجتمعات أسبق، وأهمها الأدوميين والمؤابيون، فإن هذه المجتمعات كانت قد عرفت الزراعة والاستقرار الزراعي قبل ظهور الأنباط بعدة قرون، ومن المؤكد أيضا أنهم عرفوا أنظمة سياسية غالبا ما كانت ملكية وفق مقاييس ذلك العصر على الأقل، وقد أخبرتنا التوراة عن سلسلة من ملوك الأدوميين، وعلمنا من خلال السجلات الأشورية عن عدد من الملوك العرب ومن ضمنهم الملكات أيضا، وكانت الملكة زبيبة (٧٣٨ ق.م) اول ملكة عربية نعرف عنها في الممالك والدويلات الشمالية لشبه الجزيرة العربية، وضمت سلسلة ملوك قيدار والعربية قائمة من عشر ملوك أولهم الملكة زبيبة، وقد تبع هذه الملكة خمس ملكات أخريات قبل أن نعرف أربع ملوك آخرين، وفي حضارة لحيان صرنا نعرف إثني عشر من الملوك. أما في الشمال والغرب لبلاد الشام، فإن لدينا أيضا معلومات عن ملوك الدويلات الكنعانية والآرامية ثم الفلسطينية والعبرية، وهذه الممالك كانت أسبق من مملكة الأنباط التي لا بد وأن أستفادت من تراث تلك الممالك وخصوصا من خلال التواصل الديمغرافي ثم الجغرافي والسياسي، أي أننا أمام أنظمة سياسية تركت تراثا إستفاد منه الأنباط إيما فائدة، خصوصا أن بعض الأنباط لم يكن بغريب عن المدنية والاستقرار والزراعة والإدارة كذلك.

ومن المحتمل أن العامل الأكثر فاعلية في قيام الدولة ارتبط بسياسات الدول الكبيرة في المنطقة وصراعاتها، أعني دولتي المقدونيين السلوقيين في الشام والبطالمة في مصر. إذ أن تنظيم المنطقة بنظام حكم واضح المعالم قادر على تحمل المسؤوليات خير لهذه الدول من فوضى اللانظام أو أنظمة المشيخات القبلية التي تحتاج إلى صرف المزيد من الوقت والجهد لضبط سياساتها ودرء أخطار غاراتها على مصالح الدول القائمة. وهذا اتجاه سيترافق مع زيادة وعي الأنباط ورغبتهم في إنشاء دولة عصرية –

وفق مقاييس ذلك العصر- مما سيحافظ على مصالحهم التجارية مستغلين حالة الصراع والتنافس بين الفريقين من ناحية، ومعظمين لدورهم بالحفاظ على شرايين التجارة ضد الأخطار التي تتهددها غارات الجماعات البدوية المنتشرة في الصحاري الواسعة من حولهم. وإنه لمن المفيد التذكير بأن المنطقة ظلت محطا لأنظار المجموعات البشرية والقبائل التي لم تجد لها موطنا نظرا لميزات المنطقة الجغرافية والمناخية إضافة إلى وجود المراعي الفسيحة وآبار المياه للمجموعات الرعوية إلى جانب القرى الزراعية أو التي يمكن أن تصبح زراعية للمجموعات الراغبة في حياة الاستقرار من خلال الزراعة والتجارة كذلك. وهذه العوامل مجتمعة ومتفاعلة لا بد من أنها خلقت لدى الجماعات البشرية من سكان المنطقة قدرا من الوعي والرغبة مما يستدعي معه إنشاء سلطة مركزية ستكون أقدر على تنظيم مصالحهم ورعاية شؤونهم. وكانت دول المنطقة قد تأسست بهذه الوتيرة من التطورات كالدولة العمونية، والمؤابية، والأدومية في الأردن في القرن العاشر قبل الميلاد أو قبل ذلك بقليل، بعد أن كونت القبائل البدوية والمراكز الحضرية وحدات سياسية معا، وأدى التنافس الذي كان قائما بين شيوخ هذه القبائل إلى التطلع للاستيلاء على مساحة واسعة من الأراضي ليتسع نطاق حكم الشيخ ونفوذ قبيلته، وربما تجمعت مجموعة من العشائر في قبيلة واحدة، وأجمعت فيما بينها على اختيار أحد الشيوخ زعيما لهذه العشائر أو القبائل، ونجد مثالا على ذلك في كتاب العهد القديم الذي يروي كيف اختير شاؤول من بين مجموعة من القضاة (الكهنة- المشايخ) حاكما واحدا على إسرائيل(٥٤).

وثمة اجتهادات حول ملك أسبق لحارثة الأول لكن دون تأكيد حاسم في هذا الشأن، وليس من المبالغة القول أن عهد الملكية كان قد ابتدأ قبيل منتصف القرن الثاني قبل الميلاد وانتهى عام ١٠٦ ميلادي بالملك الثاني عشر أو الثالث عشر رب إيل الثاني. وثمة رأي آخر يفيد أن رب إيل توفي عام ١٠١ م واستلم الحكم ابنه مالك الثالث الذي انتهت دولة الأنباط في عهده(٥٥).

وجل ما نريد تأكيده في هذا الشأن أن النظام السياسي للأنباط لم يكن وليد قرار أو اجتماع بين قادة القبائل أو غير ذلك من الأشكال، إنما كان هذا النظام امتدادا لعملية تطورية مثلما تقتضي عوامل مؤثرة خارجية وداخلية أية موضوعية وذاتية، وعلى الأرجح أن احتكاك الإغريق بالأنباط بما يتضمن ذلك من تحديات سلبية وإيجابية كان قد ساهم في تطور النظام السياسي للأنباط، والأدلة على تأثر الأنباط الإيجابي كثيرة ومنها الشروع بسك العملة وفق المواصفات الهللينية لفترة طويلة بالكاد تنتهي في عهد عبادة الثاني (٦٢-٦٠ ق.م)، وهذا لا يعني توقف التأثير الهلليني على هذه الناحية لكن الملاحظ أن السمات الأساسية بدأ يغلب عليها الطابع الشرقي - النبطي أكثر من السمات الهللينية. ويشار كذلك إلى أن الأساليب الإدارية للدولة كانت قد اعتمدت أنظمة مشابهة للأنظمة الهلينية حيث سيظهر ذلك في المسميات الإدارية (كالأسريتج والهفرك والكليركا وقنطرين (الكنتوريو) إلخ، وسنتعرض لهذه المسميات لاحقا.

وتجب الإشارة إلى ثمة تساؤلات لا تزال بحاجة إلى المزيد من التحقق والبحث، خصوصا البحث الأثري، بشأن سلسلة الملوك وكل ما يتعلق بهم كأسلوب أو أساس تتويجهم والقوانين والأعراف المتعلقة بمكانتهم وطريقتهم في العمل؟ ومن ذلك أيضا عدم الجزم بسنوات الكثير من الملوك، أو ببعض الفترات الغامضة في سلسلة تتابعهم، وثمة أيضا بعض الاجتهادات والآراء المتضاربة في هذا الشأن، فمنها ما يجعل رب إيل الثاني آخر ملوك الأنباط، مقابل رأي آخر يقول أن مالك الثالث إبن رب إيل كان آخر الملوك بعد أن قضى خمس سنوات في الحكم. ومن الحلقات الغامضة أيضا في هذه السلسلة ما يلاحظ من فترة طويلة بين الملك الحارثة الأول (١٦٩- ١٦٨ ق.م) وبين خلفه زيد إيل (١٤٦- ؟). ولا نعرف ما هو وضع الدولة النبطية في فترة تزيد عن عقدين من الزمن، دون أن ينتهي الغموض بتقلد زيد إيل السلطة، لكننا بعد ذلك نحصل على تتابع منطقي ومتصل بقليل من الغموض او الاختلاف الذي غالبا لم يكن جوهريا من حيث الاختلاف على بضع سنوات زيادة أو نقص لهذا الملك أو ذاك.

وتذكر بعض الدراسات أن لقب الملك لم يتخذ قبل الملك الحارثة الثالث (٨٧-٦٢ ق.م)، فقد اتخذ الحارث الثالث لقب الملوك السلوقيين والبطالمة Basilius- باسيليوس- أي الملك على مسكوكاته، وبعد ذلك ظهر اللقب النبطي " ملكا " أي الملك على مسكوكات عبادة الثاني (٦٢-٦٠ ق.م)، وبعده فصاعدا على مسكوكات الملوك الأنباط حتى سقوط دولتهم(٥٦).

يشار كذلك إلى أن بعض المصادر تعتقد ان الملك الحارثة الرابع (٩ ق.م - ٤٠ م) هو الملك الذي جاء من خارج السلالة الملكية بعد أن اغتصب الحكم، ويبدو أن هذا الملك كان من كبار ضباط الجيش، وهو الذي لقب نفسه المحب لشعبه (ر ح م ع م هـ)، وكان هذا الملك من القوة بحيث وصلت الدولة النبطية أقصى اتساع لها في عهده إذ شملت دمشق فترة من الوقت، ومما يذكره إسترابو من أن الأنباط في هذا الوقت كانوا تابعين للرومان، ونستطيع الافتراض أن الحارث هذا تمتع بمساندة الرومان خلال حكمه أو قبل قيامه بالسيطرة على الحكم.

يشار كذلك إلى أن الأنباط اعترفوا أو أبرزوا دور المرأة إلى جانب الملك، وقد ظهرت صور بعض الملكات على المسكوكات النبطية، ومن ذلك شقيلت (شقيلة) و(خلدو) زوجتي الحارث الرابع وجميلت (جميلة) زوجة رب إيل الثاني. وكانت الملكة تعرف بأخت الملك مما حدا ببعض المستشرقين إلى الاعتقاد أن الملوك الأنباط تزوجوا من شقيقاتهم جريا على سنة الملوك الإغريق، إلا أن مثل هذا العرف لم يكن موجودا في الشعوب السامية عموما والعربية خصوصا، وإذا ما علمنا أن كلمة أخت وأخ لا تنحصر في علاقة الأخوة بالدم حسب مفاهيم اللغات السامية، إذ أن هذه الكلمة تحمل معنى مطلقا يشمل كل العلاقات الإنسانية من صداقة وحلف ومختلف درجات القرابة(٥٧). وقد ذكر سترابو أن الملك النبطي كان يتخذ له وزيرا أو ذراعا قويا كان يسميه " أخو الملك " وهو بمثابة رئيس الوزراء أو الوزير الأول.. ومن المحتمل أن مفهوم أخو الملك كان يماثل "الأمير" أو "الرفيق" في عصرنا هذا لجهة تحمل المسؤولية. وكان الوزير سيلي (صالح) أشهر هؤلاء الوزراء. ويخبرنا يوسيفيوس أن سيلي Syllaeus كان كثير المكوث في روما بجانب القيصر الأعظم، وقد حاز على

ثقته، استطاع إقناع القيصر بأن هيرود ملك يهودا قام بالاعتداء على المملكة العربية، وقام بالقتل وأخذ الأسرى..إلخ. وقد دافع سيليوس خير دفاع عن دولته ومواطنيه، وكان قد لبس السواد (حدادا على ضحايا اعتداءات هيرود) قبل مقابلة الأمبراطور الروماني[٥٨].

وأخيرا تجب الإشارة إلى أن ملوك الأنباط عموما امتازوا بقدر كبير من الديمقراطية والبساطة أيضا، فالملك ما يزال يحتفظ بكثير من خصائص شيخ القبيلة، فهو يخدم نفسه بنفسه، بل يخدم ضيوفه أيضا، ويقدم لشعبه " كشفا " عن شؤونه الذاتية، أي أنه يتمتع بقسط غير قليل من الروح الديمقراطية، وإذا قيل له " مرنا " بمعنى سيدنا " (أو ربنا) فما ذلك إلا قياما بواجب اللياقة[٥٩].

وفيما يلي استعراض لملوك الأنباط وفق الترتيب الأكثر شيوعا، وسنشير إلى أهم ما توافر من معلومات عن هؤلاء الملوك:

١-الحارث الأول (١٦٩ق.م- ؟):

يحيط بعض الغموض عهد هذا الملك، خصوصا فيما يتعلق بسنوات عهده، ونحن لا نعرف عن هذا الملك أكثر ما يعرض علينا سفر المكابيين الذي يصف زعيم النباطيين "بالطاغية"، والطاغية – حسب تفسير د.إحسان عباس- الحاكم المطلق التصرف غير الدستوري. أي أن ذلك وصف للملك النبطي. وإذا ما صدقنا سفر المكابيين، فإن الحارث لم يكن إلا شيخا أو كبير الشيوخ لمنطقة الأنباط. ويبدو لنا أن سفر المكابيين لم ينكر على الملوك ألقابهم فوصف الحكام البطالمة والسلوقيين وغيرهم بألقابهم المعهودة كملوك، وإن كان قد ألحق بهم صفات الظلم والبطش والكفر..إلخ. ومن ذلك مثلا: "فاستخلف ليسياس على أمور الملك من نهر الفرات إلى حدود مصر وهو رجل شريف من النسل الملكي... فاختار ليسياس بطلماوس بن دوريمانس ونكانور وجرجياس رجالا ذوي بأس من أصحاب الملك، ووجه معهم أربعين ألف راجل وسبعة آلاف فارس ليأتوا أرض يهودا ويدمروها على حسب أمر الملك" (المكابيين الأول ٣٩-٤٠) وهذا الوصف يعود بالطبع لملوك السلوقيين وحكامهم الذين

يجهزون لحملة على يهودا. وبهذا يبدو افتراض أن زعيم الأنباط في هذه المرحلة لم يكن إلا زعيما قبليا أو أكبر هؤلاء الزعماء افتراضا منطقيا، وهو لم يكتسب لقب ملك بعد، بل إن ذلك سيتأخر أيضا إلى أكثر من مئة عام لاحقة، غير أن شيخ الأنباط يحتل مكانة تضاهي مكانة الملك، ونحن لا نعرف عن طبيعة نظام الحكم وملامحه في حينه الكثير مما يبقي افتراض "صفات المشيخة" هو الأقوى ما دمنا لا نملك ما ينفي ذلك حتى الآن.

٢-الملك زيد إيل (١٤٦- غير واضح):

وبعض المصادر لا تأتي إلى ذكره. وفي قائمة (Kammerer) نجد الملك الثاني هو (مالك ١٤٥ ق.م) بينما نجد (رب إيل الأول) في قائمة (Bowersock) في حين تخلو قائمة (Meshorer) من الملكين الأولين. وقائمتي (Starcky) و(Letmman) تشيران إلى (حارثة الثاني ١٤٥ ق.م) كثاني ملوك الأنباط في حين أن مجموعة النقوش النبطية CIS تشير إلى مالك الأول. وهكذا فهذه الفترة من الملكية لا تزال غير واضحة إلى أن تأتي الأبحاث الأثرية بما هو جديد. وثمة احتمالات تخمينية عديدة لهذا الغموض الذي لا يتم حسمه بغير الأبحاث الأثرية الوافية.

٣- الحارث الثاني (١١٠- ٩٥ ق.م):

يلاحظ في هذا الترتيب وجود فترة غموض تمتد إلى ٣٦ عاما، ويعتقد البعض أن ثمة ملوك حكموا في هذه الفترة، لكن ذلك لا ينفي أن يكون (الملك الثاني وربما الثالث) قد استمر أو استمرا في الحكم مدة ٣٦ عاما إلى ان وصل الحكم إلى الحارث الثاني.

وفي عهد الحارث الثاني هذا كانت العداوة في أشدها بينه وبين المكابيين اليهود، فقد سارع الحارث إلى مساعدة غزة في عام ٩٦ ق.م بينما كان المكابيون يحاصرونها[٦٠].

٤-عبادة الأول (٩٥-٨٨ ق.م) :

تقلد الحكم بعد وفاة والده الحارث الثاني، واستمر في عهده النزاع بين الأنباط وبين المكابيين- اليهود بقيادة جينايوس، لأن أطماع جينايوس التوسعية امتدت إلى

جلعاد ومؤاب واستطاع التغلب على عرب هاتين المنطقتين، ولذلك تصدى له عبادة في معركة " قانا " عند جدارة (أم قيس) إلى الشرق من بحيرة طبرية، واضطرته هجمات الأنباط إلى الوقوع في واد عميق، وكاد يفقد حياته، اضطر إلى رد ما كان استولى عليه من مؤاب وجلعاد مقابل أن يمتنع عبادة عن مساعدة خصومه. وقانا هذه تقع إلى الشرق من بحيرة طبريا وانتصر فيها عبادة الأول واسترد منهم المكابيين اليهود مناطق في مؤاب وجلعاد، لتصبح تحت الإدارة النبطية.

٥-رب إيل الأول (٨٨- ٧٨ ق.م):

حكم بعد وفاة أخيه عبادة الأول، وانتصر على أنطوخيوس الثاني في حملته الثانية على بلاد العرب حوالي ٨٨ ق.م، حيث قتل فيها أنطوخيوس نفسه متأثرا بجراحه على ما يبدو.

٦-الحارث الثالث (٨٧-٦٢ ق.م):

هو ابن حارثة الثاني أيضا، وهو الابن الثالث الذي أصبح ملكا بعد إيل الأول وعبادة الأول، وفي عهده امتد الحكم النبطي إلى دمشق التي كانت تعصف بها التحديات والقلاقل جراء تهديد القبائل العربية الإيطورية، وهم حكام شرقي لبنان، وبناء على طلب من مجلس بلدي المدينة، تقدم الحارثة وعين واليا له فيها، ثم سك العملة وفرض الأمن، وظلت تلك النقود تصدر حتى عام ٧٠ م حين انتزعت المدينة من أيدي الأنباط. ومن الطريف أنه ألحق باسمه عبارة "محب اليونانية" Philhellene على نقود تذكارية، وفي عهد هذا الملك وقعت البتراء تحت الوصاية أو التبعية الرومانية بعد أن زحف أحد جيوش "بومبي" إلى المنطقة، وكان الأنباط حينذاك في حالة حرب مع الإسكندر جينايوس حاكم اليهود، وقد زحف جيش بومبي بقيادة "سكاوروس" إلى البتراء وحاصرها وأحرق ممتلكات الأنباط حولها إلى أن جرت التسوية التي قضت بتبعية الأنباط للإمبراطورية الرومانية ثم بدفع جزية مقدارها ٣٠٠ تالنت من الفضة، وعلى إثر ذلك – على ما يبدو – اصدر الحارثة نقدا عاديا يحمل صورته وصورة القائد الروماني سكاوروس يتوسطهما جمل وغصن زيتون يقدمه الحارثة لسكاوروس[٦١]. ويعتبره البعض المؤسس الحقيقي لسلطة الأنباط، ففي عهده توسعت

حدود الدولة، وضم دمشق في عام ٨٥ ق.م لأول مرة نحو خمسة عشرة عاما[٦٢]، كما حارب جانيوس زعيم المكابيين وانتصر عليه في معركة الحديثة قرب اللد حوالي عام ٨٣ ق.م. وعلى إثر ذلك هاجم جانيوس شرقي الأردن واستولى على اثنتي عشرة قرية[٦٣]. ويبدو أنه ظل في حرب مع كل زعماء المكابيين الذين عاصرهم من أسرة جانيوس (أرسطوبوليس وهيركانوس) وهيركانوس هذا كان قد التجأ إلى الحارثة الثالث في أثناء صراعه مع شقيقه أرسطوبوليس عقب وفاة جانيوس والدهما، ولكن هيركانوس عندما تمكن من السلطة بمساعدة الرومان عاد وتنكر لصداقة الحارثة وجعل يمد الجيش الذي حاصر البتراء بالقمح، وربما بحكم قوة الرومان الطاغية على المنطقة في حينه. ويذكر أيضا أنه في عهد الحارثة بدأت البتراء تتخذ مظاهر مدينة يونانية نموذجية[٦٤].

٧-عبادة الثاني (٦٢- ٦٠ ق.م):

تولى الحكم بعد والده الحارث الثالث، وقد عثر على نقش في البتراء يذكر " عبادة بن الحارث" *(لحياة عبادة ملك الأنباط بن الحارث ملك الأنباط، السنة ١)*، وفي عهده ارتبطت دولته مع الرومان بتحالف وولاء قويين.

٨- مالك الأول (٦٠-٣٠ ق.م):

تولى الحكم بعد والده عبادة الثاني، ولعل أهم الأحداث في عهده مشاركة الرومان بفرقة فرســـان في غزو الإسكندرية عام ٤٧ ق.م، ورفضه مساعدة هيرود، مما أدى إلى وقوع معركة ديون[٦٥].

٩-عبادة الثالث (٣٠-٩ ق.م):

تقلد الحكم بعد والده مالك الأول، وقد اشتهر عنه ضعف الشخصية لحساب وزيره صالح، ولعل من أهم الأحداث التاريخية في عهده مساندة الرومان عام ٢٥-٢٤ق.م، وقد جرى ذلك بقيام وزيره صالح بقيادة ألف رجل لمساعدة الجيش الروماني في الوصول إلى جنوب الجزيرة العربية، وكان الوزير صالح يتكفل بمهمة إرشاد الجيش وتوفير تمويله من الماء والمواد التموينية، وقد آلت تلك الحملة إلى الفشل، وعزا سترابو ذلك إلى خيانة الوزير صالح للرومان[٦٦] وقيام الرومان باعتقاله وقيادته إلى روما حيث أعدم. لكن الأهم في سيرته هو ما قيل عن نشوء عبادة الملك بسببه أو

بسبب شخصه، إذ يذكر عدد من المصادر أن "عبادة الثالث" كان قد أله من قبل الأنباط، وربما بعد موته، ووجدت بعض النقوش التي تشير إلى ذلك، ويقترح د.احسان عباس أن يكون هذا "التأليه" بتشجيع من خلفه الحارثة الرابع، طمعا في الحصول على المكانة نفسها بعد موته(٦٧).

١٠- الحارث الرابع (٩ ق.م- ٤٠ م):

استولى على الحكم بعد وفاة عبادة الثالث، واسمه " إيناس"، ويعتقد بأنه من كبار ضباط الجيش وليس من العائلة المالكة، وهو الملقب بالمحب لشعبه (ر ح م ع م هـ).

وفي عهده عم الرخاء ووصلت الدولة النبطية أقصى اتساع لها، حيث شملت معظم شمال شبه الجزيرة العربية، ووصلت سيناء غربا والجوف شرقا وحوران شمالا والحجر في وادي القرى جنوبا(٦٨)، ويذكر سترابو أن الأنباط في ذلك الوقت كانوا تابعين للرومان(٦٩).

وتميز عهد الحارث بازدهار عمراني واسع تركز في البتراء ومدائن صالح (الحجر)، ويظهر جليا في القبور المنحوتة في الصخر التي نحتت معظمها في النصف الأول من القرن الأول الميلادي. وإذا أمعنا النظر فيها وجدناها عملت لضباط عسكريين من رتب مختلفة، مما يشير إلى أن الحجر أصبحت قاعدة عسكرية متأخرة في عمق الصحراء، إدراكا من الأنباط للخطر الروماني الماثل(٧٠)، ومن المعروف أن الحارث الرابع كان أحد أبناء القبائل النبطية الجنوبية، وقد ظهر في النقوش الحجرية أن الحارث قد عين عددا من أبناء المناطق الجنوبية في هذه المناصب الرفيعة في المناطق والمدن النبطية(٧١).

إن كثافة المسكوكات في عهد هذا الملك تشير إلى ازدهار اقتصادي، حيث أن ٨٠% من المسكوكات النبطية التي عثر عليها تعود للحارث الرابع، وقد تضمنت إصدارات تذكارية لزواجه من شقيلت (شقيلة) بعد وفاة زوجته الأولى خلدو.

ومن أهم الاحداث في عهد الحارث الرابع وقوع معركة بينه وبين "هيرود أنتيباس" حاكم الولاية اليهودية في سنة ٣٤م؛ بسبب طلاق الأخير لابنة الحارث، وانتصر فيها الحارث ففزع هيرود إلى الامبراطور الروماني طيباروس الذي أراد الحارث حيا أو ميتا، إلا أن وفاة طيباروس حالت دون تحقيق ذلك(٧٢).

١١- مالك الثاني (٤٠- ٧١ م):

تولى الحكم بعد والده الحارث الرابع مدة ٣١ عاما، والأخبار عنه قليلة، أما أهم الأحداث التاريخية في عهده فهي مشاركته في الحملة الرومانية بقيادة تيطس على القدس عام ٧٠ م بجيش قوامه ألف فارس وخمسة آلاف راجل، وقد أبطأت في عهده وتيرة التقدم مقارنة مع والده الحارث الرابع.

١٢- رب إيل الثاني (٧١- ١٠٦ م):

تقلد الحكم صغيرا تحت وصاية أمه مدة خمس سنوات، حيث ظهرت صورتها على النقود معه، ولما كبر تزوج من جميلت (جميلة) حيث ظهرت صورتها معه على النقود ابتداء من عام ٧٦ م.

وكانت فترة حكمه قليلة الأحداث بالرغم من طولها، وبموته عام ١٠٦ انتهت دولة الأنباط بعد أن رفض الرومان الاعتراف بخلف له، وقد ألحقها تراجان بالإمبراطورية الرومانية، وسماها "الولاية العربية" وعاصمتها بصرى. وتشير الشواهد الأثرية إلى استمرار النشاطات المختلفة، خاصة الزراعية في نطاق الدولة النبطية.

وهناك رأي آخر يفيد أن رب إيل توفي عام ١٠١ م واستلم الحكم بعده ابنه مالك الثالث حيث إنتهت دولة الأنباط في عهده عام ١٠٦ م(٧٣)، أي بعد أن رفض الرومان الاعتراف بخليفة الملك الأخير وقاموا بإنشاء ولاية جديدة تضم المناطق النبطية جميعها إضافة إلى مناطق جديدة في بلاد الشام، واسموها " الولاية العربية "وجعلوا عاصمتها بصرى الشام.

مراجع الفصل الأول وهوامشه:

١- جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام / ١٢

٢ -سماح بركات، حروب الأنباط /٥

٣- Hammond.P.C, The Nabataeans,Their History...p.12

٤ – د.احسان عباس، ٢٠٠٧/٢٣.

٥ -Kuhlenthaland Fischer,20

٦ -سماح بركات، حروب الأنباط / ٨.

٧ – محمد خطاطبة / ٢٠٠٦/٤٨.

٨ -د.خير نمر ياسين، الآدوميون/ ٩٩-١٠٠.

٩- – هشام أبو حاكمة، ٢٠٠٧/٢١٧

١٠- زيد الكفافي، ٢٠٠٦/ ٣٢٧

١١ – محمد الخطاطبة، ٢٠٠٦/ ٤٨

١٢- Gluck ,The Other Side.pp 167-193

١٣- سماح بركات، حروب الأنباط /١٢

١٤ – Hammond,1973:13

١٥ – Diodurs,8٧:١٠

١٦- جواد علي، المفصل/ ج ١٨/٣.

١٧- هتون الفاسي ١٩٩٣/ ٨٦.

١٨- خيرية عمرو٢٠٠٣

١٩ – هيرودوت، تاريخ هيرودوت ٢٠٠١/ ٢٢٠

٢٠ – أنطون جوسان، ١٩٩٧، ص ١٤٣- ١٤٦.

٢١ – د.احسان عباس، ١٩٨٥/٣٢.

٢٢- زيدان كفافي، ٢٠٠٦ / ٣٨٢.

٢٣- Markoe,Clenn,Lost & Found: Petra Antiquites.verand,Jan 2004.Issue 1,p36-46.6p,8c.)

٢٤ - خير نمر ياسين١٩٩٣/٣٢٧

٢٥ - المصدر السابق/١٤٦

٢٦ - محمد الخطاطبة، ٢٠٠٦/٤٩

٢٧ - نبيه عاقل، ١٩٧٢/ ١٠٩-١١١.

٢٨ - كان الحكم النبطي في دمشق مؤقتا مدة ١٥ عاما، أما بالنسبة لشرق لبنان فإن الأمر لم يكن واضحا تماما وربما كان هو الآخر مؤقتا وربما اقتصر على النفوذ التجاري، ويعتقد البعض أن بلدة النبطية في لبنان ما هي إلا من آثار ذلك النفوذ، وعلى العموم لم يعثر حتى الآن على آثار عمرانية للأنباط لا في دمشق ولا في لبنان.

٢٩ - حيث قاوم الأنباط محاولات السلوقيين والبطالمة منذ وقت مبكر عندما بدؤوا بمحاولات الزحف على بلادهم وإخضاعها والإستيلاء على مقدراتها.

٣٠- احمد العجلوني، ٢٠٠٢/ ٧٣

٣١- Starcky, op.cit. SD.b,pp 888-900.

٣٢- احسان عباس، ص: ٧٦

٣٣- د.سعد أبو دية ١٩٨٤/ ١٩

٣٤- هاردنج ١٩٧١/ ١٤٣

٣٥- احسان عباس /٧٣

٣٦ -هامش: القاع هو الأرض الواسعة المنخفضة.

٣٧ - هتون الفاسي ١٩٩٣/ ٥٠

٣٨- د.احسان عباس ٢٠٠٧/ ٨٠

٣٩- محمد خطاطبة، ٢٠٠٦/ ١٦٧

٤٠- موقع السويداء.Swaida.com

٤١- د.احسان عباس/ ٨٢

٤٢- محمد خطاطبة، ٢٠٠٦/٤٢

٤٣- مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، ج ١، ق ١، ص ١٢٥- ١٢٦) وكذلك: رجاء وحيد دويدري، جغرافية سوريا والوطن العربي، دمشق، مطبعة طبرين، ١٩٨٢ م.ص ٤٦، ٦٧

٤٤- محمد خطاطبة، ٢٠٠٦/١٨١.

٤٥ - Negev,1997: 63

٤٦- غالي إبراهيم أمين ١٩٧٦/ ٢٦-٢٧.

٤٧- د.احسان عباس ٢٠٠٦/ ٧٩

٤٨ - زيدون المحيسن، ٢٠٠٧/ ١٥

٤٩- موقعwww.swaida.com،

٥٠ - د.إحسان عباس ٢٠٠٦/ ٧٢

٥١ - موقعwww.swaida.com

٥٢- غالي إبراهيم أمين، ١٩٧٦، سيناء المصرية عبر التاريخ، ص ٢٦-٢٧

٥٣ - محمد خطاطبة ٢٠٠٦/ ٤٥

٥٤ - زيدان الكفافي، ص ٤٠٢

٥٥ - جواد علي، المفصل ١٩٦٩، ج ١،٤٧

٥٦ - هتون الفاسي،١٩٩٣/ ١٦٨

٥٧ - احسان عباس ٢٠٠٧/ ٦٢+١١٥

٥٨ - Josephus,Jewish Antiquities,p323-325

٥٩- د.احسان عباس ٢٠٠٧/٣٦

٦٠ - الدباغ ،ج١، ق١، ١٩٧٣/ ٦٣٨

٦١- د.احسان عباس، ٢٠٠٧/ ٤٢. خطاطبة ٢٠٠٦/ ٥١

٦٢- جواد علي، ١٩٦٩،ج ٣/ ٢٦

٦٣ - خطاطبة ٢٠٠٦/ ٥١

٦٤- الدباغ، ج١، ق١ / ٦٣٨

٦٥ - عبدالعزيز سالم، ١٩٧٣/ ٩٥

٦٦ - محمد مبروك نافع ١٩٥٢/٨٧.

٦٧- احسان عباس،٢٠٠٧/٥٢

٦٨- نافع ١٩٥٢/ ٨٨

٦٩- Strabo,17,4:21

٧٠- د.احسان عباس ٢٠٠٧/٥٩

٧١- سليمان الذييب، نقوش الحجر النبطية، ١٩٩٨/٦

٧٢ - عباس، ٢٠٠٧/ ٦٥- ٦٦

٧٣ - جواد علي، ١٩٦٩، ج ١/ ٤٧

الفصل الثاني

المدن والحواضر النبطية والأنماط المعمارية وسماتها

المدن والحواضر النبطية والأنماط المعمارية وسماتها:

١- أهم المدن والحواضر النبطية:

أ - **الواقعة في المملكة الأردنية الهاشمية:** البتراء، قرى ومستوطنات وادي موسى، وادي رم، خربة أم الجمال، إيلة (العقبة)، الحميمة، سيق البارد (البتراء الصغيرة)، خربة فينان مواقع أخرى في جنوب المملكة الأردنية الهاشمية.

ب - **المواقع النبطية في أراضي المملكة العربية السعودية:** الحجر "مدائن صالح"، دومة الجندل، تيماء، العلا، ميناء لوكي كومي " أم لج".

ج - **منطقة حوران:** بصرى، السويداء "سوادا"، سيعا، صلخد " صرخد"، مواقع أخرى.

د - **منطقة النقب الفلسطيني:** الخلصة، كرنب، عبودة، نصتان.

٢ - أنماط المساكن والأبنية:

١-٢: بيوت الشعر أو الخيام.

٢-٢: المغاور والكهوف.

٣-٢: حجرات ومنازل الحجارة الغشيمة.

٤-٢: البيوت الطينية.

٥-٢: البيوت الحجرية المهندسة، أبنية عامة، معابد، مساكن.

٦-٢: البيوت المنحوتة في الصخر، معابد، أبنية عامة، مقابر.

٣- أنماط العمارة النبطية وسماتها العامة:

١-٣: العمارة الدينية.

٢-٣: العمارة السكنية.

٣- ٣: العمارة العامة.

٤- ٣: العمارة الجنائزية.

٤- السمات العامة للعمارة النبطية:

١- ٤: من حيث المواد المستخدمة.

٢- ٤: من حيث الفنون المعمارية.

أولا- أهم المدن والحواضر النبطية:

انتشرت المدن والمستوطنات والقرى النبطية على مدى انتشار الجغرافيا النبطية، وهي رقعة واسعة بلا شك مثلما أسلفنا في الفصل الأول من هذا الكتاب، ولأجل تسهيل البحث والقراءة قمنا باعتماد التقسيم الجغرافي السياسي السائد حاليا في البحث عن المدن والمستوطنات النبطية. وقبل استعراض ما توفر من معلومات عن هذه المدن، نلفت الإنتباه أن بعضا من المستوطنات النبطية قد درست واختفت آثارها بحيث يصعب تصنيفها إن كانت مدينة أم قرية أم مستوطنة صغيرة، ثم إن أهم هذه المواقع وأكثرها يقع في أراضي المملكة الأردنية الهاشمية، وإلى جانب الأردن ثمة مدن ومستوطنات نبطية في كل من أراضي الجمهورية العربية السورية، والمملكة العربية السعودية، وفي صحراء النقب من أراضي جنوب فلسطين، ومن المحتمل أيضا أن تكون النبطية في لبنان واحدة من المدن النبطية التي وصلها النفوذ النبطي، وفيما يلي استعراض لهذه المدن والمستوطنات وفق البلدان الحالية:

أولا- المدن والمستوطنات في المملكة الأردنية الهاشمية:

١- البتراء عاصمة مملكة الأنباط:

اسماها أصحابها الأنباط "رقيم"، وهذا الاسم السامي لها، وقبلا سماها الأدوميين "السلع" نسبة إلى الشق الصخري، ومن اسمائها الصخرة، والمدينة الوردية، والمدينة المفقودة الموجودة، والمدينة الضائعة، والمدينة العجيبة، والبترا، والبتراء، والمدينة المدهشة، وآخر اسماءها "العجيبة الثانية من عجائب الدنيا السبع الجديدة".

أدهشت البتراء كل من شاهدها وتأملها وتبصر في تاريخها الغني وفنها المعماري الفريد، واعترف العالم أخيرا بالبتراء كواحدة من عجائب الدنيا السبع بتاريخ ٢٠٠٧/٧/٧ واحتلت المركز الثاني بعد سور الصين العظيم، وقد بلغت شهرتها آفاق الأرض عبر السياحة والإعلام والدراسات الكثيرة التي صارت تعد بالمئات من كتب ومقالات ودراسات علمية.

وإذا كان الصينيون يرددون على مسامع ضيوفهم القول "أن من لم يزر سور الصين العظيم كأنما لم يزر الصين". فإنه لمن الحق القول "أن من لم يزر البتراء لم يزر الأردن" أو "أن من لم يزر البتراء أو لم يقرأ عنها، فقد فاته الكثير عن التاريخ والفن والحضارة والمغامرة". ومن نافلة القول أن القراءة عن البتراء لا تغني شيئاً عن زيارتها والتمعن الطويل بآثارها الغنية وعيش التجربة حية بدخول السيق الشهير الذي مرت منه آلاف وربما مئات الآلاف من القوافل التجارية التي كانت تحمل البضائع والأسرار والحكايا الغريبة التي كانت تدور منذ مطلع تاريخ هذه المنطقة.

كان لموقع البتراء أثر مهما في دورها العسكري والتجاري والحضاري لمنطقة الشرق الأدنى منذ عصور مبكرة، وقد تم إدراك هذا الدور وتقديره من كل القوى السياسية التي كانت تقوم في المنطقة مما جعل البتراء ومحيطها ساحة خصبة للكثير من الأحداث ومنطلقا وملتقى في الوقت نفسه للكثير من الأفكار.

يرتفع الموقع ٢٧٠٠ قدم فوق سطح البحر، وترتفع التلال المحيطة ١٠٠٠ قدم فوق أرضية الوادي والتي بلغ عرضها ميلاً واحداً تقريبا. ويقع الموقع على خط طول ٣٧-٧٣ وخط عرض N 30-19، وتقع إلى جنوب القدس ب ٩٥ ميلاً و٦٠ ميلا شمال العقبة، وهي إلى الجنوب من عمان ٢٥٠ كم عبر الطريق الصحراوي مرورا بمحاذاة الكرك والطفيلة والشوبك.

تمتاز البتراء بمنعتها الدفاعية الطبيعية ضد الأخطار المحيطة، وتتمثل هذه المنعة بالمرتفعات العالية التي تحيط بالموقع من الجهات كافة، ولا سبيل للدخول إليها إلا من خلال الممر الإجباري المسمى السيق، وهو شق صخري عظيم ينفلج نصفين محدثا هذا الممر الذي يبلغ حوالي الميل قبل مواجهه واجهة المدينة المتمثلة في الخزنة الرائعة الجمال التي اشتهرت باعتبارها واجهة المدينة.

وغالبا ما يتساءل الزائر للبتراء الكثير من الأسئلة عن المدينة وتاريخها وتراثها وحضارتها وأهميتها وسكانها..إلخ. **ومن ذلك مثلا:** كيف تعرف الأنباط إلى موقع المدينة ولماذا أصبحت المدينة مركز هذه المملكة المترامية الأطراف ؟ وكيف عاشوا فيها وكيف أداروها ؟ وهل كانت حقا مركزا سكنيا أم مركزا إداريا وسياسيا وتجاريا أم مركزا عسكريا وغير ذلك من الأسئلة ؟

إن الأبحاث والدراسات - على كثرتها - عن البتراء خصوصا والأنباط عموما لا زالت تفتقد إلى اليقين في الكثير من الاجابات على الكثير من التساؤلات، لكن هذه الدراسات استطاعت أن تقدم لنا معلومات وفيرة عن الخطوط العامة لحضارة المدينة كما لتاريخ الأنباط وحضارتهم عموما، بل ووفرت لنا الحفريات الأثرية معلومات مفصلة ومحددة عن الكثير من مناحي الحياة في المدينة منذ أن عرفت الاستيطان في العهد الأدومي مرورا بالأنباط وما داخل ذلك من مراحل حضارية مختلفة.

كانت البتراء قبل ظهور الأنباط موقعا هامشيا من مواقع الأدوميين، لا نعرف تماما إن كانت قرية أم مدينة أم غير ذلك، ومن المؤكد أن الأدوميين عاشوا فيها فترة طويلة من الزمن وجابوا فيها الكثير من الكهوف قبل أن ينتشر الأنباط في المنطقة ويصبغوها بطابعهم الخاص منذ القرن الرابع قبل الميلاد على الأقل بحيث لا نستطيع تمييز أي أثر أدومي فيها باستثناء كسر الفخار الذي وجد في الطبقات الترابية المطمورة في منطقة أم البيارة في البتراء، وتنقل لنا التوراة ومفسروها تلميحات مهمة عن تاريخ المنطقة قبل الأدوميين ،إذ أن عيصو بن إسحق كان قد لجأ إلى المنطقة عقب خلافه مع أخيه يعقوب (إسرائيل) واتخذ من جبال الشراة- سعير مأوى له، ويفترض أغلب هؤلاء المفسرين أن جبال الشراة هي المعادل لمنطقة آدوم أو سعير اللتين يتكرر ذكرهما كثيرا في الأسفار (التكوين، تثنية الاشتراع، يشوع)، ومع أننا نتحفظ على معادلة سعير بجبال الشراة، وليس هنا المجال لشرح ذلك، فإن أرض أدوم كانت جبال الشراة هي نواتها الرئيسية مثلما تؤكد الكثير من الشواهد الأثرية، في حين أن الاجتهادات

التأريخية التي تقوم أكثر ما تقوم على تفسيرات التوراة تشير إلى أن الحوريين كانوا هم الأقوام السابقة على الأدوميين في جبال الشراة، ومنها بالطبع مدينة البتراء. ويقول (وليم ليبي وفرانكلين هوسكنر) أنه إذا كان الحوريون هم سكان الكهوف حقا، وأنهم قطنوا جبال سعير، فإنهم لا بد من أنهم اتخذوا من البتراء مسكنا ومعاقل لهم في أيامهم الأولى، حتى لو لم نعثر على أثر يدل على هؤلاء القوم، فإن مواصفات المنطقة وطبيعتها تتطابق مع أوصاف حياتهم الأولى، خاصة وأنه لا يوجد مكان آخر في جبال سعير "الشراة " يتطابق مع هذه المميزات ما عدا البتراء(١).

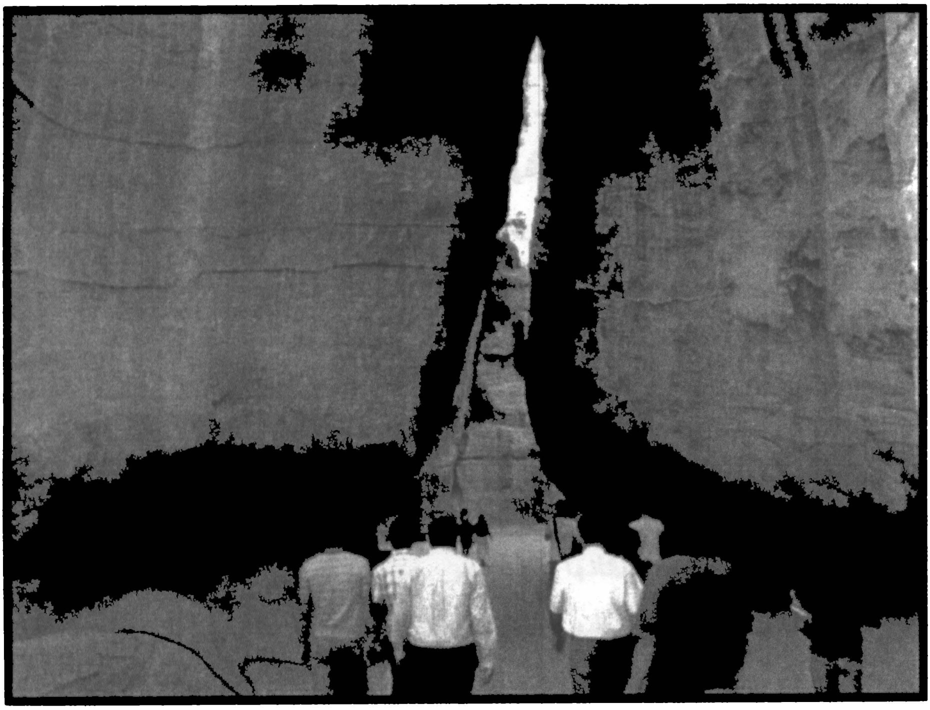
وحتى وقت طويل متأخر من تدمير مملكة الأدوميين أواسط القرن السادس قبل الميلاد وعاصمتها "بصرة" التي هي قرب الطفيلة اليوم باسم "بصيرة"، فقد ظلت البتراء غير ذات شأن إلى أن تنبه الأنباط لها وبدؤوا باستيطانها إلى جانب سكانها الأصليين من الأدوميين الذين ظلوا يمارسون الزراعة مهنتهم الأساسية التي برعوا بها إلى جانب اشتغالهم في قيادة القوافل التجارية وتقديم الخدمات لها شأن الأنباط من بعدهم. غير أنهم – أغلب الظن – خسروا مكانتهم التجارية بعد أن فقدوا ثقة الدولة الأشورية العظمى آنذاك دولة البابليين الجدد نظرا لفشلهم في حماية مصالحهم التجارية على الأغلب. وهكذا بدأ الأنباط بتولى هذه المهمة الخطيرة ليثبتوا بها جدارة عالية استخدموا فيها خبراتهم السابقة التي صقلوها قبل نزوحهم إلى المنطقة.

ولما عظم شأن الأنباط منذ مطلع الفترة اليونانية وتعاظمت تجارتهم ونمت زراعتهم بفضل جدهم واجتهادهم واستيعابهم للمتغيرات السياسية والعسكرية التي تدور من حولهم، صار شأن البتراء يتعاظم مع الوقت، ولا نعرف تماما إذا ما كان الأنباط قد قرروا منذ البداية اتخاذ البتراء عاصمة لهم أو غير ذلك، غير أنه لا يرد ما يشير إلى غير ذلك، أي لا يوجد موقع آخر سبق البتراء في أهميته. لكن هاموند Hammond يقترح أن البتراء قد تكون في محل محطة للتصنيع ومركز للعمليات التجارية أكثر من أن تكون محطة لتجارة البهارات والعطور المتجهه إلى العالم الغربي، وهي قد تكون مركزا مهما لتجارة السيراميك بالجملة والمفرد،

ويفترض أن تكون أيضا محطة لتجهيز القوافل ومدها بالعتاد اللازم، ثم بحراستها ضد الطامعين[٢]، وهاموند إنما يتحدث عن مرحلة متأخرة من عمر البتراء، وتحديدا عن فترة الازدهار التي بدأت في القرن الأول قبل الميلاد، لكننا نعرف من خلال المباني الكثيرة في البتراء، سواء المنحوتة في الصخر أم المبنية أن المدينة كانت تعج بالحياة، ونعرف من خلال سترابو أن المدينة كانت تغص بالقصور والفلل التي تحيط بها الحدائق المزروعة بالأشجار، ونعرف أيضا من خلال نظامها المائي أن هذه الشبكة إنما هيأت لمجتمع حيوي يمارس الحياة بمختلف جوانبها كما نعرفها في أفخم العواصم وفق السياق التاريخي بالطبع. ونعرف من خلال المدرج أنه كان يتسع لثلاثة آلاف شخص[٣]، ومثل هذا العدد لا بد أنه لمدينة كبيرة حتى بمقاييس أيامنا هذه، وقدر البعض عدد سكان البتراء خلال فترة الازدهار بثلاثين ألف نسمة[٤].

وللدخول إلى البتراء لا بد للزائر أن يمر أولا عبر وادي موسى، يقع هذا الوادي إلى الشرق من البتراء، كان هذا الوادي مستوطنة مهمة من مستوطنات الأنباط، ويبدو كأنه الضاحية الجديدة للبتراء مع أنه يقع خارجها، إلا أن كثرة المباني التي اكتشفت فيه وفخامة هذه الأبنية يدل على فترة مميزة من الازدهار، ويبدو أن البعض من الأنباط اختار البناء خارج البتراء لنفس الأسباب التي تجعل الناس الآن يبتعدون عن مراكز المدن الصاخبة بالحركة والناس، ومن ذلك التمتع بالهدوء والحصول على أراض أقل ثمنا من مركز المدينة خصوصا أن الأمن بات سيد الموقف بعد أن أحكمت السلطة قبضتها على مختلف الشؤون المعنية بها الدولة.

ويكتسب هذا الوادي أهميته من عناصر كثيرة أهمها وجود نبع الماء (عين موسى) الذي لا يزال يغذي المنطقة بمائه العذب ويسقي بساتين الفاكهة من عنب وتين وزيتون[٥]، وكان هذا النبع يجري في قنوات وأنابيب حتى يصل مدخل البتراء ليجري توزيعه عبر قنوات السيراميك إلى منازل البتراء وآبارها، ولا زالت هذه الأنابيب تشاهد على الجانب الأيمن للسيق، وإنك لتعجب أن تجد صناعة هذه الأيام لم تزد الكثير على صناعة الأنباط من أنابيب السيراميك.



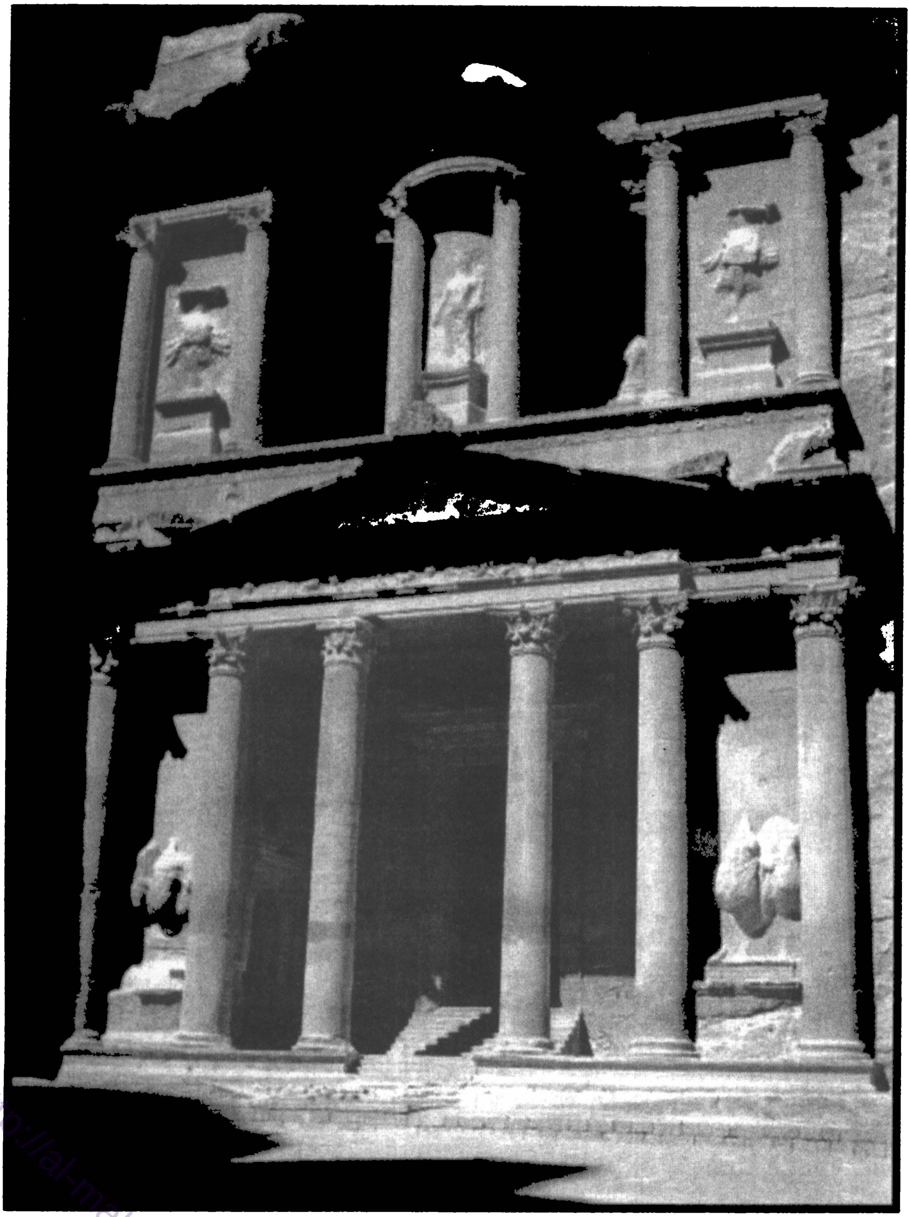
أجواء خيالية وسحرية في أثناء عبور السيق- تصوير الباحث ٢٠٠٨/٧/٨

وإذا قيض للمرء أن يعبر قرية وادي موسى ليصل إلى بداية السيق، فإنه لا بد من أن يمر مشيا على الأقدام أو فوق ظهور الدواب بطريق مرصوف طوله حوالي كيلو متر ونصف الكيلومتر بدءا من مركز الزوار في منتصف الوادي تقريبا، وسيدهش المرء من المناظر الخلابة التي يقع معظمها على الجانب الأيمن لهذا الطريق، وسيشاهد المرء كتلاً ضخمة من الصخور الملونة التي يغلب عليها اللون الوردي وقد استغلها الأنباط في بناء القبور التي حفرت في الصخور العالية وزين بعضها بنقوش فيها من البساطة والفن ما يسحر المشاهد. وما ان يعبر الزائر السيق حتى يبدأ مرحلة أخرى من المشاعر والتصورات التي يوحي بها هذا الشق العظيم الذي يشكل المدخل الرئيس للبتراء، وفي مدخل السيق من السهل مشاهدة آثار البركة التي كانت تتجمع فيها مياه الوديان ومنها يجري نقلها عبر الأنابيب الفخارية التي لا زالت

آثارها تلتصق بجدار السيق. وترتفع جدران *السيق حوالي* ٢٠٠ قدم في حين يبلغ عرضه حوالي ثلاثة أمتار تقريبا تتسع وتضيق، وقد حرص الأنباط على تزيين هذا الممر بالكثير من الرسومات البارزة والنقوش والنصب، خصوصا نصب إلههم الأكثر تبجيلا "ذو الشرى" الذي كان يرمز له بالأنصاب المتعامدة. وقد يتيسر للزائر استذكار بعض اللحظات الطبيعية التي كانت حية أيام الأنباط وهو يشاهد الخيول والبغال والجمال التي تنقل الزوار جيئة وذهابا خلال السيق، ولا بد أن حوافر دواب القوافل والزوار ورجال الأمن الأنباط كانت تعزف هذه الألحان الناتجة عن صرير الحوافر بأرضية السيق الذي كان آنذاك مكسوا بالبلاط الحجري الذي لا زال بالإمكان التعرف على بقاياه.

وما أن تنتهي من السيق، حتى تفاجأ بطلعة الواجهة الرئيسية للمدينة ألا وهو ما يعرف ببناء الخزنة الشهير، أو "خزنة فرعون" الذي يبدو كواجهة قصر عظيم، ولا بد للزائر من أن يتوقف طويلا متأملا هذا المنظر الرائع الذي يفرض على المشاهد مشاعر الرهبة والتبجيل والإعجاب، وقد وصفه الكثيرون فلم يوفوه حقه، "وهذا الأثر يعتبر أكبر النصب التذكارية الأثرية وأكملها وأجملها، لقد وجدناها في تمامها وكمالها مثلما تركها نحاتوها قبل خمسة عشر قرنا أو عشرين، ويزيد في جمالها وزينتها تشربها بالألوان الطبيعية للصخور الرملية المشعة"(٦) ومع أن هذا البناء هو أكثر الأبنية وضوحا واكتمالا، إلا أنه لا يزال سرا من أسرار البتراء، إذ أن خبراء الآثار لم يتفقوا على ما إذا كانت الخزنة معبدا أم ضريحا، لكن أكثر الأدلة تميل إلى تأييد القول بأنها أنشئت لتكون معبدا(٧). تبلغ واجة الخزنة ٩٢ قدما، ويبلغ أقصى ارتفاع لها ١٣٠ قدما، وبين العلماء جدل حول تاريخ هذا الأثر المهم، فبعضهم يرجعه إلى عصر هدريان (حوالي ١٣١ ميلادي)، وبعضهم يراه أقدم بكثير من ذلك، وأغرب ما في الخزنة من الناحية المعمارية اشتمالها على تيجان أعمدة كورنثية، وهذا ما يقوي الافتراض بأن الذين بنوها كانوا معماريين غرباء، ولكن ما الخزنة؟ الأغلب أنها معبد أقيم في رأي بعضهم للربة "مناة "، وفي رأي آخرين معبد للعزى، وذهب فريق ثالث إلى أنه معبد – ضريح لأحد ملوك الأنباط، ولكن ليس ثمة ما يدل على أن الخزنة اتخذت ضريحا، وفي الخزنة غرفة وسطى مساحتها أربعون قدما مربعا، وهي عاطلة من كل زخرف

وتفضي إلى غرف صغيرة على جانبيها، منها غرفتان كثيفتا الزخرفة، وسطوح الحجارة فيها ليست ملساء إنما واضحة الخشونة[٨].



صورة الخزنة – بعد الانتهاء من السيق

بعد انتهاء الزائر من تأمل الخزنة وتفحصها، فإن الطريق ستقوده عبر قصبة البتراء أو وادي البتراء، وسرعان ما سيجد الراجل نفسه محاط بالكثير من الأبنية المنقورة في الصخر، فعن يساره أبرز المعالم مدرج البتراء، ويتسع هذا المدرج لثلاثة آلاف مشاهد أو أكثر، وعن يمينه في المرتفع الصخري بناء المحكمة، وهي بناء منقور بالصخر يحتوي على أعمدة ضخمة وغرف كبيرة يصعد إليها بدرج، ومن تحت الدرج بإمكانك مشاهدة السجن أو مقر القوة المكلفة بحماية المحكمة ربما، وحول هذا الصرح الكبير تنتشر القبور والأبنية المختلفة المنقورة في الصخر التي تفنن فيها النحاتون



بناء المحكمة – على يمين الوادي وسط البتراء

والبناؤون فبدت لوحات فنية يصعب نسيانها، وإذا ما استمر الراجل سيرا عبر الوادي فإنه سيلاحظ آثار الطريق القديم وبمحاذاته القناة المائية التي كانت جزءا من خط المياه الرئيس الذي يغذي البتراء ويصرف سيولها إلى الخزانات والبرك والآبار، وسيجد الزائر في وسط الوادي ما يعرف بـ"قصر البنت" وهو بناء متقن من الحجارة المقطوعة والمشذبة بعناية، ويبدو أن هذا البناء كان معبدا. وإلى الجهة الشرقية الشمالية من هذا الأثر تبدو أكوام هائلة من الحجارة التي تنبئ عن استيطان كثيف في البتراء قبل أن تتهدم أبنيتها بفعل زلزال قوي سنة ٣٦٣ ق.م. والتنقيبات التي أجرتها البعثة

السويسرية في موقع الزنطور (١٩٨٨-٢٠٠١م) كشفت عن وجود استيطان نبطي كثيف امتد من القرن الثاني قبل الميلاد إلى ما بعد القرن الثاني الميلادي، والزنطور يقع في الجهة الجنوبية الغربية للبتراء ويشرف على مركز المدينة[٩]. وعلى الإجمال، فإن الكهوف الصخرية والقبور المنحوتة التي تعج بها صخور البتراء تشي باستيطان كثيف شهدته المدينة بحيث جرى استغلال كل مساحة ممكنة من هذه الصخور التي جاء بعضها على شكل طوابق بعضها فوق بعض.

وكنا قد ذكرنا أن تقديرات عدد سكان المدينة كان يبلغ حوالي ثلاثين ألفا في فترة ازدهارها، وهذا الرقم يعد كبيرا بمقاييس تلك الأيام، ولا نعرف تماما إن كان هذا الرقم يشمل الضواحي المحيطة والقريبة من البتراء أم لا.

يشار كذلك إلى أن البتراء ضمت بين سكانها العديد من الأجانب، فقد عرف منها الجالية الإغريقية والجالية الرومانية وجالية يهودية وفق بعض المستشرقين.

وفي القرن الثالث لم تعد بترا مدينة ذات شأن، لقد سلبت تدمر ما كان لها من مكانة إثر قرار الرومان بتحويل خطوط التجارة عنها إلى تدمر. حتى إذا ما حرمت الدعم الروماني لها تقطعت أشلاء وانتهت، وما أن حل عام ٣٠٠م حتى أصبحت البتراء مهجورة ومنسية[١٠]. وفي الفترة البيزنطية فقدت مكانتها التجارية وأصبحت مركزا دينيا. ومن الثابت أن الزلزال الذي وقع سنة ٣٦٣ ق.م في المنطقة قد أصاب عدة مدن كانت بترا واحدة منها، وتشير رسالة سريانية إلى هذا الحادث، وترد بترا فيها باسم "الرقيم"، وفي القرن الرابع يزداد شأن المدينة تضاؤلا، ولم تعد في القرن السادس مستقرا لسكان مقيمين، ثم ضاع اسمها وذكرها من بعد، إلى أن ذكرها من جديد: بيركهارت (الحاج إبراهيم عبدالله اللوزاني) سنة ١٨١٢.

ومهما يجتهد المرء في الوصف، ومهما أوتي من موهبة في التصوير، فإنه لن يوفي المدينة وآثارها وهيبتها النزر اليسير الذي لا يغني عن التجول فيها وتنسم عبق تراثها الغني بالعمل والقصص والحكايا والحوادث العظام، ولا بد من قراءة تاريخها بتمعن أيضا كجزء من تاريخ المنطقة وتاريخ الإنسان العربي وحضارته.

٢- قرى ومستوطنات "وادي موسى" وهي كثيرة، أهمها "الجيه" أو "جايا" و "الزرابة" و "خربة النوافلة":

والجية بالآرامية: "المكان المبهج الرائق اللطيف"[١١]، وقد أشرنا لها في تقديمنا للحديث عن البتراء، إذ أن هذا الموقع كان ولا يزال يشكل المعبر الإجباري للبتراء، وهو الآن قرية وادي موسى التي أخذت هذا الاسم اعتقادا من السكان الأوائل، الذين وفدوا إليها بعد الفتح الإسلامي، أن عين الماء العذب في هذا الوادي هي العين التي أشار إليها القرآن الكريم التي ضرب فيها موسى (عليه السلام) بعصاه فإنفجرت اثنى عشر نبعا، وبالطبع فإن مثل هذا الاعتقاد يخلو من دليل، إنما كان هذا تخمين الناس في عصور بعيدة.

تغطي المنطقة هذه الأيام مئات المنازل الحديثة التي بناها الناس من سكان المنطقة، ما غدا معه إنقاذ الآثار أمرا مستحيلا باستثناء القليل منها، وللمفارقة فإن معظم الآثار التي تم اكتشافها في هذه البلدة كان بفعل حفريات الصرف الصحي ومشاريع البناء للأهلين.

إن اختيار وسط وادي موسى لعيش علية القوم من الأنباط كان طبيعيا بسبب حسن مناخها مقارنة بالبتراء، وقد توفرت الأرض الطيبة والمياه الوفيرة، وعثر خلال تنقيبات دائرة الآثار العامة عام ١٩٩٦، وحفريات خطوط المياه والصرف الصحي (الأعوام ١٩٩٨-٢٠٠٢) وأعمال بناء موقف سيارات الجي والمجمع التجاري التابع لبلدية وادي موسى عام ٢٠٠٠ على عدد من خزانات المياه والبرك النبطية التي كانت تخدم المدينة، وشبكة من قنوات الري المصنوعة من الأنابيب الفخارية والرصاصية إضافة إلى شبكة التصريف الحجرية[١٢] وقد خمنا أن هذا الموقع ربما كان الضاحية الجديدة للبتراء ويرتبط بها إداريا، ويدل على ذلك اسمها ونبع الماء الذي كان يغذي البتراء بعد أن يأخذ سكان المنطقة حاجتهم منه، علاوة على أن هذه الضاحية تتحكم بطريق البتراء الرئيسية، وليس من المعقول أن يترك حكام البتراء مدينتهم تحت رحمة حاكم هذه الضاحية الأقل شأنا، ومن المحتمل أيضا أن هذه الضاحية كانت مصدرا

رئيسيا لتزويد البتراء بالفواكه والخضار التي توافرت فيها حسب الكثير من الشواهد كالمصاطب الزراعية ومعاصر الزيتون والمناخ والتربة الملائمين لأفضل الزراعات.

تنتشر في وادي موسى أيضا العديد من المستوطنات أو القرى الصغيرة التي لم تتمكن الحفريات الأثرية من كشف الكثير من معالمها بسبب وقوعها حاليا تحت وطأة المساكن الحديثة والبساتين الزراعية، ومن ذلك " خربة النوافلة " وهي قرية زراعية أنشأها الأنباط في القرن الأول قبل الميلاد وامتدت وتيرة الحياة فيها باستمرارية لافته للنظر حتى السبعينات من القرن العشرين، واكتشفت في هذه القرية إحدى أقدم معاصر الزيتون النبطية المعروفة حتى الآن وتعود إلى بداية القرن الأول الميلادي. وقد اكتشف في الزرابة حتى الآن ١٢ فرنا لتصنيع الفخار، وامتدت صناعة الفخار على الطرز النبطية في الزرابة منذ القرن الأول قبل الميلاد، حتى السادس الميلادي، ولذلك تعد أطول المراكز الصناعية المعروفة في الأردن عمرا حتى الآن وأكبرها حجما بعد مركز تصنيع الفخار في جرش[١٣]. فهي بذلك واحدة من المناطق الصناعية النبطية التي لا يجوز إغفال أهميتها.

٣- وادي رم:

هو الموقع الثاني بعد البتراء الأكثر شهرة إعلامياً وسياحياً، يقع وادي رم في أقصى جنوب الأردن ويبعد مسافة قليلة عن الحدود السعودية شرقي مدينة العقبة، ويبعد عنها حوالي (٧٠) كيلومتراً، ويبلغ ارتفاعه حوالي ١٧٥٤ م عن سطح البحر، وهو ثاني أعلى جبل في المملكة بعد جبل (أم الدامي) ١٨٥٨ متراً، وتكثر حول رم الصخور الغرانيتية وجباله ذات مناظر خلابة بألوانها المتعددة ورمله الضارب إلى الحمرة مما جعله قبلة سياحية للكثير من عشاق الطبيعة في أرجاء العالم.

ويعتقد أن وادي رم هو الموقع الذي اشار إليه القرآن الكريم من ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۞ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾(سورة الحجر في الآية ٧-٨). وتكمن أهمية المنطقة في وقوعها على مسار طريق البخور التجاري ثم في الجذب الاستيطاني، وكشفت عمليات التنقيب في الموقع عن ٢٨٠٠ متر من بقايا المباني، وقد لحق بالمباني دمار كبير جراء

زلزال عام ١٩٩٥ م[١٤] هذا بخلاف الزلازل السابقة التي من المحتمل أن تكون قد أثرت في مباني الموقع وأثرت في كل مباني المنطقة، خاصة زلزال ٣٦٣ م وزلزال ٤١٩ م.

والمسافر المتجه إلى وادي رم عبر الطريق الصحراوي الواصل إلى العقبة يجب عليه الانعطاف شرقا من الطريق العام ليسير مسافة خمسة وعشرين كيلومترا على الطريق الفرعي قبل أن يجد نفسه وسط عالم جديد من الصحراء المحروسة بالجبال الشاهقة وكأنها تضاريس كوكب آخر غير كوكب الأرض، وما أن تطأ قدما المسافر وهدات الوادي حتى يتأكد أنه إنما أمام تجربة فريدة تستحق عناء سفره الطويل من أي مكان كان.

وموقع "رم" الأثري مركز مهم يضم منشآت نبطية من أهمها معبد نبطي لا يزال في حال جيدة نسبيا، وهذا المعبد نبطي خالص في فنه المعماري ويعود تاريخه إلى القرن الأول الميلادي، وهذا مخصص لعبادة الآلهه أترعتا (أترغات)[١٥] وقد بني المعبد في عهد الحارثة الرابع (٤٠ق.م- ٩ ق.م)، ومخططه شبيه بمعبد الأسود المجنحة في البتراء ومعبد خربة التنور.

وقد زاره العديد من علماء الآثار وغيرهم، وجعل لورانس العرب منه مركزا لإقامته فترة طويلة من الوقت وكان شديد التعلق به، وقد أجاد لورنس في وصفه ووصفه الكثيرين غيره ومنهم "هاردنج" (عالم الآثار، مدير دائرة آثار إمارة شرقي الأردن) **الذي قال:** وليست زيارة وادي رم بالأمر اليسير ولكنها جديرة بالمشقة التي يبذلها المرء في سبيلها؛ فوادي رم هو أكبر أودية هذه المنطقة وأفخمها، وهو جميل جمالا غريبا، يملأ النفس بالإعجاب، بل يبعث فيها الروع والرهبة. ولم ينجح أحد عدا الكولونيل لورنس ــ في وصف هذا الموقع العجيب وصفا مرضيا في الفصل السبعين من كتابه (أعمدة الحكمة السبعة)، ومع ذلك فإن مقدرة لورنس على الكتابة الوصفية لم تستطع في الحقيقة أن تنصفه كل الإنصاف. وفي أثناء اجتياز المرء للدرب بسيارته مع الجانب الغربي من الوادي بعيدا عن المسيل الرملي - فإنه يستطيع أن يرى هنا وهناك باحات مرصوفة قريبا من قواعد التلال، ويحيط بكل باحة منها جدار غشيم من

الحجارة المنتصبة، بينما تتألف أرضية الباحة بدورها من حجارة غشيمة لم تصلح أدوات النحت منها. وفي مواجهة منتصف الجدار الخلفي من كل باحة تقوم عادة مجموعة من ثلاثة حجارة منتصبة عموديا، وأحيانا لا يكون هناك سوى حجر واحد. وهذه الباحات توجد فرادى وأحيانا في مجموعات من خمس أو ست، وحتى الآن لم يكتشف أحد القصد من إنشائها أو التاريخ الذي تعود إليه. وإذا أوقفت سيارتك قريبا من أي صخور قرب الدرب، فمن المرجح أن تجد عددا من الكتابات الثمودية منقورة على جوانبها. وتوجد في وادي رم مئات من هذه الكتابات القصيرة ومعظمها لا يزيد على إعطاء اسم الكاتب واسم أبيه، مع أنك ترى أحيانا إلى جانب بعضها رسوم حيوانات أو رسوم أشخاص وتحتها توقيع ينص على أن "فلان ابن فلان رسم هذا". ومن المعلوم أنه يمكن العثور على هذه الكتابات العربية في المنطقة الممتدة من جنوبي البلاد السعودية إلى معان ـ ولكن لا يوجد سوى القليل جدا منها إلى الشمال من ذلك، من المرجح أن يكون رجال القوافل التجارية قد حفروا هذه الكتابات على الصخور، في رحلاتهم بين جزيرة العرب والبتراء. ومن الغريب أن أحدا لم يكتشف حتى الآن نصا كاملا بالحرف الثمودي. ولقد كانت قبيلة ثمود التي تنسب إليها هذه الكتابة، تقيم قريبا من مدائن صالح ابتداء من القرن السابع ق.م. حتى القرن الخامس ق.م. وقد ورد ذكرها في القرآن. وإذا تأملنا هذه الآلاف من الكتابات التي ذكرناها – بدا لنا أن كل واحد من سكان تلك المنطقة في ذلك الحين كان يعرف القراءة والكتابة إلى حد أن يكتب اسمه على الأقل – وهذه نسبة من التعليم لا نرى ما يماثلها حتى الآن(١٦).

ومن المؤكد أن اختيار الأنباط لهذا الموقع ليكون لهم محطة ومستوطنة لم يكن قرارا اعتباطيا، فعلاوة على الطبيعة الخلابة للموقع، خصوصا في الليل، فإن الموقع يقع على الطريق المار من الجزيرة العربية وإليها، وهو منطقة مرتفعة جدا يمكن من خلالها الإشراف على المناطق المجاورة، وفوق ذلك فقد توفر في المنطقة الكثير من عيون الماء التي توفر متطلبات السكان هناك، بل والبدو في المناطق المحيطة، وقد عرف منها خمس عشرة عينا على امتداد السفح وأشهر هذه العيون "عين الشلالة"

وعين "أبو عينيه" وسميت عين "لورنس"، ولا يزال سكان المنطقة ينتفعون من هذه الآبار بعد أن يتم تجميعها في خزانات يجري ضخها لبعض قرى المنطقة.

وقد وجد العديد من المستوطنات النبطية وربما الثمودية قبل الأنباط التي تنتشر في منطقة وادي رم منها خربة جبل الخزعلي ويبعد ٨كم عن جبل رم وهو من الجبال العظيمة في المنطقة وبداخله سيق طويل ذو تصميم رائع، ويحفل هذا السيق بالكثير من النقوش الثمودية والنبطية والعربية، و"طريف المراغ " خربة إلى الجنوب من جبل رم وبها أطلال وبئر ماء. والخارطة والبريرة والتفيشية وجميعها مناطق ثرية بالآثار، خصوصا النقوش.

٤- خربة أم الجمال:

لا نعرف الاسم النبطي لأم الجمال لأن النقوش وغيرها من المصادر لم تنقل إلينا هذا الاسم[١٧]، تقع خرائب هذه البلدة البارزة على مســافة اثني عشر كيلومترا إلى الشرق من بلدة المفرق، وعلى مسافة ستة كيلومترات إلى الشمال من طريق بغداد، وتقوم أم الجمال في طرف السهل الصحراوي المنبسط، وهي واحدة من بين مجموعة كبيرة من البلدات المبنية من الحجر الناري الأسود، التي تمتد شرقا فتدخل حدود جبل الدروز، وأكبرها وأهمها (بصرى) في سوريا، وتعتبر أم الجمال البلدة الجنوبية القصوى في هذه المجموعة، وهناك بلدة أخرى مماثلة تدعى (أم القطين) وتقع على مسافة خمسة وعشرين كيلومترا الى الشرق من أم الجمال. ويبدو ان أم الجمال اكتسبت أهميتها من وقوعها على الطريق من الجنوب الى دمشق، ومن المحتمل أنها أنشئت في وقت ما في القرن الأول قبل الميلاد[١٨].

يلاحظ أن المهندس النبطي، كان قد تمكن من التعامل مع الحجارة البازلتية فراح يشذبها ويستخدمها في أغراض البناء بل في عمل ألواح كبيرة منها تستخدم كأبواب أو سقوف إضافة إلى الاستخدامات الأخرى كالطواحين والمدقات التي تستخدم في تحضير الحبوب والطعام.

ومن المحتمل أن تكون أم الجمال قاعدة أو استراحة أو محطة للقوافل القادمة من دمشق إلى الجزيرة العربية.

وبخصوص قرية المفرق الحالية التي تقع الى الشرق من المملكة الأردنية الهاشمية فإن بعض الإشارات التي وجدت في الموقع تشير إلى استيطان في المنطقة إبان الفترة النبطية، لكن الآثار النبطية طمرت وضاعت جراء الاستيطان اللاحق للمنطقة، ويعتقد أن المفرق كانت مستخدمة في الفترة النبطية كقاعدة او محطة على طريق وادي السرحان الشرقي.

٥- إيلة (خليج العقبة):

إيلة الاسم النبطي العربي للميناء الواقع على الحافة الشمالية لخليج العقبة، مناخه شبه استوائي ومعدل أمطاره السنوي ٥٠ ملميترا. تقع إيلة على خط طول ٣٥٠٠ شرقا وخط عرض ٣١- ٢٩ شمالا، وزاد من أهمية المنطقة الاستراتيجية، وقوعها على البحر الأحمر وعلى طريق البخور. حيث يذكر ديودوروس (٦٩-٣٠ ق.م) أن هناك قرى نبطية كثيرة حول إيلة، وكان أهلها يربون الأنعام ويعملون في القرصنة البحرية[١٩]. ومن المحتمل أن بعض الباحثين خلط بين موقعي "إيلة" و"ميناء لوكي كومي" الشهير على البحر الأحمر قرب العلا، ووصف الجغرافي سترابو الطريق التجاري المار بايلة والواصل بين اليمن وغزة أن السفر عبره كان يستغرق ٧٠ يوما، ويذكر أن المنطقة كانت مأهولة بالأنباط الذين عملوا في الرعي ومارسوا القرصنة البحرية حتى تم ردعهم من قبل البطالمة[٢٠].

وفي الأراضي الأردنية على الخليج الشمالي أيضا للعقبة كشفت التنقيبات الأثرية أطلال موقع "إيلة" التي يعتقد أنها بقايا حصن وميناء إسلامي، وفي موقع آخر قريب إلى الشمال أيضا كشف عن أطلال بيزنطية باسم "إيلة البيزنطية"، مما يدل على أن موقع "إيلة" الأول لم يزل غير مؤكد، ولربما جرى نقل هذا الموقع عبر مختلف العصور.

٦- الحميمة:

تقع في جنوب الأردن في صحراء حســما، على خط طول ١٩ ٣٥ شرقا وخط عرض ٥٧ ٢٩ شمالا على طريق البخور القديم وعلى مسافة ٥٠ كيلا جنوب شرق البتراء، وحوالي ٦٠ كيلو متراً جنوب معان و٨٠ كيلو متراً شمال العقبة، اسمها النبطي

"الحوراء" أي البيضاء، أمر ببنائها الملك النبطي الحارث الثالث (٨٧- ٦٢ ق.م). مناخ المنطقة شبه استوائي جاف، ويبلغ معدل الأمطار السنوي فيها حوالي ٥٠ ملمترا، وجد فيها سد بسيط لجمع مياه الأمطار. وتكمن أهميتها في وقوعها على طريق البخور الآتي من اليمن إلى البتراء ثم إلى غزة على البحر المتوسط. ولتلبية حاجتها من المياه فقد تم سحب ماء العين التي تقع في منحدر النقب وتبعد حوالي خمسة عشر كيلو متراً إلى الشمال من الموقع إلى خزانات الماء المجهزة تحت الأرض، والمسقوفة بالأقواس والجسور الحجرية[٢١]. وفي الحميمة أطلال كثيرة من مختلف العصور بدءا بالأنباط مرورا بالبيزنطيين والعصر الإسلامي.

٧- سيق البارد(البتراء الصغيرة):

وتقع على بعد ٦-٧ كيلو مترات إلى الشمال من البتراء، وتؤرخ بين القرنين الأول قبل الميلاد إلى القرن الأول بعد الميلاد. وسميت بهذه الأسماء لأنها تشبه البتراء في مدخلها الذي يتكون من سيق قصير يفضي إلى ساحة صغيرة ليمتد السيق مرة أخرى مخترقا الصخور، لكن هذا الموقع لم يتضمن مباني أو قبوراً أو أية منشآت ذات قيمة ظاهرة، والمرجح أنه استخدم كمحطة للقوافل حيث وجدت فيه القنوات والآبار المائية، ومن المحتمل أن يكون أيضا مركزا تجاريا لبعض السلع.

٨- خربة فينان Khirbet Feinan:

تقع على بعد ٤٥ كيلو متراً شمال البتراء، وهي من العهد النيولتيكي Neolitic وعبر العهد البيزنطي، حتى وقت متأخر، وكان يجري استخراج النحاس من المنطقة بكميات ضخمة، إذ اعتبرت اهم مواقع استخراج النحاس في المنطقة، وكان يجري استخراج هذا النحاس من عمق الصخور، وقد خدمت فينان بمنظومة من الخدمات، شبكة مياه، وحقول، وورش عمل، وكل الاحتياجات اللازمة للعمال مثلما يجري في مناجم العالم حتى بداية القرن العشرين كمناطق أمريكا. ومن المحتمل أن تكون خربة فينان قد استغلت من قبل المصريين منذ آماد بعيدة، أي خلال العصور النحاسية والبرونزية عندما كانت الدولة المصرية في أوج عافيتها وقوتها. وتقدر كميات النحاس التي جرى استخراجها من الموقع بناء على كميات خبث النحاس الموجودة بحوالي ١٥٠٠٠ طن.

٩- مواقع أخرى في جنوب المملكة الأردنية الهاشمية:

وأهم هذه المواقع من الناحية الأثرية منطقة أو خربة " السلع "، ويقع هذا الموقع حاليا ضمن أراضي قرية السلع على بعد حوالي خمسة عشر كيلوا مترا من الطفيلة، ويرجح أن يكون بمثابة قرية أو مركز استيطاني قديم منذ حضارة الأدوميين على أقل تقدير، وهو عبارة عن صخرة عالية تشبه القلعة الحصينة ربما استخدمها الأدوميين، ومن بعدهم الأنباط كحصن يعتصمون به حال مهاجمتهم، واكتسب هذا الموقع شهرة واسعة في الدراسات التوراتية لوروده في سفر "أمازيا" ضمن قصة دراماتيكية، مفادها أن " أمازيا " الملك اليهودي كان قد هاجم الأدوميين وأنتصر عليهم في هذا الموقع ثم قام بأسر ١٠ آلاف منهم بين رجل وطفل وامرأة ثم جرهم مكبلين إلى السلع ليقوم بإعدامهم هناك برميهم من أعلى الصخرة. وكثرت الاجتهادات في هذا الموضوع وافترض البعض (ومنهم جلوك) أن موقع "أم البيارة" في حوض البتراء هو الموقع المقصود في قصة غزوة "أمازيا"[٢٢]، ويرد اسم "السلع" أو "سالع" مرة أخرى في العهد الأشوري عندما قام نابونئيد بحملته المشهورة على منطقة بلاد الشام وقضائه على مملكة الأدوميين، ويستشف من اللوحة المكتشفة من قبل (حمد القطامين) في منطقة السلع أن نابونئيد أخضع الأدوميين ووثق ذلك في هذه اللوحة[٢٣]. ويكتسب الموقع أهمية إضافية أيضا في عهد الأنباط بوروده كذلك في قصة درامية أخرى تتعلق بالسلوقيين، إذ أنه يرد في قصة الحملة الشهيرة التي أوردها ديودورس، وحسب ديودورس فقد أنفذ "أنتيجونوس" حاكم سوريا السلوقي جيشا بقيادة "أنتيجونوس"، وبالطبع فإن ديودورس كان ينقل عن شاهد عيان، وكان أن نجحت الحملة بمباغتة أهل "الصخرة" وسلبهم أموالهم وعادت الحملة سالمة غانمة بينما كان شباب الصخرة بعيدين في بعض شؤونهم، ولعلها شؤون التجارة والرعي، ولما عادوا ليلا وعلموا بالأمر، أسرعوا في اللحاق بالجيش وألفوه في معسكره يغط في نوم عميق مما مكنهم من سحق القوة باستثناء خمسين فارسا منهم، ولما أحس الأنباط بفداحة النتائج حاولوا استدراك الأمر بالاعتذار وبإصلاح الموقف، وتظاهر "أنتيجونيوس" بالقبول بينما كان يضمر الإعداد لحملة تالية بعد عدة شهور. ومع أن معظم الآراء كانت تشير إلى " أم البيارة "

في حوض البتراء- كما أسلفنا- إلا أن آراء جديدة بدت أكثر إقناعا من الأولى، منها ثلاثمئة ما استنتجه د.فوزي زيادين من أن الصخرة المشار إليها تبعد ثلاثماية ستاد - أي ما يقرب من ٣٥ كيلومترا عن البحر الميت حسب ديودورس، وهذه المسافة تقارب المسافة بين السلع والبحر الميت، لأن البتراء وأم البيارة تبعد أكثر من ١٢٠ كيلومترا عن البحر الميت(٢٤).

وتعد "خربة التنور" من أهم الآثار النبطية نظرا لاشتمالها على أهم المعابد النبطية "معبد التنور"، ويتموضع هذا المعبد فوق جبل عال منفرد عند التقاء وادي الحسا بوادي اللعبان ويشرف على منظرة فسيحة الأرجاء تمتد فوق انحدار الوادي إلى أن تبلغ ضفاف البحر الميت، وقد اكتسب هذا المعبد مكانة دينية سامية لدى الأنباط، يدل على ذلك التماثيل الكثيرة التي تمثل آلهتهم والفن المعماري الرائع الذي كشفت عنه الحفريات الأثرية عام ١٩٣٦ وينتشر حول هذا الجبل عدد من الخرب والآثار التي تدل على استيطان نبطي كثيف في المنطقة(٢٥).

وفي قرية "القصر - الربة " من أعمال الكرك، يدل المعبد الذي لا يزال يحتفظ بمعظم جدرانه في الطابق الأول على مركز نبطي كبير ومهم لتلك المنطقة، ويمثل القصر نموذج الفن المعماري النبطي القليل التأثر بالحضارات الأخرى على ما يبدو، ويشتمل المعبد على أقواس للسقف ودرج داخلي مهدم وأعمدة ضخمة تنتشر في الساحات الأمامية، ويحيط بالمعبد العديد من المرافق المهدمة التي لا تزال بحاجة إلى تنقيب قبل أن يلتهمها العمران الحديث الذي أصبح يحيط بالموقع من جهاته الأربع مخفيا معالم مدينة أو قرية نبطية كبيرة على ما يوحي هذا المعبد بضخامته وروعة بنائه.

ثانيا: المواقع النبطية في أراضي المملكة العربية السعودية:

١- مدينة الحجر (مدائن صالح):

تقع الحجر شمال غرب المملكة العربية السعودية على مسافة ٢٠ كيلو متراً شمال مدينة العلا، وهي عبارة عن سهل رملي طيني، عند ملتقى واديين هما: وادي الحمضة يأتي من الغرب ووادي المزز يأتي من الشرق، ويصبان في وادي الدهيس

الذي يصب بدوره بوادي الجزل، ويحيط بالحجر الجبال الرملية الملونة من الجهتين الشرقية والغربية، وكانت تقع على طريق البخور الذي يربط اليمن بالبتراء، والطريق الساحلي إلي ميناء "لوكي كومي" على البحر الأحمر وطريق وادي السرحان[٢٦].

وكانت مدينة الحجر بمثابة حاضرة الأنباط الجنوبية، بل إنها كانت منافسة للبتراء في نهاية القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الأول الميلادي. ومن المحتمل أنها تمتعت بنوع من الاستقلالية الإدارية والعسكرية وفق بعض الإشارات، فقد ذكر أنه وجد في الحجر قطعة عملة فريدة تحمل اسم الحجر من عهد حارثة الرابع، وأن الأنباط وجدوا فيها أقواما أخرى قبل نزوح بعضهم إليها من البتراء[٢٧]، ومنها كذلك جاء الحارثة الرابع وعدد كبير من أصحاب المناصب الرفيعة في الدولة (الأســتريتجات)[٢٨].



ضريح – قصر الفريد في مدينة الحجر النبطية

ويبدو أن الحجر كانت تمثل أقصى امتداد للأنباط جهة الجنوب، والشاهد على ذلك أن ما يقع الى جنوب تلك المنطقة يبرز فنا معماريا وعادات في الدفن ليست كالتي كانت للأنباط، حتى العلا كانت خارج التبعية السياسية وكذلك خيبر، وإن وجدت فيها نقوش نبطية، ذلك أن الحجر لا العلا كانت المركز التجاري الجنوبي لدى الأنباط، وكان دور العلا في ذلك ضئيلا، ولم يكن الأنباط في هذا الوجهة الجنوبية بحاجة الى مخافر مسورة لأنهم كانوا يستطيعون – فيما يبدو – استرضاء القبائل القاطنة في جنوبهم بطريقة أو بأخرى[٢٩].

ومن المحتمل- كما يرجح (هاموند) أن- وظيفة الحجر كانت كمحطة للبضائع التي يجب نقلها إلى ميناء "لوكي كومي" القريب من البحر الأحمر، حيث من هناك تصبح جاهزة للنقل للأسواق المصرية، خصوصا الى الاسكندرية الميناء المفضل لدى الرومان، وهي الميناء نفسه الذي سيظل مفضلا لدى العالم الغربي (الاغريقي – الروماني). وهذه المنطقة الجنوبية أيضا هي حلقة الوصل عبر البحر الى الهند[٣٠].

وذكرت هتون الفاسي أن منطقة الحجر كانت موطنا لقبيلة (سلمي – سلمو) وهي قبيلة كبيرة ورد اسمها في النقوش وكذلك في عدد من النصوص التاريخية بصيغ كثيرة متقاربة، وتستنتج أن هذه القبيلة هي السلف لقبيلة "بني سليم" أو "سليم" وقد عرفت القبيلة منذ العصر الجاهلي في محيط منطقة الحجر، ولا تزال منازل "بني سليم" اليوم شمالي مكة حتى المدينة (يثرب)، وعلى الأرجح أن الأنباط حينما زحفوا جنوبا أقاموا شكلا من الاتفاق مع هذه القبيلة صاحبة النفوذ القوي في المنطقة بحيث يحافظون على شخصية مستقلة لهذه المنطقة، كما يعتقد أن أقواما أخرى سكنت الحجر ومنها قبيلة ثمود[٣١].

ذكر القرآن الكريم قصة صالح -عليه السلام- مع قومه في ١٧ موضعاً من القرآن الكريم، بأنهم قوم وهبهم الله النعمة والثراء وأنهم جابوا الصخر بالواد وأنهم كانوا يبنون قصورهم في الواد ويتخذون من الجبال بيوتا ومع ذلك فقد كفروا بنعمة الله وعبدوا الأوثان من دون الله فأرسل إليهم عبده ورسوله صالح ليدعوهم إلى عبادة الله

وحده لا شريك له فآمن منهم القليل وكذبه أغلب القوم، فحق عليهم العذاب بعد أن أظهر الله فيهم آيته: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ۞ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ، قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾(النمل ٤٥-٤٧) وفي سورة الحجر أيضا ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ۞ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۞ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾(الحجر/٨٠-٨١).

كانت الحجر مقرا لقبائل ثمود مثلما ذكر القرآن الكريم ودلت على ذلك بعض الدراسات الأثرية والتاريخية، بعدهم سيطر اللحيانيون على الحجر، ويعتقد أنهم قبائل ثمودية أيضا، ثم آلت المنطقة للأنباط الذين استطاعوا مد نفوذهم ليشمل الشمال الغربي للجزيرة العربية.

تعتبر مدائن صالح أو الحجر من الأماكن الأثريه التي يمكن أن يطلق عليها اسم المتحف المفتوح وتحتوي على آثار ثموديه ولحيانيه ونبطيه. تبلغ مساحة المنطقة الأثريه ١٣,٣٩ كم تضم آثاراً قائمه وأخرى ينتظر اكتشافها. ويبلغ عدد المدافن في مدائن صالح ١٣١ مدفنا وتقع في الفترة من العام الأول قبل الميلاد، حتى عام ٧٥ ميلادي، أي الفترة النبطية (www.al-ola.com).

وقد اشتهرت قبور الحجر بالاسماء التي أطلقها السكان المحليون على هذه القبور وبمسميات قصور؛ لجمالها وظنا من بعضهم أنها كانت مساكن للأقوام السابقة. ومن هذه القبور:

- **قصر الفريد:** وهو الاسم المحلي عند أهل المنطقة وسمي بذلك لانفراده بكتله صخرية ضخمة مستقله وكذلك لإنفراده بواجهة كبيرة ومميزة.
- **العجوز:** يبدو انه أقل أهمية في مظهره من القبور الأخرى مما حدا بالسكان إلى إطلاق هذا الاسم عليه.

❖ **الديوان:** وهو عبارة عن معبد نبطي مستطيل غير منظم الشكل نحت داخل الصخر وكان يستخدم للطقوس الدينيه.

❖ **محلب الناقة:** وهو حوض حجري كبير يعرف بمحلب الناقه. ظنا من الناس أنه محلب ناقة صالح التي وردت قصتها في القرآن الكريم. وأغلب الظن أن هذا الحوض الدائري كان من بقايا المعبد النبطي، وقد يكون محرقة أو مذبحاً او حوضاً مائياً لأغراض الشرب أو التطهر.

❖ **قصر الصانع:** مقابر الأسود سميت بذلك نسبة للمخلوقات المنحوته أعلى بعضها والتي تشبه الأسود وتضم هذه المقابر ٢١ قبرا.

٢- دومة الجندل (الجوف):

تقع دومة الجندل على حافة صحراء النفوذ الشمالي، كانت مقرا لملوك الأدوميين، وأطلق عليها الآشوريين وعلى المنطقة المجاورة مسمى "أدوماتو".

من آثار "الجوف" البارزة معقلها الحصين الذي عرف بقصر "مارد" أو "الأكيدر" الذي يعتقد أنه بني في فترة تسبق القرن الثالث قبل الميلاد، وتعاقبت عليه فترات بناء متعددة بعد ذلك، وقد عثر في منطقة الجوف على العديد من النقوش المعينية والثمودية واللحيانية والنبطية، وكان يحكم دومة الجندل إبان بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) الأكيدر بن عبد الملك السكوني، وهو عربي من قبيلة كندة الجنوبية، وكانت دومة الجندل سوقاً عربية شهيرة تبدأ في أول يوم من شهر ربيع الأول وتنتهي في منتصفه من كل عام[٣٢].

وللأسف فإن معلومات الدراسات عن هذا الموقع وعلاقته بالأنباط شحيحة ولا تكفي لتحديد وضعها في دولة الأنباط أو حضارتها. ولكن النقوش التي وجدت فيها إلى جانب النقوش الأخرى تومئ إلى شكل ما من تلك العلاقة التي لا يستبعد أن تكون ضمن النفوذ التجاري، وربما تعدت ذلك إلى النفوذ السياسي.

٣- تيماء:

ظهرت تيماء في الوثائق التاريخية القديمة على نطاق واسع إلى الحد الذي لا ترقى إليه مدينة أخرى في الجزيرة العربية، وترجع هذه المكانة دون شك إلى الدور

الحيوي الذي كانت تلعبه في شبكة التجارة الواسعة الانتشار في الأزمنة الغابرة، إذ أن المدينة كانت بمثابة محور الشبكة المترابطة التي تربط جنوب وجنوب شرق الجزيرة العربية ببابل، ومصر، وسوريا.

وليس من الواضح تماما مدى امتداد النفوذ النبطي إلى تيماء، لكن من المحتمل أن مدائن صالح كانت في نطاق مدينة تيماء آنذاك[٣٣]، وهذا يسند الفرضيات الأخرى التي تشير إلى قدر كبير من الاستقلالية التي كانت تتمتع بها الحجر عن الدولة النبطية.

٤ – العلا:

شأنها شأن المواقع الأثرية في المملكة العربية السعودية، فإن مواقف الباحثين الأثريين والتاريخيين لا تزال متأرجحة وغير واضحة بخصوص مكانة العلا بالنسبة للأنباط، فالبعض يعتبرها منطقة نفوذ نبطي تابعة لمدينة الحجر، فيما يعتبرها آخرون خارج حدود الدولة النبطية مثل الدكتور إحسان عباس الذي عزز رأيه بشواهد قوية. ذاكرا أن "الحجر" كانت مركز نفوذ الأنباط فيما كان دور العلا ضئيلا، حتى أن الأنباط لم يكونوا مضطرين لتعزيز دفاعاتهم الحدودية هناك بعد أن نجحوا – فيما يبدو – في استرضاء القبائل القاطنة إلى جنوبهم بطريقة أو بأخرى.

ثالثاً– منطقة حوران التي تقع بين سوريا والأردن:

وحوران هي الهضبة الواقعة جنوب دمشق في الشمال ووادي اليرموك وجبال عجلون في الجنوب ومنخفض الأزرق في الجنوب الشرقي، إلى هضبة الجولان وجبل الشيخ غربا وصحراء الحماد وجبل العرب شرقا.

وتكمن أهمية المنطقة في كونها همزة وصل بين وادي السرحان وهي الطريق الآتي من الجزيرة العربية إلى سوريا، وبين شمال سوريا وجنوبها، إضافة إلى أهميتها الزراعية التي كانت تشكل مستودعا لمنتجات الحبوب والفواكه.

عرفت عند الأنباط باسم "باشان"، وذكرها الآشوريون باسم "حورانو"، وقد تبع القسم الأكبر من حوران مملكة الأنباط، وكانت بصرى عاصمتهم الثانية ومن أهم مراكزهم التجارية.

وقد أسس الأنباط فيها عدة مدن ومستوطنات مثل أم الجمال وسيع وقنوات واللجاة وغيرها، وتبعت دمشق لهم في بعض الأحيان، وربطها الأنباط بشبكة من الطرق.

ويعود وجود الأنباط في حوران إلى زمن مقارب للوجود النبطي في النقب مثلما أسلفنا، أي لبداية القرن الأول قبل الميلاد.، وتشير بردية "زينون" إلى وجود الأنباط هنالك حوالي سنة ٢٥٩ ق.م. ولكن طبيعة ذلك الوجود المبكر غير واضحة، ولعل سيطرة الأنباط بالمعنى الصحيح على حوران لم تتم قبل عهد عبادة الأول حين اصطدم بجانيوس سنة ٩٣ ق.م في النزاع على الجولان، وعهد حارثة الثالث الذي استولى على دمشق سنة ٨٥ ق.م. وفي الغالب فإن وجود الأنباط غير كثيف في حوران مما يحتمل معه أنهم كانوا هناك حكاما ولم يكونوا رعية نبطية كبيرة العدد، وبما أن الأحداث أظهرت عدم تدخل الأنباط بفاعلية كبيرة إزاء سيطرة "دكران الأرمني سنة ٧٢ ق.م "على دمشق ما يعني أن وجودهم كان بمثابة "شيوخ" قبليين يدينون للدولة النبطية بتبعية اسمية. ويثير الدكتور إحسان عباس أسئلة محورية في علاقة الأنباط بحوران، ذلك أن هذه المنطقة تكاد تكون منفصلة عنهم جغرافيا بسبب حاجزين كبيرين هما: حلف المدن العشر (الديكابوليس) والمنطقة التي تسمى "بيرايا"، وكانت الطريق إليها إما عبر المدن العشرة، أو عبر طريق وادي السرحان الذي يبتعد شرقا ثم ليعاود التفافه ليصل إلى حوران. هذا إضافة إلى الاستيطان الضئيل للأنباط في حوران كما أشرنا سابقا وضعف التأثير النبطي في أحداث المنطقة. ويبدو – كما يستنتج الدكتور إحسان عباس – أن منطقة حوران كانت بمثابة منطقة نفوذ تجاري في المَقام الأول[٣٥] لكن ستاركي يعظم من قيمة الوجود السياسي النبطي في حوران ليس فقط بسبب مناخها المعتدل وتربتها الخصبة، بل وبدليل محاولات السلوقيين الدؤوبة لإنهاء الوجود السياسي للأنباط في المنطقة عن طريق إثارة الفتن والهجمات المباشرة[٣٦]. ومن المحتمل أيضا أن يكون الأنباط قد ازدادوا تمسكا واهتماما بحوران بعد أن بدا الخطر السلوقي ماثلا أمامهم هناك، لذلك جعل الأنباط من حوران مركز انطلاقهم لمواجهة السلوقيين وكذلك للسيطرة على الجولان والقضاء على الأحلاف المعادية، لذا عزز

الأنباط جبهة قوية على خط يمتد بين درعا وبصرى وصلخد، حيث ازدهرت المدن الثلاث وشهدت نهضة عمرانية وإقامة تحصينات قوية[٣٧].

وفي حوران عدد من المراكز النبطية عرف منها حتى الآن ما يلي:

١- بصرى:

وهي أكبر المراكز النبطية، والبقايا المعمارية فيها كثيرة العدد، وكانت المركز التجاري الثاني أو الثالث بعد البتراء ومدينة الحجر في الجنوب، وقد جعلها الرومان عاصمة الولاية العربية بعد أن جرى ضم مملكة الأنباط إلى ولايات الامبراطورية الرومانية عام ١٠٦م.وفي بصرى بقايا معمارية نبطية كثيرة العدد...

٢- السويداء (سوادا):

كانت أهم المراكز النبطية، وتستمد أهميتها مما بقي فيها من دلالات معمارية ودينية، ففيها المباني والمذابح والمنشآت التعبدية الأخرى[٣٨]. ويبدو أن موقع السويداء كان من المواقع المهمة في العصرين النبطي واليوناني، ويوجد في الموقع معبد نبطي يرجح أن يكون مخصصا للإله النبطي (ذو الشرى) ويقع حاليا وسط المدينة ولا تزال ثلاثة من أعمدته الجميلة بتيجانها الكورنثية ماثلة وسط طريق ضيقة مبلطة بأحجار بازلتية. وفي السويداء أيضا بقايا جدران سميكة مرتفعة كانت تشكل إحدى قلاع الأنباط وتقع غربي المدينة قرب ما يعرف اليوم بساحة سمارة. وعلى السفح الغربي على طريق ظهر الجبل تقع عدة أبراج يبدو أنها استخدمت لأغراض دفاعية[٣٩].

٣- سيعا (سيع) (سيا):

ويقع على بعد ٢ كم جنوب شرق قنوات وكان عبارة عن موقع حصين تحيط به الأسوار العالية وله عدة أبواب، لا يزال الباب الشرقي منها واضحا، وضمن الموقع الغربي بنى الأنباط معبدين: الأول كان مكرسا للإله (ذي الشراة) والثاني للإله (بعل شمين) إله السموات، وبنيا في النصف الثاني من القرن الأول ق.م (٣٣ ق.م)، ولم يبق من هذه المعابد سوى أسسها وبعض عناصرها المعمارية المبعثرة في الموقع وجواره. وفيها بقايا كبيرة من خرائب نبطية منها مسرح صغير ومعبد مخصص لذي

الشرى وعدد غير قليل من النقوش وكسر زخرفية، ويبدو أن سيعا كانت مركزا دينيا لدى الأنباط[٤٠]. وربما يصح القول أن معبد سيع المخصص "لبعل شمين" هو من أكبر المقامات الدينية النبطية في تاريخ المملكة، ويتضمن كل تفاصيل المعبد النبطي، ومساحة المعبد الخارجي ١٩× ٢٠ م[٤١].

٤- صلخد (سلخة) و(صرخد):

وفيها القلعة الشهيرة المذكورة في كتب المؤرخين وكتاب العهد القديم، وكان الأنباط أول من بنى فيها التحصينات، ثم استخدمت في العهود اللاحقة كحصن منيع للدفاع عنها ضد خطر المهاجمين.

٥- مجموعة أخرى من المواقع:

والخرب التي عرف منها حتى الآن: مدينة دوبو/ تل دبة المكتشف مؤخرا. ثم تل القينة ويشتمل على مجموعة من الأبنية الحصينة بحجارة ذات قطع كبير، ومنها كان يمكن مراقبة السهل الممتد حتى شرقي الأردن وكامل منطقة شهبا شمالا[٤٢].

رابعاً- منطقة النقب الفلسطيني:

هي القسم الجنوبي من فلسطين، ذو الشكل المثلث الذي يقع رأسه عند بقعة "المرشرش" مقابل خليج العقبة. ويشمل جميع الأراضي الواقعة بين قضائي غزة والخليل وبين شبه جزيرة سيناء وشرقي الأردن وجنوبي البحر الميت. وهو قضاء يختلف في طبيعته وسكانه عن سائر البلاد وتتبعه منطقة الصحراء الفلسطينية الواقعة في جنوبه. تقدر مساحة القضاء بنحو "١٢،٥٧٧ كيلومترا مربعا (أي ما يقارب نصف مساحة فلسطين بكاملها) مناخ المنطقة صحراوي حار جدا في الصيف، بارد قليل الرطوبة في الشتاء، معدل أمطاره يتراوح بين ٢٥ – ١٢٠ مم، أما في محيط مدينة بئر السبع الواقعة في الطرف الشمالي فيتراوح معدل الأمطار حوالي ٢٢٠ مم، وعدد الأيام الماطرة يتراوح بين ١٠- ٣٠ يوما في السنة[٤٣].

وعلى الرغم من طبيعتها الصحراوية الجافة وقلة عدد السكان فيها. إلا أنها منطقة تعدين هامة، إذ أنها مصدر معظم المعادن المحلية، والنقب مهم لأنه جزء من

الطريق من المحيط الهندي وإليه عبر البحر الأحمر، ثم الطريق البري بين مصر - فلسطين - جنوب الأردن وشمال شبه الجزيرة العربية.

ومن الممكن تقسيم النقب إلى أربع مناطق على أساس تكوين الأرض، ففي الشمال منطقة مسطحة، وهي امتداد لمنطقة بئر السبع، ترتفع تدريجيا حتى جبال النقب، ومعظم المنطقة الشمالية مغطاة بالكثبان الرملية، ثم يليها عبر النقب، من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، جبال النقب، وهي سلسلة من التلال والوديان المتوازنة التي يتراوح عرضها بين ٣٠ - ٤٠ كلم، ويقع جنوب الجبال نجد بكران وعرضه ٣٠ كلم، وعلى بعد ٣٠ كلم من إيلات، نجد تلال " إيلات " الوعرة، ويتصل النقب بمنطقة وادي العربة ذات المناخ الصحراوي، وهذا جزء من غور الأردن- البحر الميت وخليج العقبة، والوادي منحدر الجانب ومسطح القعر، وطوله ١٧٠ كلم في الشمال(٤٤).

عرف الأنباط صحراء النقب نظرا لمرور الطرق التجارية عبره نحو مصر مرورا بغزة، ومن المحتمل أن الأنباط بنوا مستوطناتهم التجارية والصناعية أو بعضا منها في النقب بعد أن أسسها الأدوميون، لكن الأنباط - كما في كل المناطق - راحوا يضعون بصماتهم الخاصة هنا وهناك إلى الدرجة التي بات فيها البحث عن آثار أدومية أسبق أمرا عسيرا. ويسجل النقب للأنباط إبداعات قل نظيرها مثلما شهد معظم الدارسين بعد أن اكتشفوا إنجاز الأنباط في تكيفهم مع هذه الصحراء القاسية التي جعلوا منها مزارع وبساتين في ظل شح الأمطار وقساوة المناخ. ووصفهم د.جواد علي قائلا: لقد أظهر هؤلاء الرعاة- الأنباط - مقدرة فائقة وكفاية تقدر في تكييف أنفسهم، وفي أخذهم بأساليب الحياة الحديثة في الحياة. لقد تمكنوا من استغلال أرضهم وما فيها من موارد طبيعية، وتعلموا استغلال مناجم النحاس والحديد القديمة في "أدوم"، واستخدام هذين المعدنين المهمين في صنع المواد اللازمة لشؤون الحياة(٤٥).

ويبدو أن استثمار النقب أو على الأقل بداية العمران النبطي فيه - لم يبدأ قبل القرن الثالث قبل الميلاد، في ذلك الوقت بنى الأنباط "عبدة" أما "كرنب" و"خلصة" فقد بنيتا في عهد متأخر نسبيا (القرن الأول الميلادي)(٤٦)، أما بخصوص الزراعة النبطية التي لفتت أنظار الدارسين، فإن ذلك مرتبط بازدهار الطرق الزراعية على ما يعتقد،

أي أن الطرق الجارية أسبق من التطور الزراعي، وهذا أمر منطقي إذ أن الزراعة وحدها لن تكون سببا كافيا للاستقرار في هذه المستوطنات ما لم تجد هذه المنتوجات الزراعية سوقا تستوعبها، ولا بد من أن المنتوجات الزراعية من خضار وفواكه كانت تقابل بأثمان مجزية من قبل أصحاب القوافل الذين يقطعون الصحاري والفيافي فيشتد شوقهم للحصول على مثل هذه المنتوجات الطازجة في مثل ذلك المناخ القاسي.

وقد أقام الأنباط عدداً من المستوطنات في النقب، وتأتي هذه المستوطنات على الطريق المار إلى غزة لخدمة القوافل التجارية من ناحية، وهي كذلك مراكز لبعض الصناعات كصناعة الفخار النبطي الشهيرة، وكذلك لاستخراج المعادن القريبة وربما تصنيعها وتجارتها في طريق القوافل، وأهم هذه المراكز النبطية المعروفة حتى الآن:

١-الخلصة Elusa:

كانت الخلصة العاصمة الإقليمية للنقب، يجاورها من الشرق كرنب (مستوطنة نبطية) وعبودة من الجنوب على الطريق التجاري النبطي المؤدي إلى غزة.

٢-كرنب:

تقع على تلة صغيرة ترتفع ٤٧٩ م عن سطح البحر، وتقع على بعد عدة أكيال جنوب ديمونا على ملتقى الطرق القديمة، ويعود أبكر استيطان نبطي في كرنب إلى النصف الأول من القرن الأول الميلادي[٤٧].



صورة لبعض الآثار النبطية في النقب- عن موقع Nabatea.net

٣-عبودة (عبدة) Avdat :

تقع على الطريق التجاري الرئيس بين البتراء وغزة، وتحتوي عبودة على معبد وقلعة نبطية وهي مبنى سكني بشكل منظم يحيط به مع القلعة سور دفاعي، يشتمل على برجين دفاعيين يتكون كل منهما من ثلاثة طوابق، ويبدو أن الاستيطان في عبودة استمر حتى الفترة البيزنطية(٤٨).

ومن المرجح أن تكون عبودة – قد أخذت اسمها من الملك النبطي الذي بناها أو ربما مات فيها وحسب، عبادة الثالث (٣٠- ٩ ق.م) الذي فقد شهرته كملك لصالح وزيره القوي سيلي (صالح).

٤- نصتان Nessana:

هي المستوطنة الرابعة المعروفة، فيها آثار ظاهرة، تكاد تضاهي " عبدة " في أهميتها.

أما بخصوص صحراء سيناء، فالآثار فيها نادرة ولا يعرف فيها أي أبنية أو مستوطنات نبطية ظاهرة، واعتبرت سيناء امتدادا للطريق البري إلى مصر عبر العريش أو غزة، لكن هذا الامتداد لم يكن امتدادا استيطانيا أو سياديا على المنطقة بقدر ما كان نفوذا تجاريا بحكم الطرق التجارية.

ثانيا- أنواع المساكن والمنازل والأبنية وسماتها:

مقدمة:

قد يظن البعض أن حضارة الأنباط المعمارية تكاد تنحصر في الأبنية المنحوتة في الصخر، وقد يزيد على ذلك بعض الأبنية المبنية من الحجر. والواقع أن أنماط الأبنية المعمارية في حضارة الأنباط أغنى وأشمل من ذلك بكثير، وإذا كان ذلك يصدق على الأنباط فهو أكثر صدقا على كل الحضارات التي نشأت في المنطقة منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا. وإن الدارس ليعجب أن هذه الأنماط كانت تتعايش ولا تزال كذلك دون أن يقضي الواحد منها على الآخر وعبر امتداد الزمن واستمرار التطور والتقدم. وليس أشمل من التفسير الطبوغرافي – المناخي لهذه الظاهرة التي لا

تزال مستمرة حتى الآن كما ذكرنا. فإن المتأمل في تضاريس المنطقة الممتدة التي سكنها الأنباط ومن قبلهم الحوريون فالأدوميون، ثم من بعدهم القبائل العربية الأخرى، ليجد بيت الشعر مجاورا لبيت الطين البدائي ثم البيت الحجري والاسمنتي والقصور الفخمة جنبا إلى جنب مع بيوتات الحجارة البسيطة أو الغشيمة إضافة لأنماط أخرى من المساكن أو البيوتات. والملاحظة الثانية للدارس في هذا الشأن أن انتشار هذه الأنماط يعتمد أيضا على التضاريس والمناخ بالدرجة الأولى، فكلما اتجهنا شرقا، أي باتجاه الصحراء، غلب نمط بيوت الشعر البدوية كمساكن، لاحظنا انتشار بيوتات الطين البسيطة كمنازل أو كمنشآت أو مراكز خدمية للعديد من الأغراض وخصوصا التجارية. أما عند الاتجاه غربا فإن البيوت الحجرية والطينية ستبدأ بالازدياد والسيادة، والمناطق الغربية هي المناطق الجبلية بالطبع، ومناخها أقرب إلى مناخ البحر المتوسط، وعبر المراحل، كان لطبيعة المواد الخام الموجودة في الطبيعة الدور الأهم في أنماط البناء، ثم إن أنماط العمل الاقتصادي كان لها الدور الحاسم في هذه الأنماط خصوصا من ناحية التصميم المعماري والدور الوظيفي لهذه الأبنية.

ونتناول فيما يلي استعراضا لأنواع المساكن والأبنية في المناطق النبطية:

١-٢- بيوت الشعر أو الخيام (البدوية):

ليس من السهل تحديد تاريخ دقيق لظهور بيت الشعر المصنع بالنول، فهذا الاختراع عرف منذ أقدم العصور في الكثير من الحضارات الإنسانية، لكنه ظل ملتصقا بالبوادي والجماعات المرتحلة، ومن مادته التي صنع منها نعرف أنه اختراع الجماعات البدوية، ونعرف أيضا من مصادر عديدة أن البداوة صارت مرحلة متقدمة على ما سبقها من المراحل التطورية للحضارات الإنسانية، فقبل ذلك كانت السيادة لنمط "الجمع والالتقاط" كنمط عيش الناس، ثم إن ذلك تطور لنمط "الصيد" ليفضي ذلك إلى تدجين الحيوانات ثم تربيتها ليسود هذا النمط وربما جنبا إلى جنب مع النمط "الزراعي" الذي كان قد تطور في أماكن أخرى بسبب البيئة المناسبة للزراعة التي تتوفر فيها المياه أيضا خصوصا الأنهار.

وإنه لمن المنطق القبول بنظرية "الكهوف" التي عاش فيها الإنسان قبل اهتدائه لصناعة النول، لكن الكهوف غالبا من صنع الطبيعة، وما كان على الإنسان سوى تحسينها بهذا القدر أو ذاك لتصبح صالحة لأغراضه المتواضعة آنذاك، ومع الاهتداء لصناعة بيوت الشعر، ظل الكهف أيضا يتمتع بأهمية كبيرة للإنسان، خصوصا في المناطق الجبلية، وتطورت وظائف الكهف ليلبي وظائف أخرى غير السكن. لكن بيت الشعر صار عنوانا أو رمزا لمرحلة جديدة من التطور، فهو سيمتاز عن الكهوف بالكثير من الخصائص، إذ أنه سهل النقل والحمل والتركيب، وهو أيضا مصنع من مواد خام وفيرة. وعلاوة على ذلك فهو الأكثر مناسبة للصحراء من أي نمط آخر من أنماط المساكن.

وقد عرفنا من خلال السجلات الأشورية أن القبائل العربية في الجزيرة العربية كانت تعيش في بيوت الشعر والخيام منذ آلاف السنين، وعرفنا من خلال النصوص والسجلات المصرية أن بلاد الشام أيضا كانت تنتشر فيها الخيام المصنوعة من الشعر والصوف. فمن بردية هارس من عصر رمسيس الثالث (١١٩٣-١١٦٢ ق.م) **يقول:** دمرت سعير ومن فيها من قبائل الشاسو ومزقت خيامهم بما فيها من ناس، وما بها من متاعهم ومثلها من قطعانهم التي لا تحصى، وقد كبلوا وقدموا كغنائم وجزية لمصر... وعلى الرغم من اختلاف العلماء في تحديد موقع قبائل الشاسو هذه إلا أن الرأي الراجح أنها قبائل انتشرت في بلاد الشام عموما وقد يكونون وصلوا شرق النيل أيضا[٤٩].

واشتهر (بنو قيدار) وهم الثموديون على الأرجح - بخيمهم المصنوعة من شعر الماعز، وأصحاب الخيام المصنوعة من شعر الماعز أو صوف الضأن هم من الأعراب أصحاب الماشية، الذين يعيشون في مواضع تكثر فيها الأمطار وتكون غير بعيدة عن المدن والقرى ومواضع الماء، ولذلك فهم يعيشون في الغالب على الرعي[٥٠]. وبيوت الشعر عادة ما يختلف بعضها عن بعض من حيث سعتها، وفي سعة الخيمة دلالة على منزلة صاحبها ومكانته وثرائه. والخيمة عادة **ما تقطع إلى قسمين أساسيين:** قسم (المحرم) وهو للنساء وقسم (المضيف) أو (المجلس) وهو للرجال للضيوف ولباقي أفراد الأسرة في الأحوال الطبيعية. ثم يقسم إذا كان صغيرا إلى

قسمين: الربعة والمحي، وإذا كان كبيرا يقسم المحرم لعدة أقسام لكل من الزوجات، إذا كان صاحب البيت ذا عدة زوجات أو له أم وأخوات يرى لزوما التفريق بينهن ،وهذا التقسيم يكون بواسطة الحواجز المصنوعة من القصب أو المنسوجة من الشعر وهي المسماة بالقطع أو الساحة، وخيام البدو على أنواع مختلفة في الحجم وفي الشكل وفي مادة التصنيع، فالمصنوع منها من شعر الماعز هو الغالب والأكثر تفضيلا لخصائصه الكثيرة ومنها سعته ومقاومته للظروف المناخية، ومن هذه الخيام أيضا ما يصنع من وبر الإبل أو صوف الضأن، ويسمى حينها "الخباء"، وهو على عمودين أو ثلاثة، وما فوق ذلك فهو " بيت "، وقيل أن الخباء من شعر أو صوف، وهو دون "المظلة"، وذكر أن المظلة الكبير من الأخبية ذات رواق، وربما كانت شقة أو شقتين وثلاثا، وربما كان لها كفاء وهو مؤخرها. وعرف العرب أيضا "الطراف"، وهو خباء من أدم يتخذه الأغنياء، و"الطوارف" من الخباء ما رفعت من جوانبه ونواحيه للنظر إلى الخارج.

والملاحظ أن البدو لا يستعملون كلمة خيمة ولا مضرب ولا فسطاط ولا غيرها مما جاء في كتب اللغة، بل كلمة: "بيت" أو "بيت الشعر" فقط.

وعادة ما تتميز خيمة شيخ القبيلة أو سيدها بكبرها عما جاورها من سواد الناس، وهي قبلة للضيوف واللاجئين وأصحاب الحاجات الذين غالبا ما يستدلون عليها من حجمها، وهي أيضا منتدى أبناء القبيلة ومركز عمل الشيخ الذي يدير شؤون قبيلته. وفي بعض الحالات كان بعض السادة من القبائل العربية يجعل له قبباً خاصة من "الأدم" أي الجلود، وهي من إمارات التعظيم والتفخيم والامتياز والجاه عند الملوك. وغالبا ما تتوسط خيمة الرئيس او الشيخ مستوطنة الخيام التي تتناثر حولها[٥١].

وبالنسبة للأنباط، فإن بيت الشعر والصوف ربما كان الأكثر انتشارا وشيوعا بينهم، نعرف ذلك ليس من خلال المخلفات الأثرية، بل من خلال نمط المعيشة الذي كان سائدا بينهم، فهم يربون الضأن الكبير الحجم مثلما ذكر سترابو، وكذلك الإبل التي كانت العماد الأول لاقتصادهم، ومن المحتمل أن ما لدى الأنباط من الإبل كان يفوق ما حولهم من قبائل. فهم إذن قبائل تعتمد على تربية الإبل بالدرجة الأولى ثم الضأن بعد ذلك، وبالنسبة للقيم البدوية، فإن مالك الإبل أرفع مكانة من مالك الضأن وأعلى منزلة،

وترتفع هذه المنزلة بقدر ارتفاع عدد ما يملك من تلك الإبل، وهذا الاقتصاد يوجد عادة في الصحراء وعلى أطراف الجبال.

وإن الناظر في انتشار المستوطنات النبطية المستقرة، كالقرى والمدن، على امتداد رقعتهم لا بد من أن يلاحظ محدودية هذه المستوطنات وبالتالي قلة عدد سكانها، وثمة تقدير لعدد سكان البتراء في أوج ازدهارها بما يصل حول الثلاثين ألفا[٥٢]، ومعنى ذلك أن مجتمع الأنباط الحقيقي لم يكن مدنيا بل كان في أطراف المدن وعمق صحاريها، وبالطبع في مجتمعات من الخيام مثلما هي معروفة اليوم ولكن بصورة أوسع.

نشير إلى ملاحظة أخيرة في شأن بيوتات الشعر هي أن هذا النمط من المساكن لم يخلف لنا أثرا ماديا، وهذا الأمر مفهوم لأن مواد هذه البيون من شعر وصوف وأخشاب، حتى الحلقات المعدنية الصغيرة لا تقوى على الصمود في أتربة الصحراء لأكثر من عشرات السنوات. ولذلك لم يجد الأثاريون أي شيء ذي قيمة في هذا الشأن.

٢-٢- المغاور والكهوف:

ذكرنا أن بيوتات الشعر لم تكن لتلغي ما سبقها من مساكن الكهوف مثلما لم تكن البيوت الطينية أو الحجرية لتلغي بيوت الشعر أو غيرها من المساكن. ومع أننا لا نملك مخلفات أثرية دامغة، إلى أن هذا النمط كان معروفا بين الأنباط وبالطبع بين الأدوميين قبلهم والحوريين الذين أكثر ما عرف عنهم التصاقهم بالكهوف مثلما ذكرت ذلك التوراة والمصادر المصرية. فمساكن الكهوف كانت معروفة في هذه البلاد وما حولها منذ أقدم العصور، وبعضها كان لا يزال مستخدما كمساكن إلى وقت قريب في الكثير من أطرف القرى الأردنية والفلسطينية واللبنانية والسورية، وقد استخدمت بعض هذه الكهوف ملاذا للمؤمنين المتعبدين أو الزهاد والمتصوفين، وقد رصد زيدون المحيسن العديد من الكهوف التي استخدمت كمساكن في بعض القرى التي درسها مثل بشرى وسال وحوارة من أعمال إربد، وذلك منذ أواسط القرن التاسع عشر بعد قدوم

مجموعات قبلية من الجزيرة العربية واستخدم الناس هذه الكهوف في فصول الشتاء بينما استخدموا بيوت الشعر في الصيف، ووجدت في بعض هذه القرى كهوف معروفه لعائلات بعينها، وفي فترة لاحقة بنى كل واحد من هؤلاء بيتا فوق المغارة[٥٣]. ورصدنا بأنفسنا عشرات من هذه الكهوف التي استخدمت في جنوب وشرق بيت لحم والخليل وجبال الطفيلة والكرك لنفس الأغراض، ولا يزال قليل من هذه الكهوف قيد استخدام بعض الرعاة في تلك المناطق. ومدينة البتراء نفسها تتضمن حتى الآن عددا كبيرا من هذه الكهوف التي غالبا ما كانت من صنع الإنسان، وبعضها وربما معظمها كان من عصور ما قبل الأنباط، لكن الأنباط – بالتأكيد – استخدموها لأغراض السكن وأغراض أخرى كالتخزين، وامتاز بعض هذه الكهوف الصخرية بارتفاعه عن مستوى الأرض لأسباب دفاعية ربما، والبعض الأخر من الكهوف استخدم بالتأكيد لأغراض إيواء قطعان الماشية وتخزين الحبوب والسكن في كثير من الحالات. وكذلك من السهل ملاحظة آثار الاستيطان القريب للكثير من الكهوف المنتشرة في جبال الشراة خصوصا الكثير من الوهدات الصحراوية، إذ أن آثار الحرائق لا تزال بادية، ويمكن ملاحظة طبقات من التربة السوداء الخصبة التي تحيط بهذه الكهوف مما يستدل معها على استيطان طويل المدى لهذه الكهوف، وبعضها أيضا يحتفظ ببعض المخربشات أو الرسومات البسيطة من صنع الإنسان في الكثير من المراحل التاريخية.

يشار أخيرا إلى أن الكهوف عرفت باسماء متعددة تبعا لحجمها أو شكلها مما يدل على أهميتها في حياة سكان المنطقة، وأكبر هذه الكهوف حجما هو "البد"، فالمغارة، ثم الكهف، وهذه غالبا ما تصلح لسكنى الإنسان وفيها أثر منه، ثم الشقيف، واللجف، والسلع، وهي غالبا ما تستخدم لأغراض أخرى غير السكن ولم يكن ليد الإنسان فيها أي آثر.

٣-٢ – حجرات وبيوتات الحجارة الغشيمة:

لا تزال بقايا من هذه الأبنية البسيطة قائمة في العديد من مناطق بلاد الشام ومنها جنوب الأردن التي كانت قلب بلاد الأنباط، ومعظم هذه الأبنية تهدم أو ترك بعد

التطورات الكثيرة في الحياة. وفكرة هذه البيوتات التي غالبا ما تتكون من حجرة واحدة، هي أنها كانت بمثابة بيوت سكنية موسمية، وغالبا لفصلي الربيع والصيف، تأوي إليها الأسرة لأسباب اقتصادية تكاد تنحصر في جمع الحصاد من الحقول أو قطف الثمار وحراستها قبل أن تعود لممارسة حياتها المعتادة في البيوت الحجرية في القرى والمدن أو في بيوت الشعر في البادية.

ويمتاز البيت الحجري بالكثير من الميزات التي تجعل منه مسكنا موسميا مفضلا، فهو أولا قليل الكلفة في إنشائه، إذ أن ذلك لا يتطلب أكثر من جمع قدر كاف من الحجارة الغشيمة ثم القيام برصفها وبنائها بعضها فوق بعض بقليل من المهارة، ويجري ذلك بدون استخدام الملاط "المونة" في أغلب الأحيان، أما السقف فيجري بناؤه من أغصان الشجر أو من الأخشاب وما تجود به البيئة، وبما أن الجدران عادة ما تكون سميكة بصفين من الحجارة وبدون الملاط، فإن ذلك يحقق جوا لطيفا داخل البناء في الصيف، وهي لذلك تمتاز بأنها مصايف، ولذلك سميت في بعض قرى جنوب فلسطين بـــ"القصور" لأنها بمثابة المرابع الصيفية لأصحابها.

وثمة استخدام آخر لهذه القصور البسيطة، ذلك أن البعض استخدمها كمراكز لبعض أعماله التجارية كالدكاكين، وتقام عادة على أطراف الطرق التجارية الدولية والداخلية، ولا يزال بمستطاع المسافر على الطرقات الداخلية في محافظات الأردن ملاحظة بقايا هذه القصور كرجوم من الحجارة ويمكن ملاحظة بقايا جدران هذه الأبنية أو أساساتها، وبعضها لا يزال على حاله، ومنها ما جرت تقويته بالملاط الطيني، أو بالملاط الاسمنتي في فترات لاحقة، على أننا نذكر أن هذه الأبنية هي من فترات زمنية متأخرة، وأغلبها من زمن القرن العشرين، إذ أن القديم منها لم يقو على البقاء إذا ما علمنا أن البلاد تعرضت للكثير من الزلازل المتوسطة القوة في فترات لاحقة لحضارة الأنباط والرومان، حتى مرحلة الفتح الإسلامي، ثم إن معظم هذه الأبنية أعيد استخدام حجارتها من قبل السكان المتجددين في كل المراحل بحسب طبيعة التطور، وقد استخدم بعض هذه الحجارة لأغراض إقامة الجدران الزراعية وبعضها لأغراض البناء الحديث، مما لم يبقِ لنا معه أثراً مكتملاً لها.

ويجب التأكيد أخيرا أن الأنباط إنما استخدموا هذه الأبنية على نطاق واسع من وجهة نظرنا، يستدل على ذلك من أنماط معيشة السكان ومن بقايا مستوطناتهم، فإنك لتجد مستوطنات الأنباط المبنية لا تعدو أن تكون بمساحة القرى الصغيرة جدا بمقاييس أيامنا هذه، وإنك لو دققت النظر لتجد الكثير من الرجوم في الأراضي المحيطة بهذه الآثار، وثمة رجوم أخرى كثيرة في المرتفعات الجبلية، خصوصا الزراعية، وبعض هذه الرجوم ينتشر في الصحراء أيضا، لكنه ليس من السهل الكشف عن مخططات هذه الأبنية البسيطة ما دامت لا تقوم على أساسات عميقة، خصوصا أن الأثريين لم يبذلوا جهدا في هذا الصعيد لتركيزهم على المستوطنات المهمة التي تتضمن المنشآت والمرافق المبنية أو المنحوتة التي تعتبر الأغنى في آثارها المادية.

ومما هو معروف ان الأنباط كانوا قد فبدؤوا في مستهل سكناهم لمنطقة حوران بإنشاء أبنيتهم بالحجر البازلتي المتوفر في المنطقة بشكله الطبيعي مع تشذيب وتوجيه بسيطين، حيث كان التنقل عماد نشاطهم البشري المتنوع، فبدءوا ببناء مواقع متفرقة على الطرق والنقاط الجغرافية الهامة التي كانوا يجوبون محيطها، ومثالنا الأهم على ذلك هو موقع " تل دبة بريكة" في محافظة السويداء، الذي يعطينا مثالا عن عمارة الأنباط المبكرة، حيث تم الكشف عن معبد وبناء إداري وبرج حراسة وثكنة عسكرية، ولقد بني المعبد بالحجر الغشيم دون استخدام المونة وأقلوا من الفتحات والنوافذ زيادة في تحصين البناء(٥٤).

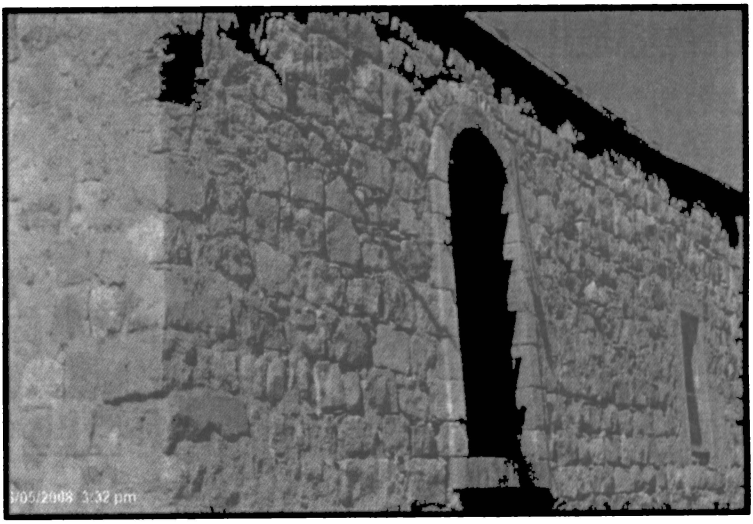
ومن المؤكد أن بعض الأنباط جعل من هذه الأبنية بيوتا دائمة بعد أن قاموا بتوسيعها، وقد لاحظنا أن بعض هذه الأبنية اشتمل على طابقين بعد أن جرى تعزيز السقف الأول بالملاط المدعم إما بالأخشاب أو بالحجارة المرصوصة، وبعض هذه الأبنية اشتمل على عدد من الحجرات والمرافق أيضا كغرف التخزين وحجرة الحيوانات والمستلزمات الزراعية. ومن المرجح أيضا أن مثل هذه الأبنية التي ظلت تستخدم حتى وقت قريب كمراكز تجارية أو خدمية كانت قد عرفت لدى الأنباط وهم يقدمون كل احتياجات القوافل التجارية والمسافرين والمتنزهين في أطراف الريف وعمق الصحارى، وبما أن القوافل التجارية كانت تسير وفق مواسم وطرق محددة،

كرحلة الشتاء والصيف التي كانت لتجار قريش، فإن هذه الأبنية البسيطة كان من السهل إشغالها في بعض المواسم وهجرها في مواسم أخرى إذا ما تطلب الأمر ذلك، بل إنه كان من السهل على البعض استخدامها في النهار وإفراغها في الليل بعد أن ينقل حاجياته منها لمكان آمن ثم ليعود لمباشرة عمله أو تجارته في النهار التالي، ومثل هذه الفرضيات تصدق على الكثير من الخدمات غير التجارة، **ومنها مثلا:** الخدمات المتعلقة بالحيوانات كحذو الخيول والبغال والحمير التي كانت ترافق التجار، ومنها أيضا إصلاح معدات القوافل التجارية وترميمها كالبرادع والسرج والمقادم وغيرها من الأعمال المهمة للحيوانات المصاحبة للتجار وربما البيطرة أيضا. ومما يعزز مثل هذه الفرضيات، أن الأنباط كانوا قد قاموا بكل ما يمكن القيام به لنجاح التجارة عبر بلادهم وازدهارها، وقد وفروا الأمن فوق كل الخدمات الأخرى، وإن ظاهرة المخربشات الكثيرة التي يعد المكتشف منها بالآلاف في اطراف الصحراء وطرقاتها ليسهل تفسيره إذا ما قبلنا فرضية انتشار الأبنية الحجرية المؤقتة أو المبسطة هذه، فإن أصحاب هذه الأبنية كان لديهم ما يكفي من الوقت والاحتكاك لتعلم الكتابة وللقيام بتسجيل هذه الذكريات على الحجارة جنبا إلى جنب مع تجار القوافل ومع محصلي ضرائب الدولة الذين ربما انتشروا أيضا في ربوع البلاد لتحصيل ضرائب الأنعام والمحاصيل.

٤-٢: البيوت الحجرية المطينة:

ثمة نمط آخر من الأبنية البسيطة التي لاحظناها في المنطقة، وهي أبنية غالبا ما تكون من حجرة بسيطة واحدة أو حجرتين متلاصقتين أو ثلاث متلاصقات، وقد بنيت من الحجارة الغشيمة أو بعد معالجة بسيطة، لكنها تمتاز عن النمط الأبسط بعد أن جرى تعزيزها بالملاط الطيني من الخارج أو من الداخل أو من كليهما، وفي بعض الحالات كان يجري سقفها بالملاط الطيني أيضا بعد تدعيم السقف بالأخشاب أو بالحجارة المرصوصة بإحكام على شكل قبب أو أقواس، وهذه الأبنية لم تكن من بقايا الأنباط بالتأكيد، فهي من نتاج مراحل متأخرة جدا، وربما كان معظمها من بقايا القرن العشرين والنصف الأول منه على الأرجح، لكن النمط المعماري ينبيء بما درس من

أنماط كانت معروفة للسكان الأوال، ثم ما تفرضه البيئة ثانيا من خلال مقدراتها ومناخها وغير ذلك من الخصائص.



منزل مختلط الأساليب من بلدة الكرك القديمة (مؤاب)من أواخر القرن التاسع حتى بداية القرن العشرين، حجارة غشيمة وشبه مهذبة وحجارة مدقوقة حول النوافذ، وسقف مختلط من الخشب والقصب والطين- تصويرالباحث

وهذا النمط من البناء لا تزال بقاياه منتشرة في بعض القرى أو الأرياف البعيدة عن مراكز القرى، ومن المحتمل أن مثل هذا التطور كان أساسيا في التحول من نمط البداوة أو نصف البداوة إلى النمط الزراعي الدائم، لأن مثل هذه الأبنية كانت مناسبة لاستقرار دائم خلال الصيف والشتاء، وأصحاب هذه الأبنية غالبا ما جعلوا لها أبوابا محكمة من الأخشاب، وأقاموا من حولها بعض المرافق، وبعض هذه المرافق وصل في البناء الأساسي، كحجرات التخزين، وحجرة الدواب، وحظيرة جانبية للأغنام، وقد تكون حظيرة الأغنام مغارة تحت البناء أو بجانبه أو قريبا منه، ومثل هذا البناء كان يقام في أطراف المناطق الزراعية أو في القرى الصغيرة الناشئة، وذلك يعتبر مرحلة انتقالية لاستقرار دائم، وفيه كذلك الجمع بين العمل الزراعي وتربية الماشية، وفي بعض المساكن من هذا النمط، أقيمت ساحات داخلية للبناء.

والسمة الأساسية أن أصحاب هذه الأبنية قد غادروا البداوة وصاروا أقرب إلى النمط الفلاحي أو الريفي، فالزراعة هنا هي الأساس، وتربية الماشية هي من ملحقات العمل الزراعي.

وإذا ما علمنا أن الأنباط أجادوا العمل الزراعي أيما إجادة، وأنهم فوق ذلك طوروه بعد أن توارثوه عن أسلافهم الأدوميين، فإنهم لا بد من أنهم انتشروا لبناء مستوطنات من هذا القبيل في أطراف الوهدات الزراعية، وأن قسماً كبيراً منهم قد تحول عن نمط العيش البدوي بعد أن صار للزراعة عائد تجاري مجزٍ ما دام الناتج الزراعي أصبح سلعة سهلة التسويق بفضل استمرار ازدهار التجارة فترة طويلة من الوقت. وتقوى هذه الفرضية بعد الاحتلال الروماني للبلاد وتحويل طرق التجارة إلى بصرى الشام مما قلل من أهمية العمل التجاري الذي كان النشاط الأهم للأنباط.

وقد كشفت الحفريات الأثرية في العديد من المناطق عن مستوطنات زراعية واسعة، ومن ذلك مستوطنات وادي موسى قرب البتراء التي تحيط بمنطقة " الجي " وقد عثر فيها على معاصر الزيتون بكثرة ثم معاصر العنب لإنتاج الخمور إضافة إلى إتقان الأنباط هندسة المصاطب الزراعية التي جعلتهم يعملون على استغلال كل ما يمكن استصلاحه من الأرض لأجل الزراعة(٥٥).

ومن الخصائص المعمارية لهذه الأبنية أنها بنيت من الحجارة الغشيمة غالبا، وفي بعض الحالات كان يجري تحضير أو تشذيب بعض قطع الحجارة الأساسية مثل (القمط – جمع قمط) وهي "الأسكفة – جمع سكف" التي هي سقف الأبواب والنوافذ، وكذلك " العتبة " وهي عبارة عن حجر مستطيل مشذب يوضع في أرضية الباب، ومثل هذه القطع المشذبة ضرورية ليغدو إحكام إغلاق الأبواب والنوافذ ممكنا. وبخصوص النوافذ والأبواب فهي غالبا ما تكون صغيرة وقليلة العدد ومرتفعة، وعلى الراجح فقد غطيت بألواح من الأخشاب، وليس لدينا أية بقايا أثرية من الفترة النبطية لهذه الأبواب، لكننا نعرف تمكن الأنباط من الصناعات الخشبية من خلال تمكنهم من صناعة السفن التي مخروا بها عباب البحار خصوصا البحر الأحمر. ثم من خلال التوابيت الخشبية التي وجدت بحالة جيدة في مقبرة صلخد في محافظة السويداء(٥٦) ثم من خلال ما

استدل عليه من مسامير حديدية وخشبية وجدت في بعض القبور في خربة الذريح وغير ذلك من الدلائل[٥٧]. وعرف أيضا عن الأنباط قدرتهم الفائقة في التعامل مع الحجارة والبازلتية منها، فقد وجدت ألواح كبيرة من الحجارة البازلتية التي استخدمت كأبواب أو نوافذ، ويبدو أن ذلك أصبح ممكنا في فترة متوسطة من حضارة الأنباط. أما بخصوص الأرضيات، فهي غالبا دكة ترابية يجري تحضيرها بعد خلط التربة الحمراء بكميات من القش أو التبن المتوفر في البيئة، وبعد خلطها بالماء وربما الحصى الصغير، يجري تسويتها في أرضية الحجرة ومن ثم يجري دكها من خلال حجارة اسطوانية يعمل على تمريرها فوق الدكة مرات عديدة، وللقش الذي تخلط به التربة فوائد حيث تزيد تماسكها، ويعمل كذلك على العزل الحراري صيفا وشتاء.

٥-٢: البيوت الطينية الخالصة:

يمتاز هذا النمط من البناء باعتماده على الطين المحلي بالدرجة الأولى، وهو من أكثر أنماط المساكن المبنية بساطة وتواضعا وأقلها دواما لافتقادها إلى مواد الدعم الأساسية، وعادة ما كان يجري الالتجاء إلى أنواع التربة الزراعية خصوصا الحمراء لبناء هذه المساكن، وكان يجري خلط التربة ببعض المواد المحلية كالقش أو "التبن" المتوفرين في المناطق الزراعية، أما استخدامات مثل هذه المنازل فقد انتشرت في المناطق الزراعية لفقراء المزارعين والأقنان الذين توارثوا هذه المكانة كابرا عن كابر منذ أزمان بعيدة. وقد عرفت منطقة غور الأردن بمثل هذا النمط أكثر من غيرها من المناطق، وقد وجدت أيضاً مثل هذه المساكن في بعض المناطق الجبلية ونادرا ما كانت معروفة في المناطق الصحراوية لعدم ملاءمة تربتها لمثل هذا البناء.

ومن الناحية التاريخية، فقد عرف مثل هذا النمط في تل دير علا (الأغوار) وخلال العصر الحديدي في القرنين الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد، وعثر في

هذا الموقع على بيوت كانت مبنية من اللبن، كما هو حال المباني التي بنيت في منطقة الأغوار منذ أقدم العصور، حتى قبل ما يقارب الخمسين عاما[٥٨]. وعلى الأرجح إن اللبن المشار إليه لم يكن ليشوى في أفران مثلما هي العادة عند بعض الشعوب التي كانت تستخدم هذا النمط من البناء، بل كان من النوع "النيء" وفق ما خبرناه في تاريخ المنطقة، وكان يجري أحيانا بناء الجدران أولا بأول، أي دون تحضير قوالب "اللبن"، وقليلا ما كانت الأخشاب تستخدم في تدعيم الجدران وإن كانت تستخدم في تحضير السقوف والأبواب والنوافذ الصغيرة الحجم عادة. ويلاحظ كذلك أن الوحدات السكنية من هذا النوع كانت تتألف من حجرة واحدة أو عدد قليل من الحجرات دون الاهتمام ببناء مرافق واضحة مخصصة كالمطبخ أو الحمامات وغير ذلك.

في المناطق الزراعية الجبلية كانت مثل هذه المساكن تبنى لأغراض السكن المؤقت لاستخدامها خلال مواسم العمل الزراعية، وبنيت أيضا كمرافق بجانب المنازل وفي ساحاتها لإيواء الحيوانات أو كغرف تخزين أو حجرة لطابون الخبز وغير ذلك، وأتوقع أن بعضها استخدم أيضا بشكل مؤقت خلال المواسم التجارية لتلبية حاجيات الطرق التجارية أو لأغراض حكومية لإيواء بعض موظفيها الموسميين كرجال الأمن والجمارك.

الملاحظة الأخيرة أن غالبية هذا النمط من البناء جاء قليل الحجرات، وربما اقتصر على حجرة واحدة فقط، مع وجود مساكن أقل ذات حجرات متعددة وساحة وسطية أو أمامية مما يعني أن هذا النمط كان حاجة لبعض العائلات الزراعية النووية غير المستقرة، ومن المحتمل أن بعضا من هذه العائلات نجح في الاستقرار طويلا ليبني أسرة ممتدة أكثر تطورا من سابقتها. إذ بدأ مثل هذا النمط ينتشر في العصر الحديدي الثاني (٩٠٠-٧٠٠ ق.م)، ويؤشر وجود الساحات إلى قيام الأسرة بأعمال منتظمة كأعمال الطبخ والنسيج، وبعض هذه الساحات كان مسقوفا[٥٩]. مما يدلّ على استيطان طويل المدى لا استيطان موسمي.

٦-٢: البيوت الحجرية المهندسة، أبنية عامة، معابد، مساكن:

لقد آثرنا أن نتأخر في استعراض هذا النمط المعماري على أهميته قياسا إلى الأنماط الأخرى الأقل تطورا وذلك لسببين: أنه جاء لاحقا للأنماط الأخرى، أي أنه مرحلة متطورة من الفن المعماري النبطي سبقته الأنماط الأخرى من الناحية الزمنية، ثم إن هذا النمط المعماري احتل - في حقيقة الأمر- جل اهتمام الباحثين والدارسين ومنقبي الآثار نظرا لروعته الفنية التي جعلته العنوان الوحيد لعمارة الأنباط بل، لمجمل حضارتهم، وإن في ذلك بعض التجني على حضارة الأنباط التي امتازت بالتنوع والغنى في الناحيتين المعمارية والروحية.

وإيفاء هذا النمط من أنماط المعمار النبطي ليس بالأمر اليسير في معالجة جزئية، وعلى الرغم من أن الكثير من الدراسات والأبحاث ركزت على هذا الجانب من حضارة الأنباط، إلا أنه ما يزال بحاجة إلى المزيد بعد أن ظلت مناطق واسعة ومهمة دون إجراء المسوحات والحفريات الأثرية، ومن ذلك بعض المناطق في الأردن وفي البتراء تحديدا كما فهمنا، وفي السويداء وخربها وقراها في سوريا، وكذلك في منطقة " الحجر" مدائن صالح في المملكة العربية السعودية.

وإنه أصبح من الواضح أن مدينة البتراء أضحت العنوان الوحيد لهذا الفن المعماري الرائع، لكن ذلك لم يكن ليلغي الروائع الأخرى من فن المعمار النبطي خصوصا في "الحجر" وفي "النقب" وفي "السويداء" وفي مناطق أخرى متفرقة من جنوب الأردن تحديدا.

وقد أظهرت دراسة (الخطاطبة، ٢٠٠٦) أن مساكن الأنباط كانت استمرارا طبيعيا لمساكن العرب في الشرق الأدنى الغني بموروثاته المعمارية التي كانت نتاج خبراته واحتياجاته وتفاعله مع محيطه ومع الحضارات والثقافات التي احتك بها طواعية أو قسرا، أخذ منها ما يناسبه وطوره بأسلوبه وصبغه بلونه، فتكونت له ثقافته التي تميزه بين الأمم. وقد ميزت الدراسة بين فترتين أو مرحلتين لبناء المساكن: الأولى هي الفترة الممتدة من نهاية القرن الأول قبل الميلاد إلى منتصف القرن الأول الميلادي، وهي المساكن الواقع معظمها في منطقة جنوب الأردن، في البتراء وخربة

الذريح والحميمة والعقبة (إيلة) وفي الحجر شمال غرب المملكة العربية السعودية. أما الفترة الثانية فهي الفترة الممتدة بين منتصف القرن الأول الميلادي إلى بداية القرن الثاني الميلادي. وعادة ما يجري تقسيم أنماط العمارة النبطية على النحو اللاحق حيث فضلنا استعراضه مستقلا عن أنواع المساكن والأبنية[٦٠].

ثالثًا– أنماط العمارة النبطية وسماتها المعمارية:

أولاً– أنماط العمارة وسماتها المعمارية:

أ– العمارة الدينية:

هي العمارة المتمثلة بالمعابد النبطية، وتمثلها عدة نماذج معمارية بنيت لتناسب طقوس العبادة، وأهمها:

١– **المعبد الكبير في البتراء**: وتضمن مسرحا صغيرا ومدرجا وقاعات مستطيلة.

٢– **المعبد الثلاثي**: يتكون من أقسام ثلاثة أمامي وأوسط وداخلي أو "قدس الأقداس"، ويمثله قصر البنت في البتراء ومعبد – القصر في الربة بجوار الكرك، ومعبد "روافه" شمال تبوك.

وإذا ما تفحصنا معبد "قصر البنت" أو "قصر بنت فرعون" كما يسميه الناس، عرفنا أن هذا المعبد كان مخصصا لواحدة من الآلهة الرئيسية، ويجادل البعض أن هذه الآلهة هي "اللات" فيما يعتقد آخرون أنها "العزى"، ورأى آخرون أنه للإله الأعلى "ذو الشرى"، وكان من المثير للنقاش علاقة هذا المعبد بالإلهة "إيزيس" المعبودة المصرية، وكان ذلك من الظواهر المستغربة[٦١].

ويمكن اعتبار "بناء الخزنة" من هذا النمط من المعابد إذا صح أنه معبد وليس شيء أخر، ولأن معبد الخزنة من أهم المباني المنحوتة في الصخر وأروعها، **فلا بأس في وصفه باختصار**: أجمل ما في هذا الأثر واجهته الرائعة التي حفرت في الصخر، فظل الصخر من حولها طبيعيا وبارزا عن النقش، تبلغ واجهتها ٩٢ قدما، وارتفاعها حتى نهاية الجرة، أعلى نقطة فيها ١٣٠ قدما، وأغرب ما في الخزنة اشتمالها على أعمدة كورنثية، وهذا ما يقوي الافتراض بأن الذين بنوها كانوا معماريين غرباء. يتقدم

الواجهه ستة أعمدة ضخمة تعلوها التيجان الكورنثية، وهي ترتفع لما يقرب من ٤٠ قدما، ويوجد فوقها جملون (شكل فني مثلث قاعدته ترتكز على الأعمدة) وهو غزير الزخارف الهندسية والفنية، وأضلاع هذا المثلث عبارة عن خطوط على شكل كورنيش، وفوق هذا الشكل تبدو الرائعة الفنية الأخرى التي تبدو كواجهة قصر يتقدمها أيضا أعمدة ستة برزت من الصخر دون أن تنفصل عنه، وكل عامودين اثنين من هذه الأعمدة يشكلان وحدة فنية وتعبيرية مستقلة، إذ يقع بين كل عامودين شكل فني بارز، وللأسف لم تعد معالم هذه التماثيل محققة تماما، لذلك افترض البعض أنها تمثل صور بعض الآلهة، ومنها الإله "إيزيس" في الوسط، وفي الوقت الذي تكون فيه الأعمدة الأربعة الجانبية أشكالا هندسية هي أقرب إلى المستطيلات الرأسية، ويتوسط هذين الشكلين الشكل "المركزي" الذي يقع بين العامودين الثالث والرابع، ويمتاز هذا الشكل باستدارته الاسطوانية، وعلى هذه الاسطوانة يبدو ما يعتقد البعض أنه الإله "إيزيس"، وتعلو الأعمدة أطر وأفاريز غاية في الدقة والجمال، وفوق هذه الأفاريز تتموضع "الجرة" التي أعطت البناء كله اسمها. أما بخصوص داخل البناء فهو الأقل أهمية مثلما هي معظم أبنية البتراء المنحوتة، فإنه يتألف من أربع حجرات: الوسطى - الكبرى وهي بمساحة أربعين قدما، وفي الصدر منها حجرة صغيرة لا تعكس أية أهمية، وعلى جانبي الحجرة الكبرى يتفرع بابان يفضيان إلى حجرة يمنى وأخرى يسرى، ولا شيء مهم يمكن أن يلفت النظر في هذه الحجرات باستثناء القليل من الزخارف في الغرف الجانبية الصغيرة، أما الغرفة الوسطى فهي خالية من أي زخارف، ولا يزال إزميل النحاتين باديا فيها بخشونة واضحة، ويهيأ لي أحيانا أن البناء لم يكتمل بعد من الداخل على الأقل، إذ عرف عن الأنباط اهتمامهم بقصارة الجدران الداخلية من خلال الملاط الملون أو الملاط الأحمر، وعرف عنهم مهارتهم في تزيين الجدران أيضا بالفريسكو. لكن تقديرات الأثريين لتاريخ البناء تدور حول عصر الإمبراطور هدريان، أي حوالي عام ١٣١ ب.م، ويفترض بعض الأثريين أنها معبد للربة مناة، وأقيم في رأي آخرين للعزى ،وذهب فريق ثالث إلى أنه معبد - ضريح لأحد ملوك الأنباط. وما كل ذلك إلا تخمين لا يستند إلى براهين حاسمة[٦٢].

٣- **المعبد الصندوقي:** وهو على شكل صندوق وشكله مربع وتحيط به الممرات وله بعض الغرف الطقسية الملاصقة من الخارج مثل معبدي "التنور" و"وادي رم".

٤- **المعبد ذو المصطبة المركزية:** وهو قريب الشبه بالمعبد الصندوقي، ويتكون من ساحة أمامية تؤدي إلى ساحة مربعة في وسطها مصطبة للتقدمة، وربما وضع عليها المعبود. وأهم نماذج هذا النمط معبدا "الذريح" و "الأسود المجنحة"(٦٣).

٥- وهناك أنواع أخرى من المعابد البدائية مثل المعليات كالمذبح الكبير في البتراء على رأس الجبل، وهناك رموز وإشارات كالأنصاب وهي حجارة على شكل مسلة أو شكل غير منتظم، يعتقد أنها كانت تمثل مراكز عبادة للأنباط، ومن المحتمل أنه كانت هذه المراكز تمثل المرحلة المبكرة من استقرار الأنباط، ولكنهم مع كل التقدم الذي حصلوه في العمران لم يتخلوا عن هذه المراكز لقيمتها الدينية.

ب: العمارة السكنية:

تكونت عمارة الأنباط السكنية من فئات عدة، هي:

١- **فئة القصور**، كتلك التي في البتراء (الزنطور) ووادي موسى (الجايه) والذريح (القصر) وعبودة في النقب (فيلا كولت) وقصر إثرة (السعودية). وكانت هذه المساكن فارهه جدا لتفي بمتطلبات فئة ميسورة من المجتمع النبطي، ولعلها فئة كبار التجار وكبار رجال الدولة، وتتضمن هذه القصور العديد من الغرف المتعددة الاستخدامات، فمنها ما هي للجلوس وأخرى للنوم وأخرى للخدمات كالمطابخ والحمامات الفارهة وغرف التخزين، واشتملت هذه القصور على نظام مائي متطور يتناسب وفخامة البناء، وتعتبر البتراء أو وادي موسى أهم الأمكنة لهذا النوع من البناء.

٢- **المساكن الكبيرة (الفيلا):** انتشرت هذه المساكن في جنوب الأردن في المدن والقرى النائية، وقد احتوت على الأقسام المختلفة، فقسم للاستقبال وآخر للخدمات وقسم خاص بالعائلة. وشبكة المياه الصحية أمر ضروري في كل

المباني النبطية، وهي بالضرورة تمتلك بئرا أو أكثر لتخزين مياه الأمطار أو الينابيع. ومن هذه الآبار يتزود المسكن بمياه الشرب والاستخدام اليومي.

٣- **فئة مساكن المزرعة (الريفية):** والمسكن عبارة عن مجمع كبير يضم وحدة سكنية ومخازن وإصطبلا وساحات متعددة، مثل قصر "كرنب" في النقب. ومن هذا النوع من المساكن ما وجدو في الحميمة وكان مؤلفا من ثلاث أو أربع غرف حول ساحة مكشوفة، وقد زين بزخارف بسيطة، ويعكس حال الطبقة الريفية المتوسطة ماديا واجتماعيا.

٤- **فئة المساكن البسيطة:** تشكل غالبية مساكن الناس، كالتي في الحميمة. وهي عبارة عن غرفتين أمامهما ساحة مكشوفة ويعكس هذا النوع مساكن المزارعين البسطاء وحالتهم الاجتماعية والاقتصادية.

٥- **فئة المساكن ذات الصفة العامة:** وهي التي كانت مصممة لخدمة الكهنة وزوار المعابد / كالتي في وادي رم وفي الذريح.

ج- العمارة العامة:

ومباني مدينة البتراء خير مثال على هذا النوع من المباني باعتبارها المدينة العاصمة التي تضم جميع أنماط المباني العامة إضافة للمباني الخاصة.

المباني العامة: وبنيت هذه المباني وفق مخطط المدينة العام كما يشاهد في البتراء، حيث الشارع الرئيس الذي تأثر بمخطط المدينة الرومانية. إذ أن الشارع يكاد يقسم المدينة إلى نصفين، وهو يحاذي الوادي مما اضطر المهندس النبطي لبناء بعض القنوات تحت أرض الشارع وكذلك العبارات والأقواس الحجرية التي ترتفع عن سيل الوادي في فصل الشتاء، ولا يزال بالإمكان ملاحظة بعض آثار هذه المرافق في الشارع الرئيسي بعد الانتهاء من ساحة الخزنة.

١- **المسرح:** يقع على الشارع الرئيسي في البتراء وهو مقطوع في الصخر ومؤلف من أربعين صفا من المقاعد، بحيث يتسع لحوالي سبعة آلاف مشاهد، وأكملت المناطق المحفورة بالبناء العادي، خاصة أقبية المداخل، كما بنيت بالكامل خشبة المسرح وخلفيتها(٦٤)، وفي منطقة سيعا بجنوب سوريا عثر على

بقايا خرائب نبطية منها مسرح صغير ومعبد مخصص لذي الشرى وغير ذلك من نقوش وكسر زخرفية(٦٥).

٢- **المسبح:** يقع بجانب المعبد الكبير للبتراء من الجهة الشرقية، ويؤرخ هذا المسبح لنهاية القرن الأول قبل الميلاد(٦٦).

٣- **الحمامات العامة:** تقع جنوب البوابة الثلاثية في البتراء.

٤- **النافورة:** تقع على الشارع المعمد في البتراء، ولم يبق منها إلا جزء قليل.

٥- **المخازن التجارية:** وهي مبنية على الشارع المعمد في البتراء وتعود إلى القرن الأول الميلادي، مما يدل على وجود أسواق تجارية وسط المدينة.

د- العمارة الجنائزية:

اهتم الأنباط اهتماما كبيرا بمقابرهم مما انعكس في عمارتها التي حشد فيها الكثير من الفنون المعمارية والفنية ومما يوحي باهتمام الأنباط "بالحياة الآخرة" بالنسبة للأموات بخلاف ما كان شائعا عنهم من خلال ما قاله سترابو عن عدم اهتمامهم بجثث موتاهم، حينما قال أن الأنباط ينظرون للميت نظرتهم إلى النفايات، ولذلك فهم يدفنون موتاهم حتى ملوكهم بجانب أكوام النفايات(٦٧)، غير أن الظاهرة الأبرز في حضارة الأنباط - أو بالأحرى في عمارتهم - كانت المقابر ثم المعابد الدينية، والظاهرة البارزة في هذه المقابر إضافة إلى معمارها الرائع والمتنوع هي اشتمالها على عبارات اللعنات والتحذيرات التي تحرم تدنيس المقبرة أو فتحها أو استخدامها بغير وجه حق(٦٨)، ومن المحتمل أن هذا الاهتمام جاء متأخرا أو سبقته مرحلة أخرى هي التي أشار إليها "استرابو" من عدم اهتمام الأنباط بمقابر موتاهم. تتمثل هذه العمارة بالواجهات الصخرية المنحوتة في البتراء والحجر وكذلك مغائر شعيب، والعمارة المبنية بالحجارة المقطوعة من الصخر، ويظهر هذا النوع من العمارة براعة الأنباط المعمارية في الأخذ ببعض المظاهر المعمارية لدى الأمم التي تعاملوا معها من غربية وشرقية بأسلوب يتفق مع مفاهيمهم التراثية، فأنتجوا إرثا حضاريا ومعماريا متميزا،

ويمكن تقسيم هذا النمط من العمارة إلى قسمين:

أ - **عمارة المقابر المنحوتة:** وهي أكثر ما أشتهر عن الأنباط، وقد أجريت عليها العديد من الدراسات المتخصصة أظهرت " أن المهندس النبطي جمع بين التأثير المصري والأشوري والفارسي مع الذوق النبطي(٦٩)، ويمكن مشاهدة الكثير من هذه القبور في أماكن مختلفة من البتراء وما حولها وخصوصا في الطريق قبل الوصول إلى السيق، **ومن قبور البتراء الشهيرة:** قبر "المسلات" وقبر "الجرة" و "القبر ذو النوافذ" ويحار المرء في ضخامتها وفنونها الجميلة حتى ليعتقد أنها واجهات قصور سكنية، وثمة روائع فنية يمكن ملاحظتها في هذه القبور وكذلك قبور مدينة الحجر في الأراضي السعودية.

ب - **المقابر المبنية بالحجر المقطوع:** وهذا النمط من المقابر يظهر تنوعا يدلل على تطور عمران القبور، فمنها نمط جماعي على شكل بئر في عمق الأرض، ويتكون البئر من عدد من الطاقات أو الحجرات المخصصة للدفن، وتأتي هذه الحفرات بعضها فوق بعض أي على شكل طبقات، وسميت هذه الحجرات أو الطاقات "جوحا"، ويمكن أن يقسم بين عدد من المالكين بواسطة عدد "الجوحيات" أو "الجوحيم"، وثمة تقسيم أخر يعتمد على الياردات، أو بالحصص "الفلج"(٧٠).

أما بخصوص القبور المبنية، فهي غالبا حفرات بني فيها الحجر الجيري الجيد التشذيب، وهو غائر أو مطمور في الأرض كأنه البئر، ومنها ما هو فردي ومنها ما هو جماعي، والجماعي يتألف من عدد من الحجرات في الجوانب، وهذه القبور الفردية منها والجماعية تتميز بدقة البناء وغطيت من الأعلى بعدد من البلاطات الحجرية(٧١).

أما بخصوص الفنون والزخارف للمقابر، فبقائها دون أية زخرفة هو الطابع العام، كذلك فإن الرموز المصاحبة لهذه الأضرحة تكاد لا تتغير فهي الصقر والجرة والقناع الآدمي، وتشذ هنا "الخزنة"، (هذا إذا كانت ضريحا في الواقع)، وفي داخل غرف الضريح تكاد الزخرفة تكون معدومة(٧٢)، مما يعكس أيضا روح البساطة وربما نظرة الأنباط لمفهوم الدنيا الآخرة.

ثانيا- السمات العامة للعمارة النبطية:

أ- من حيث المواد المستخدمة في البناء:

استخدم الأنباط العديد من المواد حسب توفرها في البيئة، فبالإضافة إلى نحت الصخور الرملية والكلسية وجعلها مساكن ومنشآت وقبور وتماثيل وغيرها، فقد تم استخدام كل أنواع الحجارة في البناء النبطي حيثما فرضت البيئة ذلك، ففي الصحراء مثلا، جرى استخدام الحجارة البازلتية السوداء لمختلف أغراض البناء، ويظهر ذلك في آثار "أم الجمال" وفي السويداء وصلخد، وفي "إيلة" وأبنية جبال الشراة عموما، كخربة الذريح جرى استخدام الحجارة الكلسية الأقل قساوة من الحجر البازلتي ولكنها أصعب في التعامل من حجارة البتراء ومدائن صالح الرملية، ومع ذلك فإن بوسع المرء ملاحظة استخدام العديد من أنواع الحجارة في البناء الواحد، ففي معبد القصر - الربة، بني البناء إجمالا بالحجر الكلسي الذي لا بد أنه قطع من أماكن قريبة، وثمة أحجار بطول مترين أو يزيد وبعرض ثمانين سنتيمترا وسماكة ٤٠ سنتيمترا تقريبا، وتجد في الوقت نفسه حجارة بازلتية بحجم ٨٠× ٢٠× ٤٠ أو أكثر أو أقل، ويبدو أن هذه الحجارة جلبت من شمال المنطقة التي تنتشر فيها الحجارة البركانية بالقرب من وادي الموجب.

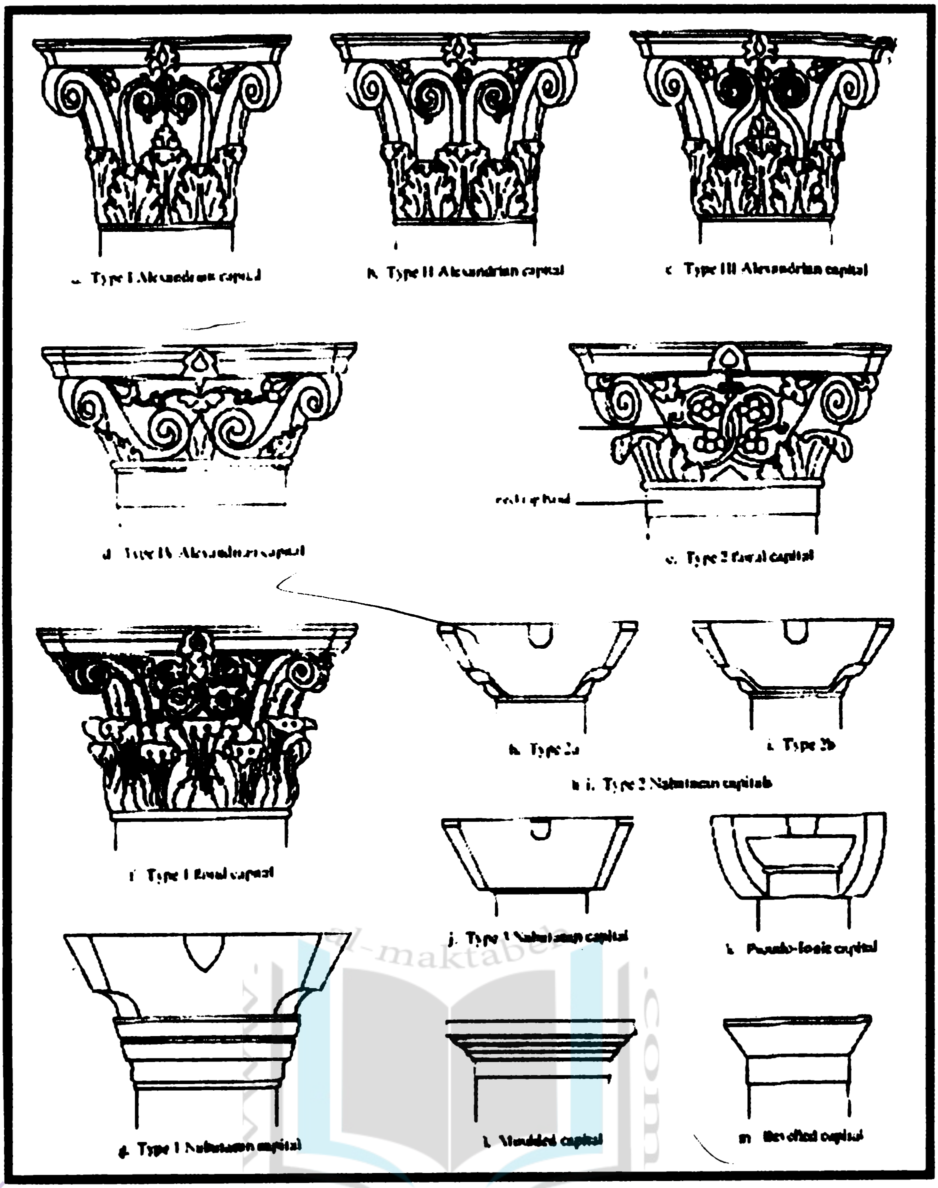
وبالنسبة للحجارة أيضا فقد استخدمت أشكال مختلفة من الحجارة في البناء كما في معبد القصر- الربة، فبالإضافة إلى الحجارة المنقوشة والمهندسة بعناية بأشكال مختلفة، فإن الحجارة الغشيمة والصغيرة غالبا ما كانت تستخدم بين صفين من الحجارة المهندسة، ومن الواضح ايضا أن الملاط الذي يعتمد على التربة المحلية كان يستخدم "مونة" بين صفوف الحجارة الكبيرة، ومن شأن هذا تحسين قدرة الجدران على العزل الحراري إضافة إلى عزل الرطوبة والأمطار.

وفي معظم الأبنية الكبيرة كالمعابد استخدمت فنون معمارية كثيرة منها الأقواس الكبيرة والصغيرة التي تعتمد على تراص الحجارة لا على المونة أو الدعم الأرضي بالأعمدة، وفي بعض الحالات جرى سقف بعض الأبنية أو الحجرات بصفوف

متلاصقة من هذه الحجارة قبل أن تجري تغطيتها بالملاط الطيني من فوقها لدرء أمطار الشتاء ولعزل حرارة الصيف أيضا.

وبخصوص الملاط، استخدم الأنباط الملاط في معظم أبنيتهم المهمة أو الكبيرة، وليس لدينا تحديد دقيق لمكونات هذا الملاط لكنهم بالتأكيد عرفوا الملاط الذي يتكون من الشيد أو الجير، وكان بالإمكان تحضير هذا الجير من خلال حرق الحجارة بواسط "اللتونات" جمع "لتون"، وثمة تقديرات بأن الأنباط عرفوا هذه العملية في أوقات مبكرة، وتشهد التوراة على أن "مملكة عمون مثلا" كانت تصدر الجير ولذلك جاء وفد من العبرانيين يطلب قدرا منه لإعادة بناء الهيكل في الفترة الفارسية، أي أواسط القرن السادس قبل الميلاد. خلطة المونة هذه يبدو أنها اعتمدت على الجير بالدرجة الأولى ولذلك لا زالت بقايا هذا الملاط متماسكة في الكثير من الأبنية ومنها قصر – الربة. وبالإمكان أيضا مشاهدة هذه المونة التي استخدمت في قصارة بعض الأبنية والآبار والخزانات المائية كخزان "الحميمة"، وثمة شواهد كثيرة من المساكن النبطية في النقب تدل على متانة بنائها ومتانتها، إذ أنها بقيت صالحة ومسكونة حتى القرنين الخامس والسادس الميلاديين، وأضيف عليها صلبان مثل تلك التي عثر عليها في كرنب، حيث نقش أكثر من صليب على عضادات الأبواب وبعض الأسكفة(٧٣).

وبالنسبة للمواد الأخرى المساعدة، فقد استخدمت الأخشاب في التسقيف وصناعة الأبواب والشبابيك، ويبدو ذلك في منطقة وادي موسى والبتراء بسبب توفر الأشجار في المنطقة(٧٤)، وثمة بعض الإشارات على أن جبال الشراة كانت غنية بالأحراج إبان مرحلة الأدوميين والأنباط من بعدهم، ويدل على ذلك وجود العديد من الحيوانات المفترسة كالأسود والنمور التي كانت تفضل العيش في هذه الأحراج أو الغابات. وتم الاستدلال على ذلك بالصور التي ظهرت في بعض الزخارف المعمارية. وعرف الأنباط استخداما آخر للأخشاب في البناء من شأنه تعزيز صمود الجدران أمام الهزات الأرضية، حيث عثر على بقايا تلك الأخشاب في بعض الأبنية منها بناء "قصر البنت" في البتراء.



أنماط متعددة من التيجان النبطية

المصدر: Mckenize.,Judith, The Architecture of Petra,1990,Newyork-oxford

ب- من حيث الفنون المعمارية:

من المتفق عليه بين دارسي العمران النبطي أن هذه العمارة عكست تأثير الحضارات المعاصرة بعد أن قام الأنباط "بتنقيتها" بعبقريتهم(٧٥) وأول هذه التأثيرات يأتي من الحضارة الهلينية (اليونانية) ثم الرومانية، وبدرجة أقل التأثيرات الفارسية إلى حد ما والفرعونية، وهذا ما دعى المؤرخ الكبير فيليب حتى لأن يقول: "كانت حضارة الأنباط عربية في لغتها، آرامية في كتابتها، سامية في ديانتها، ويونانية ورومانية في فنها وهندستها المعمارية، وهي لذلك حضارة مركبة، سطحية في مظهرها الهليني، ولكنها عربية في أساسها"(٧٦) حيث انعكست هذه الآثار في الفنون المعمارية النبطية في المعابد والمنشآت العامة والقبور وأنماطها... ومع ذلك فإن روعة الفن المعماري النبطي تمثلت في قدرة الأنباط على إبداع طابعهم المميز بين كل هذه المؤثرات المعمارية والحضارية القوية التي هاجمتهم من الشرق والغرب والشمال، وقد استطاع الدارسون الأثريون تمييز البصمات النبطية الخالصة في فنونهم المعمارية، بل إن هذه الفنون بدأت تؤثر في الحضارات الأخرى ومنها الحضارة الرومانية التي أخذت عن الفن المعماري النبطي بعض ملامحها، ويبدو ذلك في اقتباس الرومان أشكالاً فنية من واقع البيئة النبطية كشكل أوراق الكرمة وعناقيد العنب وثمرة الرمان وغير ذلك.

أما بخصوص النحت في الصخر الذي ميز العمران النبطي فقد كان للمهندسين والنحاتين الأنباط طرق وأساليب مدروسة بدقة في تخطيط أعمالهم وتنفيذها، فبعد اختيارهم للسطح الصخري المناسب، يقوم النحاتون بتسوية هذا السطح ليصبح لوحا أو سطحا يوضع عليه الرسم بعد إجراء الحسابات والتعديلات اللازمة، ثم يبدأ بتنفيذ العمل من أعلى هذا السطح بعد تثبيت "سقالات - جمع سقالة" في الواجهة، ويمكن مشاهدة النقور الصغيرة في الصخور التي كانت ترتكز إليها هذه السقالات في معظم الواجهات المنحوتة في البتراء وبالأخص في واجهة "الخزنة". ومن المؤكد أن النحاتين كانوا على درجات أو تخصصات، فبعضهم يقوم بتسوية السطح ليأتي المهندسون لتخطيط المبنى وحساب قياساته، ثم ليأتي النحاتون الآخرون الأكثر مهارة لتنفيذ الأعمال الأساسية، ثم ليختص الفنانون منهم بنحت التماثيل والأشكال الفنية المعقدة التي لا تنفذ

بغير الموهبة العالية والخبرة الطويلة في النحت، وقد عرفنا من خلال النقوش بعض الاسماء لهؤلاء منها البناء (بنيا) والنحات (فسلا)، والقصار، المهندس، الرسام..إلخ مما تناهى إلى معلوماتنا من خلال النقوش الكثيرة على واجهات القبور والأبنية، ويلاحظ أن النقوش التي وجدت على واجهات القبور كانت تشير إلى اسماء أصحابها دون ذكر اسماء عائلاتهم أو عشائرهم، وبدلا من ذلك فضل هؤلاء الإشارة إلى مهنهم التي تتعلق بالبناء والمعمار" كقولهم "هذا قبر البناء أو النحات فلان"، مما يشير إلى أن المهن المتعلقة بأعمال البناء والنحت كانت نوعاً من المكانة الاجتماعية التي يفتخر بها صاحبها، ولقد ذهبت (هتون الفاسي ١٩٩٣) إلى تفسير هذه الظاهرة بافتراضها أن الأنباط لم يعتمدوا الانتماء إلى قبائل وعائلات وحمائل، وهذا – برأينا – غير صحيح وسنناقشه في الفصل المتعلق بالمجتمع النبطي ومؤسساته الاجتماعية.

مراجع الفصل الثاني وهوامشه:

١- وليم ليبي وفرانكلين هوسكنر، ٢٠٠٥/١٨٣

٢- (Hammond.p.c.Nabataens,p6)

٣- Lawler ,Endrew,Reconstracting Petra ,Smithsonian,Jan 2007,vol,38 Issue 3,p42-49.8p.8c.

٤- المصدر السابق نفسه.

٥ -محمد خطاطبة ٢٠٠٦/ ١٣٩

٦- وليم ليبي وفرانكلين هوسكنر /١٧٧.

٧- هاردنج ١٩٧١/ ١٥٩

٨- إحسان عباس٢٠٠٧/ ٨٨

٩ -محمد خطاطبة ٢٠٠٦/ ١١٣

١٠ - صالح العلي، محاضرات في تاريخ العرب، ج ١، بغداد، ١٩٥٩.

١١- الدباغ: ج١، ق١، / ٦١٤

١٢- خيرية عمرو، التاريخ الاجتماعي لمنطقة البتراء وجوارها، تحرير: باسم الطويسي، مركز الأنباط للدراسات - البتراء، ٢٠٠٣

١٣ - خيرية عمرو، المصدر نفسه.

١٤ - محمد خطاطبة ٢٠٠٦/ ١٥٢

١٥ - Glueck.N,1940,p

١٦ - هاردنج ٢٠٠٦/ ١٨١

١٧ - هاردنج ١٩٧١/ ١٨

١٨- هاردنج ١٩٧١/ ١٨٣

١٩- Diodorus , 3,43,4

٢٠- Strabo 16,4.4.18

٢١ -محمد خطاطبة٢٠٠٦/ ١٦٠

٢٢ - Browning, Lain ,Petra,London,4th edition,1944. Chatto & Windus ltd-London)
٢٣- محمد الخطاطبة٢٠٠٦/ ٤٨
٢٤ - فوزي زيادين، ٢٠٠٥/ ١٠٥
٢٥ - فوزي الخطبا، الطفيلة: الانسان والتاريخ، ١٩٨٥/ ١٨٦-١٨٧
٢٦ - محمد خطاطبة، ٢٠٠٦/ ٩ عن (ابراهيم والطلحي، ١٩٨٨، ٥٧- ٥٨)
٢٧ - هتون الفاسي، ١٩٩٣/٢٠٠
٢٨ - سليمان الذيب، ١٩٩٨/٦
٢٩ - إحسان عباس،٢٠٠٧/ ٨٤
٣٠ - Hammond,Nabataens-1973,p 66
٣١ - هتون الفاسي، ١٩٩٣/١٠١-١٠٢
٣٢- An introduction to: Saudi Arabian ntiquities,Department of Antiquities and Museum.1975 A.D) ص ١٢٨
٣٣ - جارت بوردن، روبرت ميللر، كريستوفر ايرنز " التنقيبات الأولية في تيماء"، أطلال، عدد ٤، ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م. ص ٨١-١٢٧
٣٤ -محمد خطاطبة ٢٠٠٦/ ١٦٧
٣٥ - إحسان عباس٢٠٠٧/ ٨٠- ٨٥.
٣٦ - Starcky,op.cit.S.D.B,PP 904
٣٧- خليل المقداد، حوران عبر التاريخ، ط ١(دار حوران - دمشق)، ١٩٦٦. ص ٤٦
٣٨ - إحسان عباس ٢٠٠٧/ ٨٥
٣٩ - موقع www.swaidao.cm
٤٠ - موقع www.swaidao.cm
٤١ - احمد العجلوني، ٢٠٠٢/٢١٦
٤٢ - موقعwww.swaidao.cm
٤٣ - الدباغ، ج ١، ق١/١٢٢- ١٢٥

٤٤ - جيمس هدسون، جغرافية فلسطين المحتلة، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية - بيروت، ١٩٦٩ /٢٢

٤٥ - جواد علي، ج ٣/١٦-١٧

٤٦ - إحسان عباس ٢٠٠٧/ ٧٧

٤٧ -محمد خطاطبة ٢٠٠٧/ ١٨١

٤٨ -. Negev , 1997;63

٤٩ - خير نمر ياسين، ١٩٩٤/ ٥٥-٦٠

٥٠ - جواد علي، ج٥،/٧

٥١ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

٥٢ - Lawler,tndrew , 2007, 3,p42-49.8p.8c)

٥٣ - زيدان المحيسن ٢٠٠٧/ ٣٩-٤٠.

٥٤ - وليد جابر أبورائد، الآثار لنبطية في السويداء على ضوء المكتشفات الأثرية الجديدة، موقع السويداء www. Swaida.com

٥٥ - خيرية عمرو / المصدر نفسه.

٥٦ - Swaida.com

٥٧ - يونس شديفات، ١٩٤٤/٥٠

٥٨ - زيدان كفافي، ٢٠٠٦/٢٧٦

٥٩ - زيدان الكفافي، ٢٠٠٦/٢٨١

٦٠ - جل هذه المعطيات تم اقتباسها من دراسة: الخطاطبة، ٢٠٠٦ ٣٣٢-٣٣٦

٦١ - Hammond ,P.C " The tempge of the winged lions" PETRA rediscoverd ,Lost city of the Nabataeans,Editor,pp.223-229.

٦٢- إحسان عباس، ٢٠٠٧/ ٨٨

٦٣ - Hammond ,1975: 21

٦٤ - Hammond , 1973;52

٦٥ - إحسان عباس ٢٠٠٧/ ٨٤

٦٦ - Bedal ,L.A." Apool Complex in Petra,s Centre " BASOR,324,PP,23-41.2001)

٦٧ - Strabo ,16:4.20

٦٨ - يونس شديفات، ١٩٩٤ /٦١

٦٩ -محمد خطاطبة، ٢٠٠٦/١٠٧

٧٠ - احمد العجلوني، ٢٠٠٢/٢٢٥

٧١ - المحيسن، ١٩٩٦: ١٨٦- ١٨٧

٧٢ - إحسان عباس، ٢٠٠٧ / ١٤٢

٧٣ - Negev,1988, 122m126

٧٤ -محمد خطاطبة، ٢٠٠٦/ ١٦٦

٧٥ - Gluck,N.Deities and Dolphins,p 74

٧٦ - فيليب حتى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ترجمة: ادوارد جرجي وجبرائيل جبور، بيروت، ١٩٤٩. ص ٤٢٦.

الفصل الثالث

الديانات النبطية

الفصل الثالث- ديانات الأنباط:

مقدمة في الدين (العرب ودين التوحيد):

أولا- آلهة الأنباط:

ذوالشرى، اللات، العزى، مناة، بعل، شيع القوم، قوس، الكتبي، الدلفين، قيس، العبادة الملكية.

ثانيا- المعابد النبطية:

(رم، خربة التنور، الذريح، قصر البنت، قصر ربة، معبد بعل شمين، معبد السويداء، معبد بصرى، معبد سحر، معبد صور، معبد عبيدة، معبد الأسود المجنحة، معبد روافا، معبد تل الشقيفية (مصر)، معبد بتولي - إيطاليا)، معبد أم الجمال، معبد جرش، معبد ذيبان، معبد التوانة، أماكن تعبدية أخرى.

ثالثا- بعض المعتقدات والمفاهيم والشعائر الدينية النبطية:

١- تطور المفاهيم والمعتقدات والرموز النبطية.

٢- مفهوم الحياة الآخرة.

٣- مفهوم النفس(الروح).

٤- عادات دفن الموتى.

٥- العبادات.

٦- الأنصاب والبخور والأشجار ودورها.

٧- التشريع.

مقدمة في الدين (العرب ودين التوحيد):

عرف الأنباط الدين مثل الأقوام السامية الأخرى، وكان الدين- على ما تعكسه أمر مركزياً وحيوياً كثرة المعابد في حياة الأنباط، بل إن المعتقدات والطقوس الدينية لتبدو للدارس كأنها الشغل الشاغل للأنباط، فمعابدهم تنتشر في كل البقاع التي وجدت لهم فيها مستوطنات كبرت أم صغرت، بل إن بعض المعابد كان يقام في البلاد البعيدة التي كان الأنباط يقيمون فيها كجاليات مؤقتة كالإسكندرية أو "مينوبولي" في إيطاليا، هذا علاوة على أنهم أقاموا بعض معابدهم في بعض المناطق النائية قليلة السكان مثل معبد الذريح في ملتقى وادي اللعبان ووادي حسما قرب الطفيلة، ويحتمل أن يكون معبد "وادي رم" من هذا النوع النائي مع الأخذ بالاعتبار أهميته من خلال وقوعه على الطريق التجاري القادم من الجزيرة العربية.

وقد تعبد الأنباط للعديد من الآلهه والإلهات وقدموا لها الأضاحي والقرابين وحجوا إلى معابدها وتقربوا لها وتذرعوا لها بالأمنيات والأدعية، وجعلوها في بيوتهم (الأنصاب والمجامر) واختصوها ببعض هباتهم وصدقاتهم مما يدل على عمق اعتقاداتهم بتأثيرها في حياتهم الدنيا على ما يبدو.

وليس من اليسير على الدارس تنظيم هيكل أو "مخطط تنظيمي" لمنظومة الآلهة النبطية وترتيب أهميتها وأسبقيتها في حياة الأنباط نظرا لكثرة هذه الآلهة من جانب، ونظرا لانعدام المراجع الأصيلة للأنباط بشأن دينهم ومعتقداتهم. وجل المعلومات المتحصلة في هذا الشأن لا تعدو أن تكون تحقيقات أثرية اعتمدت أكثر ما اعتمدت على تماثيل الآلهة أو بقاياها التي وجدت في خرائب المعابد النبطية وفي بعض النقوش وخصوصا نقوش المقابر التي حرص الكثير منها على توجيه اللعنات باسم بعض الآلهة لمن يتجرأ على حرمة المقابر، وبعض هذه النصوص كان قد نص على تحديد غرامات تدفع لصالح بعض الآلهة في حالة وقوع التعدي أو التجرؤ.

كان من الواضح تماما تعدد الآلهة لدى الأنباط مثلما لدى معظم الأقوام السامية في ذلك الحين من مجتمعات الشرق في بلاد ما بين النهرين إلى شواطيء المتوسط الشرقية التي كانت الساحات الواسعة قد انتقلت وانتشرت فيها الجماعات السامية إضافة

إلى الجزيرة العربية. ويبدو أن معتقدات قبائل الجزيرة العربية إضافة إلى معتقدات بلاد الكنعانيين والفينيقيين كانت المصادر الأساسية للمعتقدات الدينية النبطية. والأرجح أن الأنباط حملوا معهم من مواطنهم الأولى أربابا هي اللات والعزى ومناة وذو الشرى وشيع القوم، وكل هذه الأرباب كانت تناسب عيشة البداوة، خاصة "شيع القوم"، فإنه كان ربا يكره شرب الخمر، وذلك هو حال الأنباط قبل أن يصبحوا من أكبر زراع العنب ومنتجي الخمور[١]. ومع أن بعض الإخباريين المسلمين يعزي التأثر بعبادة الأصنام إلى تأثير بلاد الشام، إلا أنه من الصعب تصديق ان الجزيرة العربية كانت تنتظر مثل هذا التأثير في أوقات متأخرة نسبيا مثلما يورد بعض هؤلاء ويعزونها إلى أشخاص بعينهم. وإبن هشام يورد في سيرته / **الجزء الأول**: أن عمرو بن لحي هو أول من جلب "هبل" من بلاد مؤاب ومن البلقاء تحديدا، وبها يومئذ العماليق، وهم من الكنعانيين، وقد وجدهم يتعبدون للأصنام، **فقال لهم**: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ **قالوا له**: هذه الأصنام نعبدها، نستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطونني منها صنما، فأسير به إلى أرض العرب، فيعبدونه؟ فأعطوه صنما يقال له هبل، وأخذه، فتقدم به إلى مكة، فنصبه، وأمر الناس بعبادته[٢]. ويعتقد أن ذلك وقع في القرن الأول الميلادي، أي في زمن الأنباط. والحقيقة أن حضارات الجزيرة العربية الجنوبية والشمالية منها كان لديها منظومة متكاملة من الدين والآلهة منذ آماد بعيدة تسبق ما أصبحنا نعرف عنه من حضارات قامت قبل العصور الحديدية أو ربما ما قبلها، وربما أن عرب الحجاز لم يكن لهم عهد بالأصنام لقلة احتكاكهم بالمجتمعات الحضرية المحيطة، فإن البداوة كانت لا تزال تسيطر عليهم، وحضارة البدو لم تكن لتحفل بالمجسمات التي من شأنها الإثقال على طبيعة البدو في التنقل وفي البساطة وفي الزهد بمقتنيات الحياة. ولذلك عرفنا في تراث بدو الجزيرة العربية صناعتهم لآلهتهم من التمر دون أن يتورعوا عن حال نفاد أكلها مؤونتهم منه. وقد أشار القرآن الكريم إلى أن عبادة العرب للأصنام لم تكن إلا أسلوبا أو وسيلة تقربهم إلى الله زلفى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾(الزمر/٢)، ولكنهم مع تقادم الأيام راحوا ينزلون بها القداسة والشراكة من دون الله

لتصبح جوهر عقائدهم وعمادها. ونحن لا نستطيع الجزم بغير الحقيقة التاريخية/ الاجتماعية التي تجعل من الدين ضرورة حياتية وإنسانية منذ نشأة المجتمعات البشرية، والكتب السماوية توحي لنا أو تنبهنا في الكثير من النصوص إلى أقدمية الدين لدى الإنسان، وهي جميعا تتفق على أن الدين كان ملازما لآدم أبي البشر عليه السلام، أي أن الدين وجد على الأرض حال وطئ قدم الإنسان لها، والدين – كما تشير الكتب السماوية – ظل موجودا على الأرض بدون انقطاع، لكنه كان يتعرض لفترات من النكوص التي ظلت تستدعي إرسال الرسل والأنبياء لتذكير الناس بالدين والتزاماته وعلى رأسها وحدانية الرب الخالق.

وبالطبع لا نستطيع أن نعرف تماما كيف ومتى نشأت فكرة تعدد الآلهة، ولكننا صرنا نعرف أن هذه الفكرة كانت ولا تزال فكرة إنسانية، أي أنها وجدت في كل المجتمات البشرية تقريبا، ولكنها لم تكن لتلغي الفكرة أو الحقيقة الأصلية المتمثلة في وحدانية الخالق، وإذا ما عدنا إلى الوراء مسافة منطقية يمكن تقدير منطقيتها، فإن أقرب فترة لنرصد فكرة الدين في مجتمات الجزيرة العربية قد تكون فترة سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهي حسب الكثير من التقديرات تدور حول ١٨٠٠ قبل الميلاد، في هذه الفترة جاب إبراهيم منطقة واسعة من بلاد الرافدين شرقا إلى مصر غربا، معرجا على الجزيرة العربية باحثا عن مناخ ملائم لدينه الجديد وليرسي بناء قواعد البيت الحرام مثلما يخبرنا القرآن الكريم: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (الحج/٢٦)، وهذا العمل يستلزم وجود عباد موحدين يحمون هذا البناء وينتفعون منه أيضا بالعبادة، وخلال تنقله وترحاله أيضا يخبرنا العهد القديم عن بعض الشخصيات التي التقاها إبراهيم عليه السلام في بلاد الكنعانيين الذي قدموا له العون والمساعدة لأنهم مؤمنون كملكي صادق الذي كان حاكما أو كاهنا في شليم – القدس "وأخرج ملكي صادق ملك شليم خبزا وخمرا لأنه كان كاهنا لله العلي، وباركه وقال مبارك أبرام من الله العلي مالك السماوات والأرض، وتبارك الله الذي دفع عنك

أعداءك (التكوين، ١٤/ ١٨- ٢٠)، ولم يقتصر ذلك على ملكي صادق، فبعد فترة وجيزة سنطلع على حوادث أخرى في بلاد الكنعانيين وما جاورها تنبئنا بتعدد المؤمنين الموحدين، فهذا الملك " الفلسطيني "ابيمالك" ملك جرار يترفع عن مس امرأة إبراهيم بعد تلقيه رؤيا صادقة، ثم يحسن إلى إبراهيم ويقدم له أموالا كثيرة، ويقيم عهدا معه في بئر السبع. وعندما ماتت امرأته سارة في قرية أربع الكنعانية قرب حبرون في أرض الكنعانيين، رغب صاحب أرض "مغارة المكفيلا" بتقديمها مجانا لإبراهيم ليدفن سارة فيها، لكنه أصر على دفع ثمنها بشواقل الفضة...

ويمكن أن نستنتج من هذه الحوادث أن إبراهيم عليه السلام كان يتحرك في مجتمعات تعرف الدين الموحد، ومنهم من كان ذا شأن في مجتمعه، أي أن دين التوحيد لم يكن يعاني من الاضطهاد، وربما على العكس من ذلك بالرغم من تعدد الملل وتعدد الآلهة والأصنام التي عرفتها تلك المجتمعات. لكننا لا نعرف تماما كيف عاودت الديانات الوثنية انتشارها في المنطقة على نطاق واسع، وربما كان ذلك بتأثير الحضارات المجاورة كحضارات بلاد الرافدين التي عرفت تعدد الآلهة منذ نشأة حضاراتها في الألف الرابع قبل الميلاد، وكذلك الحضارة الفرعونية التي عرفت تعدد الآلهة منذ وقت مبكر، فسرى ذلك في الفينيقيين والآراميين والأدوميين والمديانيين.. إضافة إلى حضارات جنوب الجزيرة.

ويرى كثير من الباحثين وكذلك شهد الإخباريون المسلمين أن بعض العرب كانوا على دين التوحيد الذي نادى به إبراهيم الخليل عليه السلام من قبل، والذي يرتقي إيمانه به إلى زمن يسبق عهد موسى واليهود بما ظل معروفا لدى العرب "الحنفية" أو "الحنفاء"، وفي القرآن الكريم ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ (الحج / ٣١)، ثم ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران/ ٦٧) أو ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ (النساء/١٢٥). ويرى بعض الباحثين أن

الموحدين (الحنفاء) في الجزيرة العربية كانوا أكثر عددا من المشركين، وربما كان للمشركين سطوة سياسية حالت دون سيطرة دين التوحيد فترة طويلة[٣]، إلى أن قيض الله ذلك بالرسالة المحمدية في أواسط القرن السادس الميلادي. وكان لفظ الجلالة (الله) معروفا وشائعاً جدا بين العرب في الجزيرة العربية وفي الأطراف المحيطة كبلاد الشام خصوصا، وفي الشعر الجاهلي الكثير من الشواهد الشعرية، كقول أمية بن أبي الصلت المتوفى سنة ٥ هـ قبل أن يسلم:

لـــك الحمـــد والنعمـــاء والملـــك ربنا   فلا شيء أعلى منــك مجــدا وأمجــد
مليك على عــرض الــسماء مهـيمن   لعزتـــه تعفـــو الوجـــه وتـــسجد
ملائكـــة أقـــدامهم تحـــت عرشـــه   بكفيـــه لـــولا الله كفـــوا وأبلـــدوا

***

على أن الأقوام أو الحضارات التي كانت تقوم في بلاد الشام عرفت هي الأخرى لفظ الجلالة (الله) منذ وقت مبكر جدا وإن كان ذلك بالصيغة اللغوية التي كانت دارجة آنذاك، وأغلب الظن أن كلمة (إيل) كانت الجذر السامي للفظ الجلالة (الله)، ومما يدعم هذا الافتراض أمران مهمان: الأصل اللغوي لحروف لفظ (الله) فيها اللام المشددة التي تماثل لام (إيل)، أما الياء في إيل فهي من أحرف العلة التي يمكن أن تظهر أو تختفي في اللهجات السامية مثل الكثير من الألفاظ الأخرى، خصوصا في الاسماء. وكان "إيل" على ما توحي بقايا الأساطير الكنعانية والفينيقية أصل الآلهه أو ربها أو والدها. فهو رب الأرباب في الديانة الكنعانية، وأول ملمح توحيدي مبكر ما يزال حتى يومنا الحاضر يعني الله، أخذه العبرانيون وجمعوه على "ألوهيم"، ولأن بعل في الديانة القديمة هو ابن إيل، فقد استعار الكثير من صفاته، وصار من الممكن انتساب هبة المطر إليهما معا، فمنطقة مرج ابن عامر في فلسطين كان اسمها الكنعاني "يزرعيل" أي إيل يزرع[٤]، ولكن مكانة إيل تراجعت لصالح الآلهة الأخرى خصوصا "بعل" الذي

أصبح بعل شمين، أي رب السماوات. وفي الاسماء السامية والعربية قائمة طويلة من الاسماء المضافة إلى إيل: إسرائيل، وجبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، وربئيل، ويزراعيل، يسماعيل...الخ، أما في الآرامية فنجد الكثير من الأسماء التي تحمل اسم الإله الأعلى مثل Yaballah أي وهب الله، ووهب معروفة عند العرب، ومع الوقت اختصروه إلى وهب أو حوروا معناه إلى اسم عطا الله، أو عطية(٥) التي أصلها عطية الله أو عطاء لله.

وعرف إيل في الديانات الجنوبية، فقد عرف أحد ملوك حمير "كرب إيل" الإله الذي كانوا يدعونه إله إبراهيم / ويدل على أن هذا الإله عربي أصلا، من حيث العبادة، ومكرب بمعنى "المقدس" اقترن بأسماء الملوك الكهنة.

وفي العهد القديم نصوص عديدة تذكرنا بأن الأقوام السامية كانت تعرف الله باسم "إيل" "وجاء يعقوب إلى لوز التي في أرض كنعان وهي بيت إيل هو وجميع الذين معه، وبنى ثم مذبحا ودعا الموضع إله بيت إيل لأنه هناك تجلى له الله حين هرب من وجه أخيه" (التكوين، ٦/١٦).

الأمر الثاني الذي يدعم افتراض أن إيل هو الله نفسه هو أن الموحدين والوثنيين على السواء ظلوا يستخدمون اسم "إيل" كمعبودهم، لكن الفرق أن الوثنيين راحوا يشركون بعبادة إيل آلهة أخرى ظلت تتكاثر وتتقوى إلى أن صارت هي المقدمة على " إيل " نفسه، وهكذا تراجعت أهمية إيل ليبدو مثل الآلهة الأخرى في مراحل مبكرة ثم ليواصل التراجع في مراحل لاحقة لصالح بعل واللات والعزى ومناة وذو الشرى...إلخ من الآلهة التي سنستعرضها بعد قليل. وإيل ربما كان في اعتقاد البعض منهم أنه الإله الواحد الأحد إلى أن فسدت العقيدة فتزاحمت الأصنام والمعتقدات ولم يبق من عقيدة التوحيد غير شظايا من الآثار التي لا تكفي لاستجلاء كامل الحقيقة التي ظل القرآن الكريم يؤكدها، وهي أن الإنسان خلق ليعبد الله وأنه يدرك دينه وإلاهه بالفطرة ما لم يجر التأثير عليه بالتربية.

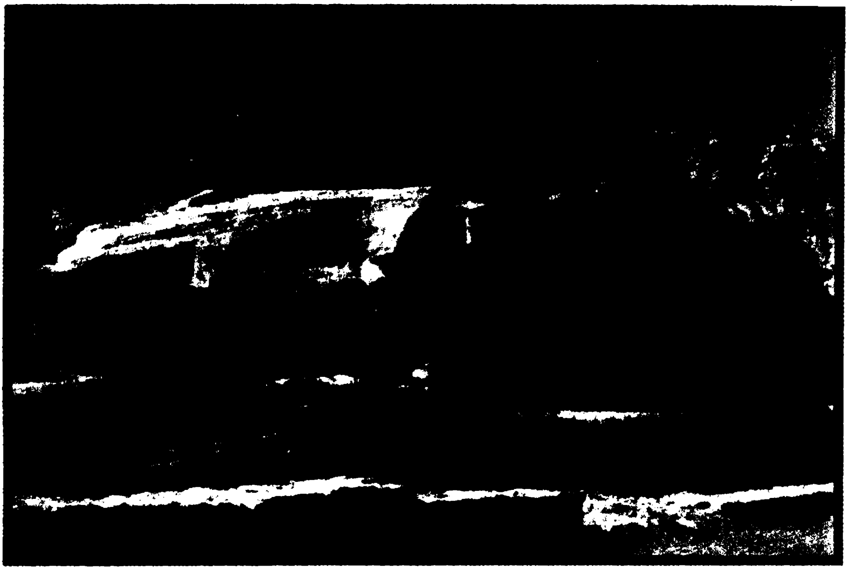
﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الروم-٣٠)(٦) أنظر التفسير.

أما بالنسبة للأنباط ومعرفتهم بإيل، فإن اسماء بعض ملوكهم جاءت مضافة إلى إيل مثل "رب إيل" واسماء أخرى وردت في نقوشهم مثل "زيدإيل" و "سعد إيل" مما يدل أيضا على معرفتهم بإيل قبل أن تطغى عبادة الأصنام والآلهة الإشراكية. وفيما يلي ما عرف منها لديهم:

أولا- آلهه الأنباط:

١- ذو الشرى: الإله الأكثر صيتا بين آلهه الأنباط، هجئ بالفاظ عديدة: دوشر، ذو شرا (إسلامية)، دوسر، دوساريس (يونانية). وكان الاعتقاد بذي الشرى شكلا من الاعتقاد الملكي البسيط، عبد في كل المناطق النبطية خصوصا في البتراء، وينتمي في أصله إلى عبادات نجمية مستمدة من العرب الجنوبيين، ويدل على ذلك العبارة التي وردت في أحد نقوش الحجر لذي الشرى "الواحد الذي يفصل بين الليل والنهار"، وهذا اللقب يعكس الخاصية الشمسية لدوشرا، وربما المرتبط بالكوكب عطارد. ويطلق نصا آخر متأخر كثيرا على هذا الإله "سيد العالم". والإله ذو شرى ذو طبيعة مذكرة عند الأنباط(٧)، وهو يحمل طبيعة بعض الآلهة السامية في دور مبكر، فأصبح يناظر كلا من بعل، وهدد، وبعل شمين (رب السموات)، وكان في البدء يعبد على شكل حجر مربع أو مستطيل، وإلى هذا تشير كثير من الكتل الصخرية المستطيلة المنحوتة في بترا وضواحيها، وحيثما توجه المرء في بترا وجد رموز ذي الشرى منصوبة أو منحوتة مما يدل على مكانته في بترا نفسها، وبما أنه إله شمسيا، فقد وجدت أنصابه ورموزه محرفة أو موجهة نحو المشرق(٨).

ويصنف ذو شراة باعتباره مرتبطا بمعنى "الزراعة الكثيفة"، وهو بالتالي مرتبط بالخصوبة، ويعتقد (أ.كاميري) أنه إله قديم جدا وقد يكون الأدوميون قد تركوه بعد زوال دولتهم، فعبده الأنباط، وفي فترات متأخرة بدأ ذو الشرى بالتأغرق ثم بالترومن (نسبة للرومانية)(٩).

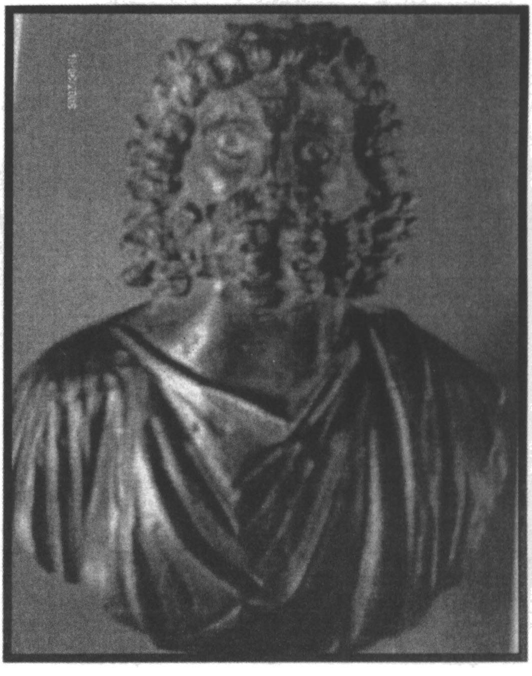


رموز ذو الشراة على شكل مسلات أو أنصاب صغيرة في أعلى القبور

فقد بدأ يظهر بصور بشرية بعد أن كان نصبا حجريا، وقد ترافق ذلك مع تغلغل الثقافة اليونانية ثم مع استقرار النبط وارتباطهم بزراعة الكرمة، وصارت صورته تظهر جالسا في مجالس الخمر أو تحط به أوراق العنب وحبات الرمان، وصارت صورته تقترن برموز مناسبة لأوضاعه الجديدة مثل (الثور- الصقر - الأسد - الأفعى) تعبيرا عن الخصب الذي يصله (بزيوس- هدد)(١٠) والمرجح - في ظني - وفق منطق التوارث - أن الأنباط وجدوا ذا الشراة المعبود الرئيس للأدوميين فتبناه من راح يستقر منهم في المنطقة التي كانت الزراعة عماد اقتصادها الأول. ويدعم هذا الاعتقاد أن عبادة ذي الشراة ظلت مستمرة إلى ما بعد سقوط المملكة النبطية، فقد وجد اسمه في منطقة (بصرى) وذلك في القرن الثالث بعد الميلاد وما تلاها(١١).

وقد رمز الأنباط لذي الشراة برمز المسلة أو الحجر المكعب الأسود الذي وجد في البتراء، حيث إشتهرت عبّادته[١٢]. وبتأثير الحضارة الهلنستية يبدأ باتخاذ صورة إنسان، فتظهر تماثيله في المعابد على شكل رجل وقور جالس على عرش يحيط به ثوران، وهو كذلك يظهر على قطعة نقد متأخرة (١٧٧ ميلادي) في بصرى، ويظل يظهر في مسكوكات بصرى حتى بدايات القرن الثاني الميلادي مما يدل على أهميته العميقة لدى سكان المنطقة.

ولما كان (ذو الشرى) إلها معتدلا لا يحب شرب الخمر في أيامه الأولى، فقد كان الأنباط يقدمون له القرابين ممزوجة بالحليب أو الزيت أو الحنطة وبعض أنواع الأطعمة الأخرى، وبعد أن تطور وأصبح يضاهي (ديونسيوس) - إله الخمر عند الإغريق - أصبح الأنباط يقدمون له القرابين ممزوجة بدم العنب (الخمر) بدلا من الحليب، أما أنهم كانوا يقدمون له القرابين البشرية فهو أمر لم يقم عليه دليل قطعي إلى الآن[١٣].



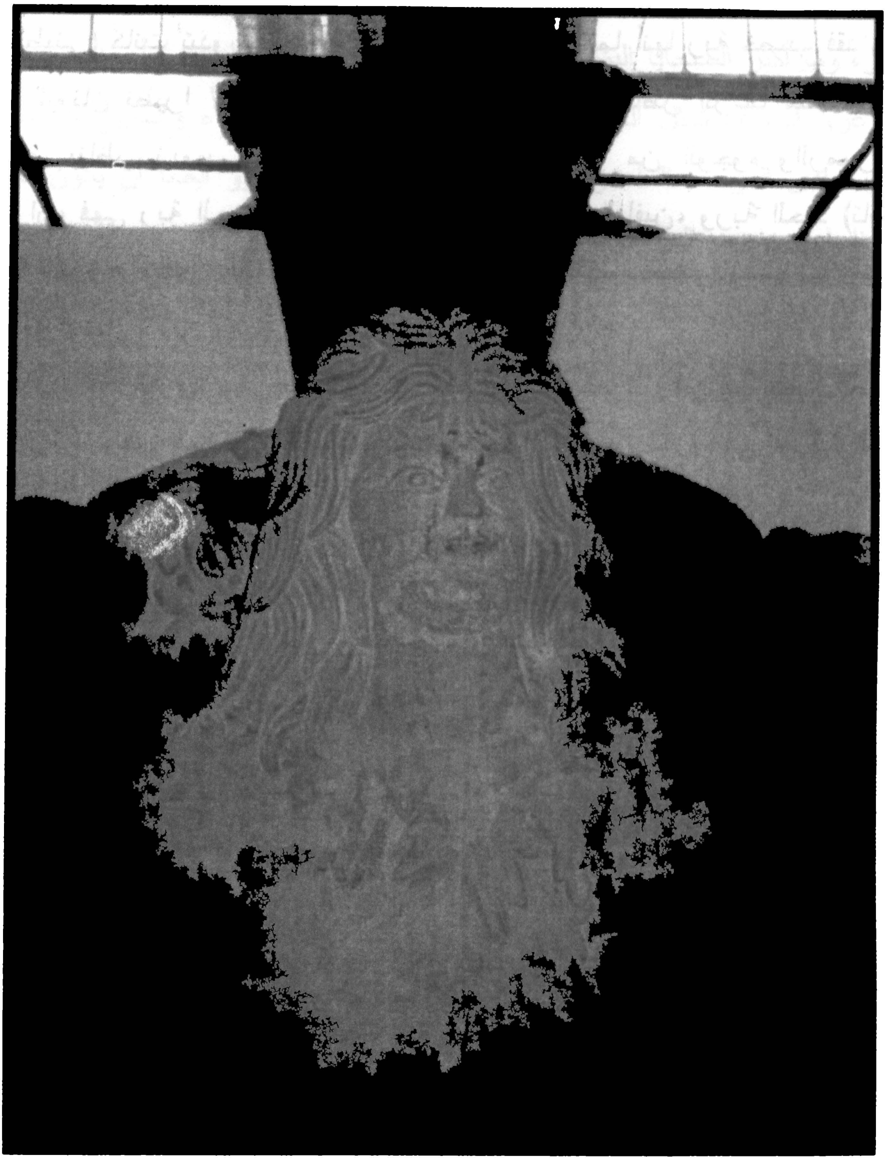
تمثال برونزي لذي الشرى كبير آلهة النبطيين في صورته الوقورة - متحف آثار عمان

أما عن شكله فيفيد الفيلسوف مكسيموس الصوري (٤ م) إنه كان حجرا أسودا مكعبا ارتفاعه أربعة أقدام وعرضه قدمان ويرفع على قاعدة ذهبية وكل الهيكل يتألق بالذهب، يصب عليه أو أمامه دم الأضحية، ويبدو أنه كان إله الدولة الرسمي[١٤].

٢- اللات: اللات من الآلهه المشهورة عند العرب عموما، وظلت عبادتها شائعة ورائجة مع قرينتها العزى حتى قدوم الدعوة الإسلامية ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ (سورة النجم / ١٩-٢٠). ومن المحتمل أن تكون اللات هي النظير الأنثوي للرب إيل في أصل الديانات العربية الجنوبية، وهذا يقوم على افتراض قوي أنّ أصل الديانات العربية يعود إلى منظومة اعتقادات سامية أسبق تنتمي إلى أصول نجمية، وتتكون المنظومة من ثالوث " الشمس والقمر ونجم أو كوكب ثالث اختلف في حقيقته أهو الزهرة أم عطارد أم غير ذلك. وبينما كانت اللات تمثل الشمس في الأصل، ولذلك عرفنا بعض الاسماء العربية القديمة مثل "عبد شمس"، وكانت اللات واحدة من ثلاث إلاهات وجدت في الكعبة وكان لها الشأن الأكبر عند العرب[١٥]، وقد عرفت عبادتها أيضا في الطائف وكانت تمثل بصخرة يبدو أنها أقرب في شكلها إلى شكل المكعب، وقد وجدت نماذج من هذه الصخرة في مناطق اخرى. وذكر ابن كثير أن (اللات) صخرة بيضاء منقوشة، عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف وهم ثقيف ومن تابعها، ويفتخرون بها على من عداهم من العرب بعد قريش[١٦]. ويؤكد ف.وينت أن اللات كانت إلهة القمر، بالرغم من كونها إلهاً مذكرا عند العرب الجنوبيين، ويرى أن جنس الآلهة متغير بين العرب في الشمال والجنوب، وكانت اللات مرتبطة بأماكن عديدة مثل صلخد، رم، بصرى، وقد تعتبر أم الآلهة (أ م ت ا ل هـ ي ا) أي "أم الآلهة". ومما يثير الدهشة غياب اسم اللات من النقوش التي وجدت في البتراء على الرغم من وجود اسماء أشخاص مركبة من اسمها[١٧].

وقد ورد اسم اللات في نصوص الحجر وصلخد وتدمر، وفي النصوص الصفوية، وهو أكثر آلهة الصفويين ورودا في نصوصهم، ويظهر أن عبادتها انتقلت

من القبائل العربية الشمالية إلى أهل الحجاز[١٨]. وفي المجتمع الأردني قبيلة معروفة تسكن نواحي البلقاء وتنتسب إلى "عبداللات" ولا نعرف لذلك تفسيرا غير ما يوحي الاسم بآثار عبادة "اللات".



اللآلهة آتارغاتيس (أترعتا) أحد تجليات اللات – من معبد التنور (متحف آثار عمان)

وكانت اللات قرينة ذي الشرى لدى الأنباط، ولكن حين أصبح ذو الشرى يضاهي "زيوس – هدد" لم تعد كذلك بل أصبحت هي أترعتا (أتر – أتا) ربة الخصب السورية، وكان عرشها مجنحاً بالأسود، وفي عسقلان (على الساحل الفلسطيني) كانت تبدو نصف امرأة ونصف سمكة، وبما أنها ربة خصب فقد وجد فيها اليونان نظيرا لأفروديت، وهكذا أصبحت اللات تناظر أترعتا مثلما أن ذا الشرى يناظر زيوس – هدد، وأترعتا تملك الكثير من الوجوه والرموز او الأدوار، فهي ربة الحياة النباتية، وربة القمح، وربة الدلفين، وربة الحظ (تايكه) وربة البروج وغير ذلك، وفي تجلياتها المختلفة تعكس معاني ومفهومات دينية مختلفة أيضا(١٩).

٣- **العزى**: وهي صفة وتعني قوية أو "ذات العزة" وهي إلهة نجمة الصباح (الزهرة)، وهي إلهة سورية نبطية، ورد اسمها في القرآن الكريم في المرتبة الثانية بعد اللات، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ۞ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾(سورة النجم ١٩-٢٠)، وقد ذكرت التفاسير أن العزى كانت شجرة بغطفان، وكانوا يعبدونها، فبعث إليها النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فقطعها. (مختصر فتح القدير للشوكاني).

واللات هي الإلهة الأنثى الرئيسية لدى الأنباط، ورمز هذه الإلهة الأسد، ويرى ف. وينيت أنها من أصل سينيائي، وأنها عبدت في مدينة "العزى" Elusa (الخلصة حاليا) النبطية بالنقب، وكانت المدينة بمثابة مقر أو بيت للعزى، كما أنها كانت تمثل إلهة الحرب لدى العرب، لذا كانت أضحياتها في بعض الأحيان بشرية، وقد يكون اسم العلم المؤنث "عزة" من بقايا عبادة هذه الإلهة(٢٠). ويرى بعض الدارسين أن للعزى قيمة كبيرة لدى الأنباط، وعرف من معابدها اثنان فقط، واحد في البتراء والآخر في وادي رم، وصورتها تمثل بامرأة(٢١). وتجب ملاحظة بعض المعلومات برمزيتها الأسطورية في شأن العزى وغيرها من الآلهة العربية، فإن نصوصا أخرى كانت تشير إلى أن العزة هي إلهة الينابيع، والينابيع عماد حياة العرب في الجزيرة العربية وبلاد

الشام كذلك منذ أزمان بعيدة، ومنها جاء اسمهم "عرب"، وإن التمكن من الينابيع يمثل العزة والسؤدد والحياة، وهذا الغرض دونه الموت الذي يمثله الأسد ذو البأس والقوة، وإن وطئ هذا الغرض ليستحق من الأعراب التضحية ببعض الأضاحي البشرية ما لزم الأمر، وما أكثر الضحايا البشرية التي ستسقط إن لم يتمكن الناس من أعرابهم ومائهم. ولا غرو إذن ان تمثل العزة إلهة الحرب عندهم، فليس كالماء والينابيع ما يستحق الحرب لدى العرب مثلما هو معروف في تراثهم. ولا غرو أيضا أن يكون اليمين المغلظ لدى عرب الجاهلية محصورا بـــ"اللات والعزى" وفق ما نعرفه من تراث الجاهلية، ووفق ما شهد به المؤرخ هيرودت الذي ظن بأن العرب لا تعبد غير هاتين الإلهتين.

٤- **مناة: منوة: مناتا:** والصنم مناة هو (منوتن) (منوت) Manavat عند النبط، ويظن أن لاسمه صلة بـــ(مناتا) Menata في لهجة بني إرم، و (منا) Mana في العبرانية، جمعها (منايا) في عربية القرآن الكريم، وهي لذلك تمثل الحظوظ والأماني، وخاصة الموت، ولهذا ذهب بعض الباحثين إلى أن هذه الإلهة هي إلهة المنية عند الجاهليين[٢٢]. وبالطبع فقد وردت (مناة) في القرآن الكريم" ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ۝ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾(سورة النجم ١٩-٢٠)، وقد وردت في بعض النقوش النبطية منها ما جاء في نقش من الحجر بصيغة (منوتو): و ل ع ن دو ش ر ا و م ن و ت و و ق ي ش هـــ ر / ك ل م ن د ي ز ب ن ك ف... ر ا د، هـــ)، أي لتكن لعنة دوشرا ومناة وكاهنها على كل من يبيع هذا الضريح"، ويبدو أن كتبة خط القرآن الكريم لم يكونوا يتبعون مدرسة واحدة، حيث نجد الكلمة الواحدة مكتوبة بطرق مختلفة في السورة نفسها، مثلا كلمة "رحمة" تكتب مرة بالتاء المربوطة ومرة بدونها، وفيما يتعلق بكلمة مناة، وزكاة وصلاة، فقد كتبت بحرف الواو، وهذا يعود أساسا إلى أن جذور هذه الكلمات تحوي أحرف علة طويلة، مثل "الواو"، وموجودة أيضا في الكلمة النبطية منوتا. وظهر الاسم كذلك على شكل "منوت" في نص من "تيماء"، ويمكن لفظه منوتو

أو مناتو. ولا توجد لمناة صورة بارزة بين أصنام مكة قبل الإسلام، وربما لم تجسد في تمثال هناك أبدا، وهذه الإلهة مرتبطة مع دوشرا في نصوص أضرحة الحجر باسم منوتو، والمعنى الأساس لها هو "قدر، نصيب، جزء"[٢٣].

٥ - **بعل: هبعل: هبل:** من المرجح أن يكون اسم هبل تحريفا عربيا لاسم الإله الكنعاني "بعل"، وإذا ما أضفنا له أداة التعريف السامية (هه) فإنه سيصبح "هبعل"، ولما كانت بعض اللهجات السامية تقلب العين همزة أو تتخلى عنها نهائيا، فإنه يصح الافتراض أن هبل هو النسخة العربية من الإله الكنعاني بعل الذي كان ذائع الصيت في بلاد الكنعانيين والفينيقيين وسوريا. وقد رمز بعل لدى الكنعانيين للكثير من المعاني أهمها الخصب والقوة والزراعة والأمطار والقوة الذكرية وهو سيد الأرض أو مالكها، وقد اكتسب بعل هذه الصفات من رب الأرباب "إيل" إله السماوات والأرض[٢٤]، ولا تزال الكلمة تستخدم في اللغات العربية والعبرية بمعان قريبة أو مطابقة لمعانيها الأصلية، فهو في العربية اليوم: البعل الزوج، والبعل والبعلية: الأرض التي تسقى من مياه الأمطار، وبعل في العبرية أيضا الزوج والسيد والمالك، و "بعل هبيت" سيد البيت أو المالك. وإنما اتخذت الأرض البعلية هذا المعنى لأنهم اعتقدوا أن "البعل" يتكفل بها فهو "سيد أو مالك السماوات". ولذلك إتخذت له رموز توحي بهذه المعاني مثل "الثور" و"المحارب". وعلى الرغم من أن اسمه يوحي بأنه مذكر، إلا أن الكثير من الدارسين قرروا أنه اسم مؤنث لأنه رمز أساسا للشمس. ومثله مثل الآلهة الأخرى، تتطور صورة بعل وتأخذ تجليات مختلفة ربما بتأثير الحضارات المجاورة وبحكم التغير في الواقع، فهو بعل شمين في بعض المناطق، ومعبده النبطي في "سيع" قرب السويداء من أكبر المعابد النبطية وأهمها، ويبدو أن تأثير الحضارة السورية كان أقوى من غيرها في هذا المعبد، وعرف "بعل شمين" أيضا عند العرب الجنوبيين بهذا الاسم، والمرجح أنهم أخذوه من عرب الشمال. ونسبت له بعض الاسماء مثل: عبد شمين.

وقد انتقلت عبادة هذه الإلهة إلى العرب من الكنعانيين، حيث كان إلههم الأعلى (الإله والسيد) هبعل. وظهر اسم الإله في واحد من نقوش الحجر: "ل ذ و ش ر ا و هـ ب ل و ل م ن و ت و ش م د ي ن هـ و ل ا ف ك ل ا ق ن س) "لذي الشرى

وهبل ولمناة خمس وحدات نقدية؟ وللكاهن غرامة"، وورد اسمه في أحد نقوش الأنباط على قبر في مدينة بيتولي (إيطاليا) مؤرخ إلى ١١ ميلادية[٢٥]. وهبل من أعظم الآلهة المكية التي عبدت قبل الإسلام وكانت من أعظم الأصنام حول الكعبة. وليس هناك تفصيلات في النقوش النبطية عن طبيعة هذه الإلهة وقد عرف بعل عند الأدوميين وربما كانت له المكانة الأعلى في مراتب الآلهة، فقد ظهر اسم بعل في بعض الآثار الأدومية المهمة، وعثر على ختم أدومي عليه كتابة تنص على لقب صاحبه "خادم بعل". وفي منظر آخر رسم عجل يرضع من بقرة، وحيوانات مرعى وغيرها[٢٦]. مما يوحي بأهمية "بعل" في الخصب والولادة.

وقد ورد اسم هبل في الكتابات النبطية التي عثر عليها في الحجر وورد مع اسم الصنمين: (دوشر- ذو الشرى) و (منوتو- مناة)، وقد تسمى به أشخاص وبطون من قبيلة كلب، مما يدل على أن هذه القبيلة كانت تتعبد له، وأنه كان من معبودات العرب الشماليين، وباسم هذا الصنم سمى "هبل بن كنانة الكلبي جد زهير بن جناب". ولما أراد النبي الانصراف عن أحد، علا صوت أبي سفيان: أعل هبل..أعل هبل، فقال النبي لعمر: أجبه، قال ما أقول له ؟ قال: الله أعلى وأجل، **فقال:** لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي لعمر قل: الله مولانا ولا مولى لكم[٢٧].

٦- **شيع القوم:** وقد ورد في النقوش النبطية في (مدائن صالح) اسم الإله (شيع قوم) و (سع قوم) و(شيع القوم)، وهو إله القوافل والمحاربين، يدافع عن القوافل وعن رجالها ويصد عنها لصوص الطرق وقطاعها، ولهذا كان يتقرب إليه التجار بالنذور وبالدعوات لينزل بمن يتحرش بتجارتهم العذاب الأليم، وهو أيضا من آلهة قوم ثمود والصفويين[٢٨]. ولا غرو في ذلك عندما نتذكر ما كان للقوافل من خطورة في حياة تلك الأقوام، فعليها يقوم اقتصادهم، وبسببها يسافرون ويجابهون المخاطر الكثيرة في أثناء ذهابهم وإيابهم، وهذا يذكرنا أيضا بالدلافين التي صارت أيضا إلهاً للمسافرين عبر البحار، نظرا لما فيها من مخاطر جمة، وتذكر كتب الأخبار أن تجار مكة حرصوا على زيارة أصنام الكعبة حال عودتهم ووصولهم وقبل أن يعودوا لأسرهم؛ حمدا لأصنامهم بسلامتهم وحراسة تجارتهم.

٦- **قوس:** قوس في الأصل إله أدومي، ويبدو أن الأنباط توارثوه عنهم مثلما توارثوا عناصر حضارية أخرى في الزراعة والتجارة والعمران. ويبدو أنه كان إله الحرب والقوة لدى الأدوميين، ولذلك ظهرت بعض صوره يحمل قوسا. ويبدو أن القوس كان أداة حربية حاسمة في القتال وتستحق هذا التبجيل.

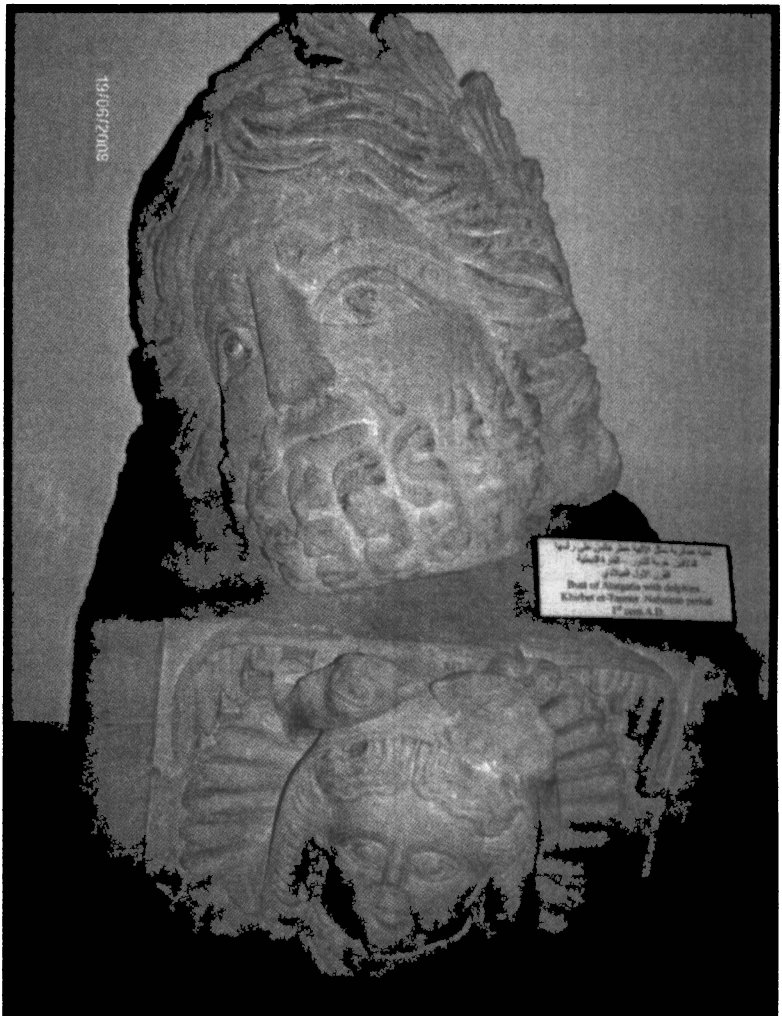
وقد عثر على نقوش نبطية كثيرة ذكرت هذا الإله، ليس في منطقة إيدوم وحسب، بل شمالا حتى بصرى العاصمة الثانية النبطية، وذكر قوس في نص من بصرى يشير إلى أن صقرا قد صنع له، ويرمز إلى الإله قوس، وفي خربة التنور (جنوب الأردن)، تم العثور على نص تكريسي له(٢٩). ويبدو أن قوس، عبد في مراحل مبكرة من استيطان المنطقة الإيدومية، وراح مركزه يتراجع أمام الآلهة الثلاث الأساسية لدى الأنباط: ذي شرى، اللات، العزى.

٧- **الكتبي (الكتبى):** وهو من الآلهة التي اختلف في جنسها إن كانت مذكر أم مؤنثاً، اشتق اسمه من "الكتابة" ربما نظرا لما صار للكتابة من قيمة عالية في حياة الناس وفي التجارة والمعاملات خصوصا، وهذه القيمة يفترض أن تزداد في مرحلة الاستقرار، إلا أن قيمة الكتبي وصيته لم يبلغا شيئا مما بلغه آلهة الصف الأول.

ويؤنثها ستاركي ويرى أنها ودوشرا تمثلان الإلهة نفسها وذلك من خلال عدة نقوش.ويقابل هذا الإله إلهة الكتابة السامية المصرية ثوت (Thot) واليونانية – الرومانية هيرمس- ميركوري، والأشورية نابو، وقد ظهر مناظرا للإله نابو في السنوات العشر لإقامة نبونئيد في تيماء في الجزيرة العربية(٣٠).

٨- **الدلفين:** لا يزال من غير الواضح تماما مكانة الدلافين في الرموز الدينية النبطية، وقد ظهرت كثيرا في معابدهم، ووجدت نماذج منها في قبور النقب، واستغرب بعض الدارسين معرفة الأنباط بالدلافين البحرية وهم أمة صحراوية تطبعها البداوة، وثمة تفسيرات لهذه الظاهرة منها أن الأنباط عرفوا البحر جيدا من خلال تجارتهم البحرية، ثم أنهم تلقوا تأثيرات من الأقوام المجاورة، والأقرب- عندي – إلى المنطق أن الأنباط كانوا أمة تنوعت منابتها وثقافاتها لتشكل هذه الفسيفساء الكبيرة المسماة الحضارة النبطية، ولا بد من أن أقواما ساحلية من الشرق (الخليج

العربي) أو الغرب (البحر المتوسط) عرفت الدلافين وجعلتها آلهة أو رموزا دينية، وجاء الأنباط وأقروا ذلك ولم ينكروه، وعلى الأغلب أن أقوام فينيقية وكنعانية أدخلت هذه الرموز إلى الثقافة النبطية، وقد وجدت أهم تماثيل "الدلفين" في أسدود المدينة الفلسطينية الساحلية شمال غزة. ووجدت كذلك نماذج منه في بترا وفي (عبدة) في النقب وفي وادي رم، وهو موجود في آثار مدينة "الحجر" أيضا. وانتشار هذا الرمز يشير إلى علاقة الأنباط الوطيدة بالبحر مثلما كانت علاقتهم أيضا وطيدة



الدلافين تبدو على رأس أتارجاتيس (الوجه السفلي) من معبد التنور – متحف آثار عمان

بالبر، والدلفين حيوان مائي مهم للسفر في البحر، مثلما هو مهم للسفرة النهائية للإنسان، ووضع رمز الدلفين في المعابد والمزارات مرتبط بحبهم لضمان السلامة على الطريق التي يقطعونها بعد أن يغادروا دار الفناء[٣١]. وربما أن الدلافين تماثل الإلهة أتارجاتيس[٣٢] (اللات) ،حيث ستبدو الدلافين ملازمة لأحد تجلياتها في معد خربة التنور. فهل كان الأنباط يؤمنون بحياة آخرة بعد الموت؟ هذا ما سنعاود نقاشه في الصفحات القادمة.

٩- **قيس:** من الأصنام المعروفة والمعبودة عند العرب، وقد ظهر اسم هذا الإله في عدة نصوص نبطية، مرة باسم "قيشا"، ومرة أخرى في نقوش الحجر باسم "قيش أو قيس"، وفي نص من خربة التنور، ظهر الاسم "قس" (ق س ا ل ه ح و را) "قس إله حورا"، وطبيعة هذا الإله غير معروفة لأنه ظهر في اسماء علم مركبة فقط مثل: عبد القيسي وعمر القيسي. وذكر في أحد نصوص بصرى قسيو[٣٣]. وثمة احتمالات عديدة في كنه هذا الإله وتعدد مسمياته وعدم وضوح دوره أو مكانته، وليس من المستبعد أن تكشف لنا الأبحاث المستقبلية أن يكون هو الإله قوس نفسه.

١٠ - **العبادة الملكية:** قيل عن الأنباط أنهم عرفوا عبادة بعض ملوكهم، ويعود ذلك أكثر ما يعود للملكين عبادة الثالث، والملك الحارثة الرابع، وكشفت الآثار في "عبدة" في النقب عن ما يعتقد أنه بقايا قبر للملك عبادة الثاني، وكان أسطفانس البيزنطي قد صرح: "أن عبدة هي المكان الذي دفن فيه ملك يؤلهه الأنباط "، وفي بترا نفسها ظهرت جماعة تتعبد للملك عبادة "الإله"، وفي سنة ٢٠ ب. م أقيم معبد حجري من أجله وزود بتمثاله [٣٤]، وعثر على نص صريح يقول: " د ك ر ب ط ب ق ر ا ق د م ع ب د ت ا ل هـــ ا " ذكرى طيبة لمن يقرأ أمام عبادة الإله"...

لكن د.إحسان عباس يقلل من شأن هذه الظاهرة وهو يشير إلى أن مثل تلك العبارات لم تكن إلا شكل من أشكال التبجيل، أو أنها من تشجيع الحارثة الرابع الذي سره أن يتبوأ قدسية دينية بعد موته إقتداء بسلفه.

ثانيا- المعابد النبطية:

عرفت المعابد باسماء متعددة عند الأنباط، فهي أحيانا "مسجدا" أو "بيتا " أو "محرمت"، وقد فرق الكثير من الدارسين بين هذه المعاني، فـ"مسجدا" تشير إلى كوة أو طاقة في المعبد، وعلى الأرجح أنها المكان الذي يوضع فيه "الصنم"، ولذلك فهي تمثل قدس الأقداس في المعبد، "وبيتا" يمكن أن تمثل بناء المعبد الأساسي، فيما أن "محرمت" يمكن أن تمثل حرم المعبد كاملا من أبنيته وأرضه ومرافقه، وهذا استنادا إلى الإيحاءات الصرفية والدلالية للغة التي استمدت منها عربيتنا المستخدمة اليوم.

وتقسم المعابد النبطية من الناحية المعمارية إلى قسمين أو نمطين عريضين: الشمالية والجنوبية. والمعابد الشمالية ذات المساحة المستطيلة مع المقعد الدائري المنتصب بانتظام أمام المعبد، ويشكل جزءا ثابتا من تصميم المبنى[٣٥]، وهو بذلك يمثل مسرحاً قد يستخدمه المؤمنون في أداء طقوسهم وعباداتهم.

أما المعابد الجنوبية، فتتمثل بمقدس، ومقسمة لثلاثة أجزاء، في كل جزء غرفة واسعة، وثمة نمط آخر من المعابد يتضمن كل مواصفات النمطين السابقين، ولذلك سمي هذا النمط بالمعبد النبطي الكلاسيكي أو النبطي الأصيل، يفترض أن المعابد الشمالية كانت قد تأثرت بحضارات الشمال القريبة، في حين أن معابد الجنوب تأثرت أكثر بحضارات الجزيرة العربية وفق بعض التحليلات.

ومن الناحية المعمارية فإن معظم المعابد تكاد تشترك في التخطيط التالي:

١- الصالة المركزية (الهيكل المركزي) (Cella).

٢- الضريح أو منصة المذبح (Shrine).

٣- الحجرات الجانبية.

وقد كانت الاحتفالات المتعلقة بــ(الوجبة التعبدية) تقام في معبد (رم) وكذلك (التنور) على ما يدعى (المصطبة الثلاثية) وهذا يخالف تلك الاحتفالات التي كانت تقام

في معبد قصر البنت وغيره، حيث كانت تقام في ما يسمى بـــ(المسرح الرئيس)[٣٦]. وبخصوص عدد هذه المعابد فإننا لا نملك أي إحصاء للأسف لها، ولكن يمكن القول أنها وجدت في كل أماكن تواجد الأنباط، وفي بعض المدن وجد أكثر من معبد، بل وجدت المعابد في أماكن نائية عن العمران البشري في بعض الأحيان، كمعبد "التنور"، ووجدت بعض المعابد أيضا في المدن التي كان للأنباط فيها جاليات أجنبية كمعبد مدينة "مينتولي" الإيطالية. وتراوحت عمارة هذه المعابد بين النمط البسيط كمعبد موقع سلع قرب السويداء الذي بني بالحجارة البازلتية الغشيمة، وذلك نظرا لفقر المنطقة، وبين المعابد الفخمة العمران كمعابد البتراء والجايه في وادي موسى ومعبد خربة الذريح قرب الطفيلة. وثمة مستوى آخر يمكن وصفه بالمعابد المتوسطة الجودة أو متوسطة الفخامة، كمعبد القصر في الربة قرب الكرك، ومعابد مستوطنات النقب.

وهذه أهم المعابد النبطية المكتشفة والمدروسة:

١- **معبد رم:** يقع على جبل رم، ويعود تاريخ تشييده إلى القرن الأول قبل الميلاد، وفي مخططه الأصلي تألف المعبد من بناية خارجية بطول ٣٥×٥٠ م، ويضم مقاما داخليا بطول ٤×٥ م، وفيه صومعة مفتوحة للشرق مع غرف جانبية. والإلهة الرئيسية التي وقرت في هذا المعبد هي الإلهة العظيمة، وأغلب الظن اللات، وربما أصلا كقرينة لدوشرا، والإلهة الأخرى هي بعل شمين (سيدة السماوات) والعزى (سيدة الينابيع)، حيث أن المعبد بالقرب من منطقة الينابيع، ويبدو أن هذا الرأي مقبول، حيث كان هناك نبع "عين الشلالة"، إضافة إلى مجموعة أخرى من الينابيع المجاورة الغي كانت لها القيمة العظيمة في تلك المنطقة الصحراوية الشاسعة، خصوصا للقوافل العابرة من الجزيرة العربية وإليها.

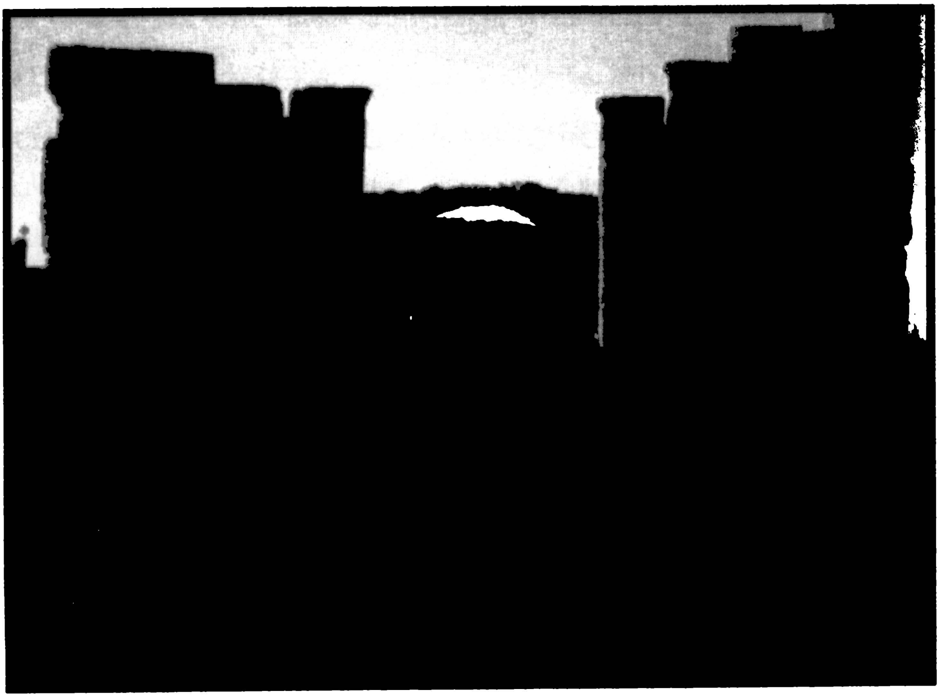
٢- **معبد خربة التنور:** موقعه بين الطفيلة ووادي الحسا (جنوب الأردن)، ويبعد حوالي ٨ كم إلى الشمال من معبد الذريح. وحجم المعبد ٣٦×٤٧ م، وكل البناية محاطة بجدار ذي مدخل واحد على الجهة الشرقية، وللبوابة أعمدة متوجة من الطراز الكلاسيكي

النبطي، للمعبد مقام داخلي يواجه الشرق، ويحتوي هذا المعبد على العناصر الضرورية للعبادة: مثلا مذبح لمحرقة وجد فيها (رماد وعظام الضحايا في حفر أرضية)، ومكان لحرق البخور على قمة المقام، ومكان لولائم العيد في الغرف الملحقة للمعبد.

٣- **معبد الذريح:** يقع هذا المعبد في الجهة الشمالية من خربة الذريح، وعلى الضفة الشرقية لوادي اللعبان قرب خربة التنور بمساحة ٤٥×١١٥ م، وعثر على نقش هناك يشير إلى أن لعين الماء هناك مسؤولا مسيطرا على شؤون الزراعة والري، وعثر داخل المعبد أيضا على نص مؤرخ إلى ٧ قبل الميلاد.

٤- **معبد قصر البنت:** يقع هذا المعبد عند النهاية الغربية لوادي موسى تحت جبل الحبيس، أي وسط مدينة البتراء تقريبا، وقد بني على منصة ضخمة زينت بنقوش زخرفية رائعة، ومساحة القاعة الداخلية ١٥٠ متراً مربعاً. ومساحة المعبد ٦٠×١٢٠ م، وتحتوي على مساحة أمامية مع ساحة مسقوفة وأروقة معمدة على ثلاثة جوانب، مع منصات على طول الجدران. وفي وسط المقدس، هناك غرفة مساحتها ٥ أمتار مربعة يتم الوصول إليها عن طريق درج. ويعود تصميم المعبد إلى طراز العصر البرونزي وإلى معابد سيدنا سليمان وهيرود في القدس(٣٧).

٥- **معبد قصر ربة:** تقع في قلب مؤاب شمال الربة قرب الكرك بقايا قصر الربة، وهي عبارة عن بناية معزولة عرفت كمعبد، وقد تم بناؤها من حجارة كبيرة بعناية ودقة عالية، ومساحة البناية ٢٧× ١٣،٦٠ م، مع مداخل ثلاثة وصومعة مقسمة إلى ثلاثة أقسام، وتعلو هذه الأقسام أقواس بنيت من الحجر المرصوص قبل أن يجري دعمها بالمونة "الملاط "، وواجهة البناية تتجه إلى الشرق كمعظم المعابد النبطية، ويتم الوصول إلى المدخل الرئيسي بعد المرور في رواق معمد وعميق دون مستوى الساحات الخارجية، وحول البناية الكثير من المرافق وساحة رئيسية وأعمدة ضخمة، ويبدو أن البناية لم تتعرض لتنقيبات شاملة إذ لا تزال أكوام من الأتربة والحجارة تنتشر حولها وتغطي الكثير من معالم الموقع.



الواجهه الأمامية لقصر ربة، وتظهر في الواجهه طاقات ربما استخدمت مقامات لبعض الأصنام، وتظهر كذلك الأقواس السقفية في الداخل وبقايا درج في الجدار الخلفي.(تصوير الباحث)

٦- معبد بعل شمين: ويقع هذا المعبد في "سيع" أو "سيعا" القريبة من السويداء جنوب دمشق بنحو ٨٠ كم. وهذا هو أكبر المقامات الدينية النبطية في تاريخ المملكة، ويتضمن كل سمات المعبد النبطي، ولهذا لا يندرج تحت تقسيمات المعابد الشمالية أو الجنوبية. ومساحة المعبد الخارجي ١٩×٢٠ م. ومساحة المقام الداخلي تبلغ ٨،٢٨×٧،٢٦م، ويمتلك أربعة أعمدة ذات قواعد حرة تشكل صومعة في الوسط، ومفتوحة للسماء،وقد تم العثور على عدد كبير من النقوش النبطية واليونانية في بقايا هذا المعبد ساعدت على تأريخ المراحل العديدة في حياة هذا المركز الديني الهام.

وقد كرس هذا المعبد لعبادة الإله بعل شمين "رب السماوات"، وقد عثر فيه على نص طريف ومفيد ثنائي اللغة يسجل "الشكر والاحترام والتقدير لماكت ابن معير، الذي تبرع ببناء المعبد بدافع الفضيلة والتقوى".

٧- معبد السويداء: والسويداء تقع على بعد ٨٠ كم إلى الجنوب من دمشق، وحولها أيضا العديد من المواقع الأثرية وأهمها "صلخد" و"سيع". ومعبد السويداء بني من الحجر البازلتي الأسود ويحتوي على العناصر الرئيسية للمعابد النبطية مثل: مقدس، صومعة، والجدران المقسمة من حوله، ويحوي على جدار خارجي على شكل بهو معمد وليس له أبراج سلمية.

٨- **معبد بصرى:** من غير المقبول ألاّ لا يكون للأنباط معبد في بصرى، وهي المدينة الشمالية النشطة والاستراتيجية قبل أن يحولها الرومان إلى عاصمة الولاية العربية، وما كان للرومان اختيارها عاصمة بعد البتراء إلا لأسباب وجيهة تتعلق بموقعها وحيويتها. واستدل على وجود معبد في بصرى من خلال مجموعة من بقايا الأعمدة التي فقدت رؤوسها، مما حدا بالبعض إلى اعتبارها بقايا شارع معمد.

٩- **معبد سحر:** سحر مدينة واقعة في الجزء الشمالي الشرقي لمنطقة اللجا (التراخونية)، وجد فيها معبد تصميمه يشبه تصميم معبد صور. ومساحته (١٨,١٠× ١٩,٥ م) وفي المعبد ثلاثة أروقة مع مصاطب، ويحتوي مركز الساحة المفتوحة على بقايا بناء بمساحة ٣,٣٢م مربع، ويملك المعبد رواقا ذا عمودين، ومحاطة ببرجين مشابهة لتلك العائدة لمعبد رم. وتبلغ مساحة المقام الداخلي ٧,٤٠ م مربع.

١٠- **معبد صور:** يقع في الجزء الشمالي الغربي للجا، وقد وجد فيها معبد نبطي بمساحة إجمالية ٤٥×٥٠ م، ومساحة المعبد نفسه ١٠×١٢ م فقط.

١١- **معبد عبدة (النقب):** هذا المعبد مقام على جدار مصطبة ضخمة مع برجين ذوي أدراج واقعة في الزوايا الشمالية الغربية والجنوبية الغربية للمصطبة التي تطل عليه. وفي حوالي منتصف القرن الرابع بعد الميلاد، هدم المعبد وبنيت كنيسة في الجزء الشمالي منه.

١٢- **معبد الأسود المجنحة:** يقع هذا المعبد في وادي البتراء، على بعد ما يقرب من (٢٠٠) متر شمال شرقي معبد قصر البنت، ويعود تاريخ بنائه إلى فترة حكم الحارث الرابع (٩ق.م- ٤٠ م). وسمي بهذا الاسم لوجود بعض الرسومات التي تخص

أنواع "السنوريات" المجنحة كالأسود والنمور الموجودة على تيجان أعمدة المعبد[٣٨]، والمعبد منحوت في لحف الجبل، وفيه أسدان متقابلان على جانبي الباب. يتطابق في هذا المعبد تمثيل الكتل الحجرية مع الآلهة الاسمى في البتراء. وتشير موجوداته والصومعة ذات التقسيم الثلاثي إلى إلهة سامية. وفيه غرفة كبيرة واحدة (٣٨× ٣٣ م).

١٣- **معبد روافا (شمال الجزيرة العربية):** على الرغم من أن عشيرة ثمودية تدعى "روابث" قد بنته، لكن مظاهره المتنوعة ذات طابع نبطي، ويقع هذا المعبد في شمال غرب الحجر، وكرس للإمبراطور الروماني ماركوس أورليوس، ولوكيوس فيروس.

١٤- **معبد تل الشقيفية (مصر):** اعتادت الجاليات النبطية بناء معابد لها أينما حلت، ومن هذه المعابد التي تسـمى مقدس، مقدس تل الشقيفية الذي يرجع للقرن الأول بعد الميلاد، ويتناظر هذا المعبد مع معبد الأسود المجنحة في البتراء، ومعبد وادي رم.

١٥- **معبد بيتولي (إيطاليا):** وهو معبد نبطي صغير وجد في بيتولي بناه التجار الأنباط في أثناء رحلاتهم التجارية المختلفة بعيدا عن الوطن، وهناك كانوا يتعبدون لآلهتم الأصلية من أجل حمايتهم.

١٦- **معبد أم الجمال:** وهو عبارة عن بقايا حجرية لمعبد صغير ذي واجهة حجرية، والمعلومات قليلة عن هذا المعبد.

١٧- **معبد جرش:** كانت جرش واحدة من مدن الديكابوليس وراحت تزدهر في العهد الروماني، ولم يرد إلينا أية دلائل على وجود جالية نبطية فيها، ولكن المنطق يفترض وجود مثل هذه الجالية ما دامت مفتوحة لكل من رغب بالمتاجرة، وقد وجد في جرش عدد كبير من النقود النبطية مما يرجح هذا الاحتمال، وقد تم اكتشاف بقايا مهمة لمعبد نبطي، وهي تحمل اسما نبطيا " جرشو"، وهذا المعبد شبيه بالمعبد الثلاثي في مؤاب.

١٨- **معبد ذيبان (ديبون):** ويعتقد الأثريون أن هذا المعبد يعود إلى فترة الحارث الرابع. لكن استمرار استيطانه واستخدام حجارته في مختلف العصور لم ييسر رسم مخطط واضح له. ويقع في خرائب قرية ذيبان الحالية من أعمال محافظة مادبا

في الأردن، وذيبان كانت ذا شأن كبير زمن مملكة المؤابيين وربما كانت عاصمتهم. وقد أثبتت الحفريات الأثرية أن الموقع كان مأهولا منذ أوائل العصر البرونزي (حوالي ٣٠٠٠) قبل الميلاد، وتقع قرية ذيبان على الطريق الواصل بين مأدبا والكرك[٣٩].

١٩- **معبد التوانة:** ويقع على الطريق السلطاني (طريق تراجان)، وقد بني من الحجارة المحلية التي يغلب عليها اللون الأسود التي تشبه حجارة أم الجمال[٤٠].

٢٠- **أماكن تعبدية أخرى:** ومنها المعليات: والمعليات أماكن للعبادة اختيرت أن تكون في الأماكن العليا من الجبال، وهي عبارة عن مساحة كبيرة ذات شكل بيضوي محفورة في الجبل في وسطها مذبح للعطايا، وأفضل نماذج المعليات موجود في البتراء، وهي شائعة فيها[٤١]. ومن المحتمل أن تكون هذه المعليات من الثقافة الدينية للأدوميين، ويذكرنا نمط العبادة فيها بأساليب الكنعانيين في العبادة، وهي تتلخص في تقريب القرابين للآلهة في الأماكن المرتفعة، وغالبا ما كانت تستخدم الأنصاب الحجرية وسيطا بين العابد وربه، وعليها يجري القيام بالطقوس المهمة من الذبح وتقديم اللحوم وحرقها وسكب الدم أو الدهون عليها تقربا للالهة. وقد عرفت مثل هذه الأماكن عند الكنعانيين ويبدو أنها كانت أكثر الظواهر الدينية انتشارا مما دعي "العهد القديم" للاستمرار في مهاجمتها[٤٢].

والشكل الثاني من أشكال أماكن العبادة هو "الموتاب": ويبدو أن الموتاب تعبير يشير إلى "قاعدة العرش" للآلهة، ولهذا العرش يكن الأنباط التبجيل والتقديس، ذلك لأن الإله نفسه، شيء روحي لا يمكن تصوره، ويبدو أن مثل هذه المفاهيم كانت سائدة في مرحلة مبكرة من الديانة، ذلك أن نزوع الأنباط إلى تصوير الآلهة جرى بتشجيع الحضارات الأخرى، وربما بتأثير الحضارة السورية والهلينية أغلب الظن.

ثالثاً- بعض المعتقدات والمفاهيم والشعائر الدينية النبطية:

بما أن الأنباط لم يتركوا لنا نصوصاً مكتملة أو تسجيلية لمعتقداتهم أو دينهم مثل شتى نواحي حياتهم ؛ فإن معلوماتنا - وللأسف - غير مكتملة في هذا الجانب، والكثير مما تم الحصول عليه كان بحكم التقديرات التي تم استنباط معظمها من خلال النقوش القصيرة وبعض الإشارات التي وجدت في وثائق الأقوام المعاصرة لهم وأدبياتهم، مما يستلزم معه الكثير من التمحيص قبل التسليم بها.

أولاً- تطور المفاهيم والمعتقدات والرموز الدينية:

يشار في هذا الصدد إلى قوانين التطور الطبيعي التي ظلت تغير وتبدل من هذه المفاهيم والتصورات الدينية، ومن المتفق عليه أن الأنباط مروا في مرحلتين أساسيتين كما أسلفنا: مرحلة البداوة ومرحلة الاستقرار. لكنني أنبه دائما إلى أن طبيعة التطور في المجتمعات عامة والشرقية خاصة لا تلزم جميع الفئات والشرائح بسنن هذا التطور، ويصدق هذا الافتراض في أيامنا هذه مع ما وصلنا إليه من تقدم هائل في شتى المجالات، ومع ذلك لا تزال فئات وشرائح عريضة في مجتمعاتنا تتمسك بعناصر الثقافة القديمة التي كانت سائدة منذ آلاف السنين كنمط حياة البداوة مثلا، وفوق ذلك العديد من القيم والتصورات والمعتقدات الدينية.

وتكثر الاجتهادات، خصوصا للمستشرقين في طبيعة أماكن العبادة وعلاقتها وأهميتها أو مكانتها في النظام الديني لدى الأقوام السامية، ويقيننا أن الأمر ظل يخضع لقوانين التطور الطبيعية التي كانت ترافق التطور من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار الزراعي ثم التطور المدني. فالبداوة لم تكن لتحفل كثيرا بالدين خصوصا في ناحيته الطقسية والشعائرية، في حين أن مجتمعات الزراعة المستقرة كانت مضطرة للجوء إلى التفسير الديني (الميتافيزيقي) لمساعدتها في فهم الظاهرات الزراعية والمناخية ومن ثم لمحاولة تحسينها بالتوجه إلى تلك القوى الغيبية، وهي في هذه المرحلة بدأت تضطر لتنظيم مفاهيمها الدينية وبدأت مضطرة أكثر لتجسيد بعض هذه المفاهيم كالآلهة والمعابد، التي بدأت بالأنصاب المصنوعة بيد الطبيعة، ثم المهذبة فيما بعد، ومن ثم في

العصر المديني كان من الواجب أيضا تزويدها بأفضل ما لدى المدنية من فنون زخرفية ومعمارية.

ثانيا- مفهوم الحياة الآخرة:

لا نملك الجزم بشأن موقف الأنباط من مفهوم "ما بعد الموت"، ولا يزال الخلاف والجدل مستعرا في هذا الشأن بين الدارسين، والملاحظ أن الدراسات الأجنبية تميل إلى اعتبار أن الأنباط لم يكن لديهم مفهوم أو إيمان بحياة آخرة، وقد يستثنى من ذلك بعضهم أمثال، جلوك الذي أثار إهتماما واضحا برمزية الدلافين التي وجدت في قبور الأنباط في "كرنب" في النقب، وقد أشار إلى أن وجود هذه الدلافين إنما لتضمن للروح عبورا آمنا عبر الدهاليز إلى الحياة الآخرة(٤٣). ويلفت الانتباه "دالمان" إلى وجود بعض السراديب والأقبية ورموز مختلفة في بعض المعابد مما يومىء بوجود مفهوم للحياة الآخرة عندهم(٤٤). لكن أهم وأقوى حجة لدى المعتقدين بإيمان الأنباط بحياة آخرة تمثل في القبور التي هي أهم مظاهر حضارة الأنباط المادية والعمرانية ؛ فهذه القبور وهذا الاهتمام الكبير بها والكلف العالية لبنائها لم تكن لتقوم لولا إيمان الأنباط بأهمية مرحلة ما بعد الموت.

وثمة تعارض حقيقي بين الاتجاهين مما لن يجد توفيقا مقنعا حتى الآن، ومن المحتمل أن نظرة الأنباط للحياة الآخرة كانت موجودة لكنها مخالفة لتصوراتنا الدينية التي تكاد تنحصر في فكرة البعث ثم الحساب ثم الخلود أو الأبدية. وأشار بعض الدارسين إلى أن مفهوم الدين لدى الأقوام السامية الوثنية مفهوم حسي، أي أنه لا ينتظر ثواب الآخرة بقدر ما ينتظر جزاء الدنيا العاجل كزيادة المحصول أو سقوط المطر أو أمن السفر..إلخ. ومن المحتمل أيضا أن مفهومهم كان يفصل ما بين بعث الروح "النفس" وجانبها الآخر "الجسد". وهذا ما أشار إليه غاوليكوفسكي(٤٥) ونناقش تاليا مفهوم النفس والروح لتوضيح الأمر.

ثالثا – النفس: الروح:

على ما يبدو أن الأنباط عرفوا مفهوم النفس (الروح) وفرقوه عن مفهوم الشخص أو الفرد، فالفرد يتكون من (روح – نفس) و (جسد) ؛ ولفظة نفس العربية

تقابلها لفظة "نيفش Nephesh " العبرية، وتطلق على نفس كل كائن حي من إنسان أو حيوان[٤٦]، وبهذا المعنى وردت في العهد القديم " وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية بحسب أصنافها بهائم ودبابات ووحوش أرض بحسب أصنافها... (التكوين، ٢٧/١ وما قبلها). أما الروح فتقابل في العبرانية كلمة Ruach ولفظة Spirit في الإنكليزية[٤٧]. ويبدو أن الأنباط لم يفرقوا بين النفس والروح، أو أننا لا نزال نجهل ذلك. لكن الأنباط حرصوا في بناء قبورهم على وضع النصب التذكاري للقبر ويسمى "نفش" وهي تعني (نفس أو روح) بالعربية، وتحمل في أحيان كثيرة اسم الشخص المتوفى[٤٨]. والنفش ضروري جدا للقبر، وهو أحد عناصر التذكار المعنوية للمتوفى[٤٩] ومن المعروف أن مثل هذا التقليد ظل مستخدما في المجتمعات العربية وغيرها أيضا على الرغم من عدم تشجيع الإسلام على ذلك، وهو يسمى في أيامنا هذه بـــ"الشاهد" أو "الشاهدة" وهو يحمل أيضا اسم المتوفى وربما معلومات أخرى كتاريخ الولادة والوفاة والبلد الأصلي، وغالبا عبارات دينية من أهمها "كل نفس ذائقة الموت" من القرآن الكريم. وفي الطوائف المسيحية أيضا تقاليد مشابهة. ويشرح د.جواد علي مفهوما آخر لعرب الجاهلية عنوانه "الهامة"؛ فقد كان من زعم بعض الناس أن الإنسان إذا مات أو قتل اجتمع دم الدماغ أو أجزاء منه، فانتصب طيرا هامة، ترجع إلى رأس القبر كل مئة سنة[٥٠]. وقد ظل مثل هذا المفهوم ساريا في بعض زوايا مجتمعاتنا العربية، وعلى ما نعرف في بلاد الشام والجزيرة العربية على الأقل، والبعض يعتقد أن " طير الهامة " هذا يظل مرفرفا حائرا متعذبا لا يقر له قرار حتى يؤخذ له بالثأر، وبذلك تهدأ نفس الميت وتستريح في عالمها. وعلى الأرجح أن فهم الأنباط كان قريبا من فهم عرب الجاهلية لمفهوم الروح الذي هو نفسه مفهوم النفس، وهذا الفهم كان لا يزال يسري في الاعتقادات العربية إلى وقت قريب، ومن المؤكد أن بعض الأفراد والجماعات لا تزال تتبنى مثل هذا المفهوم، ويبرز ذلك أكثر ما يبرز في التصرفات المتعلقة بالثأر في المجتمعات العربية، خصوصا البدوية.

فإذا صح ما قدر عن تفريق الأنباط بين الجسد والروح أو النفس فإن ملاحظة سترابو حول عدم اهتمام الأنباط بدفن موتاهم تكون مقبولة ومفهومة. وليس ثمة ضرورة لإنكار ذلك ما داموا لا يعيشون في زمننا هذا.

رابعاً – عادات دفن الموتى:

يورد (يونس الشديفات)[٥١] معلومات وافية ومهمة عن عادات الدفن لدى الأنباط ومن خلال دراسته لعدد كبير من قبور الأنباط في خربة الذريح (جنوب الأردن)، نحاول تلخيص أهمها فيما يلي:

أ – يختص كل قبر بنصب تذكاري صنع على شكل مثلث من الحجر الكلسي المتقن الدق.

ب – وجدت بعض النقود الموضوعة في أفواه الأموات، ومن المحتمل أنهم زودوا بها لتعينهم على الانتقال للعالم الآخر، وتعود هذه القبور للفترة (١١٠- ١١٥م) وظل المدفن طور الاستخدام حتى القرن الرابع الميلادي. ومن المحتمل أن مثل هذا الطقس انتقل للأنباط بتأثير العادات اليونانية، إذ أن النقود حسب مفهومهم كانت تدفع لحارس بوابة العالم السفلي. وعثر أيضا على نقود ذهبية وغيرها مثل المجوهرات الذهبية. ومن المحتمل أن البيزنطيين هم من زودوا القبور بالذهب والمجوهرات.

ج – استخدم الأنباط الأكفان من القماش الكتاني والجلود، وعثر أيضا على أحذية جلدية وخرز وخلخال في القدم اليمنى لأنثى. مما يشير إلى فهم غامض للحياة الآخرة.

د – عرف الأنباط أو بعضهم عادة حرق الميت بالجير غير المطفأ، ويعمل الجير على إذابة الجثة وتكليسها، ويبدو أن هذه العادة عرفت بتأثير اليونانيين والرومان.

وتجب الإشارة إلى ما أوردناه سابقا بخصوص إشارة سترابو بشأن عادة حرق الموتى...التي لا يزال الجدل حولها قائما دون إمكانية ترجيح أي من الآراء المعارضة أو المؤمنة بهذه الملاحظة.

خامساً- العبادات:

ليس ثمة معلومات كافية لنعرف أشكال العبادة عند الأنباط، ومع ذلك عرفت مؤشرات عن بعض ملامح العبادات التي تأتي في إطار الطرق السامية في العبادات والتصورات الدينية وطقوسها. فقد كان الأنباط يحجون إلى معبد صنمهم ذي الشرى باحتفال سنوي مهيب، وكان الناس يقصدونه من أماكن نائية، وقد بنوا له معبدا سامقا

في الجو على الجبل في الموضع المعروف باسم "الدير" يرتقي المتعبدون إليه سلالم طويلة، كما أن جدران المعبد كانت مكسوة بغشاء من الذهب والتصاوير الجميلة التي تمثل تقديم القرابين إلى الصنم. وكان لمعبد (ذي الشرى) حج يقع في اليوم الخامس والعشرين من شهر كانون الأول من كل عام، فيفد إليه الناس من أماكن بعيدة للتقرب إلى (رب البيت)، فينحرون ويقضون الأيام المعينة، ثم يعودون إلى ديارهم، والظاهر أن هذه الكعبة لم تكن خاصة بأهل (العربية النبطية)، إنما كانت حجة لغيرهم من العرب[٥٢]. وقد يكون معبد رم ثم معبد الذريح ومعبد السويداء (بعل شمين) من هذه المعابد التي يحج إليها، ومن المؤكد أن المآدب والأضاحي الحيوانية كانت ركنا أو عنصرا أساسيا في العبادة النبطية،. وكانت المدافن والمعابد تحتوي على أماكن خاصة للطعام كانت تسمى "مصاطب ثلاثية"[٥٣] وقد لعبت هذه المواقع دورا مهما في شعائر التعبد. ومع أننا لم نعثر على معلومات وافية عن المحارق وكيفية التعاطي معها، فقد كان – على الأغلب – يرمى عليها بعض أجزاء الضحايا مشوية أو نيئة، ومثل هذه العادة كانت معروفة لدى الأقوام السامية ومنها اليهود والكنعانيون، وظلت موجودة في عصر الجاهلية إلى أن جاء الإسلام فهدم أركان الوثنية، ومع كل هذه العصور فإن الدارس لبعض عناصر "أعمال السحر" والتعاطي مع "الجان" سيلاحظ أنها لا تزال تستخدم هذه العادة في بعض "الحالات المستعصية" من باب إرضاء الجن على خلل أو خطأ ما وقع من قبل البشر، ولا يستبعد أن تكون هذه العادة واحدة من بقايا الشعائر التعبدية لدى الأقوام القديمة قبل الأنباط وبعدهم، والمآدب كانت طقسا أساسيا في عبادات الأنباط، خصوصا بعد دفن الأموات، ولا غرابة أن مثل هذا الطقس لا يزال يسري في المجتمع العربي بشكل واسع. أما التبخير فكان لا بد من حرق البخور فيها، فيبخر بها المذبح والأصنام كما يتبخر القائمون بإداء تلك الفروض، وبقايا هذه الشعيرة لا تزال أيضا موجودة في المجتمعات العربية وفي المجتمع المصري على الأكثر، إذ يقوم بعض القائمين على الكنائس بحمل المجمرة وحرق بعض البخور وهو يدور بها في أرجاء الكنيسة وحول المؤمنين تبريكا لهم بدخانها، ويمكن ملاحظة مثل هذه العادة في بعض المساجد الإسلامية وإن كان ذلك نادرا حيث حل الطيب محل البخور. أما

الصلوات فليس ثمة مؤشرات كافية لاستخلاص بعض المعلومات عنها باستثناء ملاحظة المسارح أو الساحات التي كانت ضمن حرم المعابد، ومن المحتمل أن هذه الساحات استخدمت لإلقاء المواعظ أو قراءة الصلوات والأدعية الموجهه للآلهة، ومن الثابت أن للمعبد "قدس الأقداس" الذي – ربما – كان يمثل محور العبادة أو ذروتها.

سادساً- الأنصاب والبخور والأشجار ودورها:

أما النصب: وجمعها أنصاب: فهي حجارة منصوبة كما يقول ابن الكلبي في كتابة "الأصنام " إنه كان للعرب حجارة غير منصوبة يطوفون بها ويتعرون عندها، يسمونها الأنصاب، ويسمون الطواف بها الدوار، ويقول ابن جريج كما يروي الطبري أن النصب ليست بأصنام، الصنم يصور وينقش، وهذه حجارة تنصب ثلاثمائة وستين حجرا (كذا) فكانوا إذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أقبل من البيت وشرحوا اللحم وجعلوه على الحجارة. ويتضح ان الأنصاب أحجار وليس من الضروري أن تكون مصقولة أو بشكل تماثيل تشبه الآلهة، ولكنها قد تشكل حلقة وصل بين الإله والناس[٥٤]. وفي العهد القديم ثمة نص واضح يعكس العادة السامية في هذا الشأن "فاستيقظ يعقوب من نومه وقال إن الرب لفي هذا الموضع وأنا لم أعلم، فخاف وقال ما أهول هذا الموضع ما هذا إلا بيت الله هذا باب السماء، ثم بكر يعقوب في الغداة وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه وأقامه نصبا وصب على رأسه دهنا، وسمى ذلك الموضع بيت إيل وكان اسم الطريق أولا لوز... وهذا الحجر الذي جعلته نصبا يكون بيت الله وجميع ما ترزقينه أعشره لك تعشيرا " (التكوين، ٢٨/١٦-٢٢). وقد كشفت لنا آثار أوغاريت الشيء الوافي عن ديانة الشعوب السامية، خصوصا الكنعانيين الذين على ما يبدو ابتدأت عبادتهم بواسطة الأنصاب، التي أختيرت كمركز أو كحجارة مقدسة يتم بواسطتها الاتصال بالآلهة، ولم يكن الكنعانيون مولعون بتمثيل آلهتهم حتى وقت طويل إلى أن بدأ بعل يظهر وبيده رمز الصاعقة[٥٥].

ولا يستبعد د.جواد علي أن تكون المذابح التي توجد في بعض المعابد هي من تلك الأنصاب القديمة ما دام أن وظيفة النصب هي الذبح عنده وتقديم الضحايا والعطايا من خلاله. ومثل ذلك يمكن أن يقال عن المحارق التي وجدت أصلا بمثابة أحجار

عادية على الأرجح[٥٦]. إن تفحص هذه المذابح وخصوصا ارتفاعها يجعل افتراض أن ذبح الأضحية الحيوانية فيها أمرا منطقيا، وثمة مذابح لا تزال بحالة سليمة أحدها في متحف آثار عمان والآخر في ردم معبد قصر ربة، ويبلغ ارتفاع الواحد منها حوالي ٨٠سم، وإذا ما غرس في الأرض عشرين سم فإن ارتفاعه مناسب جدا لذبح الأضاحي من الضأن بينما هي واقفة في صحن المذبح.

ومن المعروف أن الأنباط كانوا قد صوروا إلههم الأهم ذا الشرى على شكل نصب حجري مكعب أسود طوله أربعة أقدام وعرضه قدمان[٥٧]. وقد كان انتقال الأنباط من حياة البداوة عبر شبه البداوة إلى حياة مستقرة العامل الأول في تطوير الدين على مستوى المعبود والشعائر والمعتقدات والمؤسسات الدينية[٥٨]. ولا بد أنهم مروا في مرحلة العبادة من خلال الأنصاب مثل الأقوام السامية الأخرى الموجودة في المنطقة.

وعرف دين الأنباط المحارق والمباخر التي كانت ضرورية في الشعائر الدينية أغلب الظن، ومع أننا لا نملك معلومات وافية عن المحارق في المعابد العربية باستثناء ما عثرت عليه الحفريات في الكثير من المعابد من هذه المباخر أو المحارق الحجرية ،وطقوس الحرق والتبخير كانت معروفة لدى العبرانيين، وهم على الأرجح جاؤوا بها من المصريين الذين يعزو إليهم هيرودت نشر ثقافة البخور، ولا يغالي هيردوت الحقيقة إذا ما تذكرنا أن البخور كان أهم البضائع التي كانت القوافل العربية تنقلها إلى مصر منذ عصور بعيدة.

ومن المحتمل أن يكون فهم الأقوام القديمة لوظيفة البخور مشابه لما أشير إليه في بعض كتب التراث ومنها " الفلاحة النبطية لابن وحشية " (شجرة المر): ويقول عنه الكنعانيون إن هذه الدخنة ترضي الزهرة ويتقرب بها إليها ومن أراد أن يتلو عزايم الزهرة قدام صنمها فليقدم تدخين هذه الدخنة ويزمر ويطبل...[٥٩]

تقديس الأشجار: يشار كذلك إلى أن الأنباط ربما عرفوا عبادة الأشجار أو تقديسها، والاعتقاد بقدسية الأشجار كانت لا تزال شائعة في المجتمعات العربية إلى وقت قريب في القرن العشرين. مثلما كانت شائعة في مجتمع الحجاز حتى صدر الإسلام مما دعا الخليفة عمر بن الخطاب للأمر بقطع شجرة الحديبية بعد أن تعلق

المسلمون بها لدرجة التقديس، وشجرة " ذات الأنواط " كانت من الأشجار المشهورة والمقدسة عند قريش حتى فتح مكة[٦٠]. وقد سبق أن اشرنا إلى ما ورد في التراث العربي من أن "العزى" شجرة بغفطان كان يعبدها العرب، فأمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) خالد بن الوليد فقطعها. ولا يزال المسلمون والمسيحيون في سورية وفلسطين اليوم يؤدون واجب الاحترام للأشجار وهي عادة من البلوط أو الصنوبر التي تنمو قرب ينبوع أو قرب قبر أحد الأولياء او القديسين، وتشاهد اليوم قطع الثياب مربوطة بشجرة مقدسة عند "أفقا" حيث ينبع نهر إبراهيم[٦١].

ومثل هذه الاعتقادات لا تزال بقاياها في المجتمع الأردني وغيره من المجتمعات العربية، وثمة شجرة في صحراء السرحان شرقي الأردن تتمتع بمكانة مقدسة أو مبجلة لدى أبناء المجتمع المحيط، ومثلها شجرة من عائلة "الزعرور" قرب مقام النبي شعيب قرب مدينة السلط. وقد سجل (مفلح العدوان) ووثق عشرات المقامات المقدسة في القرى الأردنية من شماله حتى جنوبه، وقد تنوعت هذه الأشجار من بطم وزيتون وسنديان وصنوبر.. الخ. وهي غالباً ما ترتبط بقبر ما يعتبرونه ولياً صالحاً أو نبع ماء قديم أو حادثة لم يتبقى منها سوى شظايا من قصة أو بقايا من رمزيات لا يعرف أصلها[٦٢].

ورصد توفيق كنعان[٦٣] العديد من الأشجار المقدسة في أرجاء فلسطين التي كانت تتلقى التقديس والتبجيل من مختلف الأديان والطوائف الدينية في فلسطين. ولاحظ أن الشجرة غالبا ما تكون منعزلة أو بجانب نبع ماء أو كهف، ومن أهم الأشجار التي لاقت هذا الاهتمام: البلوط، والتين، والخروب، والزيتون، والتوت، والسدر أو النبق، والبطم، وأشجار أخرى كثيرة.

وقد عرف عن وجود هيئة دينية "سدنة" للمعابد النبطية[٦٤]. ويستشف من بعض الإشارات الأثرية أن بعض الملوك حاولوا اكتساب مكانة دينية مما دفع بعض الدارسين إلى الاعتقاد بوجود عبادة ملكية، ويبدو أن الملك عبادة الثالث هو أكثرهم شهرة في هذا الصعيد، ومن المحتمل أن يكون الملك على رأس هذه الهيئة الدينية العليا في بعض الأحيان تأثرا بالحكام المصريين، وعلى الأغلب أن الملك على ما يبدو لا يباشر شعائر او طقوساً أو إجراءات عملية في المعابد، ويقوم بهذه المهة الكاهن "الإفكل".

فالأفكل (أ ف ك ل) أي " الكاهن: هو المسؤول عن إدارة شؤون المعبد الدينية كإقامة الطقوس التعبدية داخل المعبد أو الشؤون الإدارية التي تتضمن الإشراف المالي لوارداته وصادراته، ويبدو أن الغرامات المفروضة للمعابد والتي وردت في الكثير من النقوش كانت أحد المصادر الرئيسية لمالية المعابد إضافة إلى الأوقاف والهبات[٦٥]. وعرف من بعض النقوش " أن للمعبد حقا فيما يسمى الصنور وهي من العشر "، وهذه للمعبد والكهنة من الدخل للفرد[٦٦].

سابعاً- التشريع:

غيرأن بعض الدارسين لاحظوا أن الدين كان المصدر الرئيسي أو مصدرا رئيسيا للتشريع في المجتمعات القديمة. وأكثر من ذلك كان الدين هو المصدر الرئيسي للتصورات والمفاهيم في شتى مجالات الحياة والعلم أيضا، وهذا لا يعني ان كل القوانين والشرائع والرؤى والأنظمة كان مصدرها دينيا، بل إن الكثير منها ألبس عباءة الدين للاستعانة بالدين لإضفاء الهيبة والاحترام والثبات على تلك التصورات أو الأنظمة أو المفاهيم[٦٧]. ومن أمثلة ذلك ما حملته بعض نصوص اللعنات التي كانت تفرض غرامات محددة للآلهة في حال حصول التعدي على حرمات المقابر.

ثامناً- الأعياد:

أشار (جلوك) إلى وجود موسمين من الاحتفالات لدى الأنباط، واحد في فصل الربيع وآخر في فصل الخريف، وهذه المواسم نفسها التي كانت الشعوب السامية تحتفل بها[٦٨]. فإذا ما أضفنا ذلك إلى ما أورده د.جواد علي عن قيام الأنباط بالحج إلى معبدهم "الدير" في البتراء، وأنهم كانوا يقومون بالطواف حول "قدس الأقداس" - الذي يشكل مركز المعابد النبطية أو نواتها- وأن هذا التقليد ربما جاء من عرب الجزيرة[٦٩]. فيمكن الافتراض -بدون تحقق -أن أعياد الأنباط كانت أعيادا دينية أو ذات لبوس ديني. ويشير (ستاركي) إلى أن حد طقوس الاحتفال بالعيد تسيير موكب من الجمال عبر المدينة إلى منطقة المذبح حاملة معها "الموتاب - العرش"[٧٠]. ولعل بقايا صورة القافلة في نهاية السيق

والتي تتكون من عدد من الجمال ما كانت إلا احتفاء بهذه المناسبة لا احتفاء بقدوم القوافل التجارية.

والظاهر أن الناس كانو يغتسلون ويتوضؤون قبل القيام بطقوس العبادة استنادا إلى ما عثر عليه من الأحواض المائية الكثيرة والملازمة للمعابد[٧١]. وعرفت مثل هذه العادة لدى الشعوب السامية، خصوصا السورية والكنعانية قبل معرفة اليهود والمسلمين لها[٧٢].

مراجع الفصل الثالث وهوامشه:

١- إحسان عباس، ٢٠٠٧/ ١٢٨
٢ - جواد علي، المفصل، ٦/ ٢٥٢
٣ - عبد عون الروضان، موسوعة تاريخ العرب، ج١ / ٣٥
٤ - علي حسين خلف، ١٩٩١/ ١١
٥ - سلطان المعاني، ٢٠٠٤/٣٩
٦ - فأقم وجهك للدين حنيفا " مائلا إليه، مستقيما عليه، غير ملتفت إلى غيره من الأديان الباطلة " فطرة الله التي فطر الناس عليها " فطرهم الله على الإسلام لولا عوارض تعرض لهم فيبقون بسببها على الكفر، كما في حديث أبي هريرة الثابت في الصحيح قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، ولكن أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه " وفي المسند عن عياض أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خـطب يوما، فقال في خطبته حاكيا عن الله سبحانه: "إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم"
"لا تبديل لخلق الله" أي: لا تبدلوا خلق الله، بعبادة غير الله بل ابقوا على فطرة الإسلام والتوحيد "ذلك الدين القيم" أي: لزوم الفطرة هو الدين المستقيم، "ولكن أكثر الناس لا يعلمون " ذلك حتى يفعلوه ويعملوا به. (مختصر فتح القدير للشوكاني).
٧ - احمد العجلوني، ٢٠٠٢/١٩٠-١٩١
٨ - إحسان عباس، ٢٠٠٧/ ١٢٩
٩- محمود سليم الحوت، في طريق الميثيولوجيا عند العرب، ط٢، بيروت، ١٩٧٩/ ٢٥٩
١٠ - Gluck.N,1965;454
١١- عاطف الشياب ،١٩٩٠/٢٠
١٢ - الذيب ١٩٩٨، لق ١٩١: ٤-٥ ،
١٣ - Hammond 1973;103
١٤ - هتون الفاسي، ١٩٩٣/ ٢٣٠
١٥ - دي لا سي أوليري ،١٩٢٧- ١٩٩٠/ ٢١٣.
١٦ - إبن كثير، تفسير إبن كثير ٤ / ٢٥٣ وما بعدها
١٧ - احمد العجلوني، ٢٠٠٢/٢٠٤
١٨ - جواد علي، المفصل، ج ٦/ ٢٢٢-٢٢٣.
١٩ - Gluck.N,1970;211-240 إحسان عباس، ١٩٨٥/ ١٣٢-١٣٤

٢٠- هتون الفاسي ٢٣٨/١٩٩٣
٢١ - احمد العجلوني، ١٨٩/٢٠٠٢
٢٢ - جواد علي، المفصل، ج ٦ / ٢٥٠
٢٣ - احمد العجلوني، ٢٠٦/٢٠٠٠
٢٤ - علي حسين خلف، ١٩٩١/ ١١
٢٥ - احمد العجلوني، ٢٠٦/٢٠٠٢
٢٦ - زيدان الكفافي، ٣٢٨/٢٠٠٦
٢٧ - جواد علي، المفصل، ج ٢٥٣/٦
٢٨ - جواد علي، ٣٣١/٦
٢٩ - العجلوني ، ١٩٩/٢٠٠٠
٣٠ - احمد العجلوني، ٢٠٠/٢٠٠٢
٣١ - إحسان عباس ٢٠٠٧/ ١٣٤-١٣٦
٣٢ - هتون الفاسي ٢٢٧/١٩٩٣
٣٣ - احمد العجلوني، ١٩٩/٢٠٠٠
٣٤ - احسان عباس ٥٢/٢٠٠٧
٣٥ - احمد العجلوني، ٢٠٨/٢٠٠٢
٣٦ - عاطف الشياب، ٣١/١٩٩٠
٣٧ - G.R.H.Wright.Structure of the Qasr Bint Far,un. APrliminary Review,in PEQ 93,p.8-38.
٣٨ -. عاطف الشياب، ١٩٩٠/ ٥٤
٣٩ - عاطف الشياب، ١٩٩٠/ ٨٩
٤٠ - عاطف الشياب، ١٩٩٠/ ١٠٤
٤١ - احمد العجلوني، ٢٢٠/٢٠٠٢
٤٢ - فيليب حتي، ١٩٥٨، ١٣٢
٤٣ - Gluck ,N.The Other Side..,p222
٤٤ - .Dalman,G " Petra und Seine Felsheiligt Umer. Leipzig
٤٥ - Gawlikowski ,1975:41
٤٦ - جواد علي، المفصل، ج ٦ / ٢٠
٤٧ - جواد علي، المفصل، ج ٦/ ١٣٨ .
٤٨ - Zaydaine 1980;20

٤٩ - Starcky 1965;43-44
٥٠ - جواد علي، المفصل، ج ١٣٩/٦
٥١ - يونس يونس شديفات، ١٩٩٤
٥٢ - جواد علي، المفصل، ج ٦/ ٤١٦
٥٣ - Gluck.n 1965;163
٥٤ - الروضان، عبد عون ،موسوعة تاريخ العرب / ٢٦٥
٥٥ - فيليب حتى، ١٩٥٨، ١٣٢
٥٦ - جواد على، المفصل، ج ٦/ ٤٢٤
٥٧ - الخطاطبة، ٧٦/٢٠٠٦
٥٨ - إحسان عباس، ٢٠٠٧، ١٢٧
٥٩ - ابن وحشية١٩٩٥/ ج٢/ ١٢٥٧.
٦٠ - الروضان ،عبد عون ،موسوعة تاريخ العرب / ٢٦٧
٦١ - فيليب حتى، ١٣٠/١٩٥٨
٦٢- مفلح العدوان، ٢٠٠٨/ الجزء الأول.
٦٢- توفيق كنعان، الأولياء والمزارات الإسلامية في فلسطين، ٥٧/١٩٨٨
٦٣- هتون الفاسي، ٤٢٥/١٩٠٠
٦٤ - سليمان الذييب، ١٩٩٨/ ٤-٦
٦٥ - هتون الفاسي، ١٩٩٣/ ١٤٤
٦٦ - هتون الفاسي، ١٤٤/١٩٩٣
٦٧ - Gluck.1965:410-420
٦٨ - جواد علي، المفصل، ج، ج٥م ١٠١، كذلك أنظر: زيدان المحيسن.
٦٩ - Starky,The Nabataeans ,11
٧٠ - خالد الحموري، ٣٣/١٩٩٧
٧١ - فيليب حتي، ١٣٠/١٩٥٨

الفصل الرابع

المجتمع وأنظمته

السياسية – الاقتصادية- القيمية

المجتمع وأنظمته السياسية – الاقتصادية– القيمية:

أولا – الاقتصادي النظام:

(التجارة والصناعة، الزراعة، الرعي، الخدمات والمهن).

ثانيا – بناء المجتمع النبطي ومؤسساته:

(القبيلة والاتحاد القبلي ،الأسرة ومكانة المرأة، الأجانب في المجتمع النبطي، الزواج في المجتمع النبطي، الملكية والإرث ،القانون والعرف).

ثالثا – نظام الدولة وجيشها ووقائعها الحربية:

أ – هيكلية الدولة وهرم السلطة.
ب– الجيش النبطي.
ج – الوضع السياسي الدولي / الإقليمي منذ أواخر القرن الرابع ق.م.
د – الوقائع النبطية.
هـ – الحروب النبطية/ اليهودية.

رابعا– النظام القيمي والعادات والتقاليد:

(منظومة القيم، العادات الاجتماعية والتقاليد).

خامسا– الثقافة والفنون في المجتمع النبطي:

أولا- النظام الاقتصادي (التجارة والصناعة، الزراعة، الرعي، الخدمات):

لعل أكثر ما ميز الأنباط وأشهر هويتهم الإقليمية والتاريخية ما عرف عنهم من البراعة في أعمالهم الاقتصادية على اختلاف ألوانها أو نشاطاتها: التجارية والصناعية والزراعية. وليس ثمة خلاف بين الدارسين على هذه التقديرات التي يمكن أن تعتبر الجانب الأكثر إثارة وإشراقا في التاريخ النبطي إضافة إلى أسلوبهم العمراني الشهير في نحتهم لبعض مدنهم في الحجارة الطبيعية إن كان في البتراء أو في الحجر.

ونتناول في المعالجات الموجزة التالية، أهم ما توفر من معطيات حول نظامهم الاقتصادي وأوجه أنشطته المختلفة: التجارة و الصناعة، والزراعة، والرعي، الخدمات.

أولا - التجارة والصناعة:

عرف الأنباط الكثير من السلع التي عرفت من خلال تجارتهم، وقاموا كذلك بصناعة العديد من هذه السلع فيما كانت سلعا أخرى تأتيهم من الأسواق الأخرى، ولقد ارتأينا أن نتناول هذا المحور وفق هذا التداخل بين التجاري والصناعي لتجنب تكرار المعلومات التي عادة ما تتداخل في هذا الصعيد.

وعلى الأرجح، فإن الأنباط كانوا قد اشتغلوا بتجارة القوافل قبل نزوحهم إلى منطقة جبال الشراة، ويأتي هذا التقدير من معلوماتنا التي نستجمعها من السجلات الآشورية التي تبدأ منذ القرن الثامن قبل الميلاد، وكانت هذه المصادر تشير بين الفينة والأخرى إلى قيام الجيوش الأشورية بمهاجمة القبائل العربية في شمال غرب الجزيرة وشرقيها لتأمين سلامة الطرق التجارية لدولتهم. ويبدو أن الأنباط كانوا قد عملوا إثر ذلك أو قبله في هذه الطرق التجارية إما كمقدمي خدمات، كتأمين الماء والجمال والأعلاف لهذه القوافل مثلما أشار هيردوت بصدد حملة قمبيز الفارسي على مصر التي اعتمد فيها على القبائل العربية في تأمين احتياجاته من الماء، وإما كأصحاب قوافل كان بإمكانها القيام بهذه الخدمات بين المراكز التجارية المختلفة الواصلة بين شمال شرق الجزيرة وغربيها الشمالي ثم إلى جنوبها وفق الطرق التجارية التقليدية.

وعلى كل الأحوال، فإن الثابت تماما أن الأنباط انحدروا من أصول بدوية لها خبرتها الطويلة في تربية الإبل والتعامل معها عبر الصحاري والطرق التجارية، في

هذه المرحلة لا خلاف على أن الأنباط كانوا على صلة بطريقة أو بأخرى بالقوافل التجارية. لكن المرحلة الثانية تبدأ في تغلغلهم في مناطق الأدوميين، الذين كانوا شعبا يغلب عليه الطابع الزراعي أكثر من أي شئ آخر، وهؤلاء على ما يبدو لم يكونوا مقاتلين أشداء مما سيسهل على الأنباط غزوهم في عقر دارهم سلما لا حربا، أما قصصهم الحربية وأيامهم التي أخبرنا عنها العهد القديم (سفر أمازيا) والسجلات الأشورية التي تذكرهم من ضمن دافعي الجزية، فهي تؤكد صفتهم الزراعية المهادنة مقابل أعداء وخصوم جعلت منهم الصحاري والصراعات والحروب جيوشا ومقاتلين يسهل عليهم فرض سيطرتهم على دويلة زراعية تناهشتها عوامل الضعف في أكثر من كتف.

كان على الأنباط قراءة الخارطة التجارية الإقليمية، وهذا ما حدث عندما راحوا يستغلون موقع بلادهم في منظومة الطرق التجارية الإقليمية ويستفيدون من النشاط التجاري بأن أصبحوا أصحاب التجارة وأصحاب القوافل والأسواق، وما كان ذلك ليتأتى لهم لو لم يبذلوا أقصى متطلبات النجاح من نظم أمنية وأخرى تنظيمية – إدارية وأخرى خدمية تتعلق بكل احتياجات القوافل، صغيرها وكبيرها، شرقيها وغربيها، وعلى ما يبدو أن مثل هذه النظم أصبحت ناضجة قبل نضوج قيام الدولة، ويدلنا على ذلك الإشارات الكثيرة التي أوردها (ديودر الصقلي) و(سترابو) وكذلك الحفريات الأثرية التي تحدثت عن نشاط اقتصادي مزدهر في المنطقة قبل قيام المملكة، كان من ذلك مثلا: استغلال القير (الإسفلت من البحر الميت)، ثم قيادة القوافل، ثم تربية المواشي، ولعلهم أيضا كانوا قد بدؤوا بصناعة الفخار الذي ورثوه عن الأدوميين قبل أن يبدؤوا بتحسينه وتطويره إلى أن يصبح عنصرا مميزا من عناصر الاقتصاد النبطي، لا بل ومن عناصر الهوية النبطية.



وقد يتبادر إلى الذهن السؤال: لمن كانت الأسبقية في مسيرة تطور الاقتصاد النبطي، أكانت للزراعة أم للتجارة أم للصناعة؟ من المنطقي استبعاد الصناعة من الإجابة لأسباب كثيرة تتلخص في أن الصناعة لا تقوم قبل ازدهار سابق في مجالات أخرى، خصوصا الزراعة والتجارة اللتين من شأنهما توفير فائض راسمالي لبناء القاعدة الصناعية. وقد افترض بعض الباحثين أن الزراعة كانت الأسبق في دفع الاقتصاد النبطي للأمام[1]، ويبدو أن مثل هذا الافتراض اقتبس من مؤرخي العصور البرونزية – الحديدية الذين قالوا بأن الجمع بين الزراعة وتربية الماشية كان الأسبق باعتبارة اقتصاد الكفاف، ثم ما لبث وأن تطور إلى الزراعة الشاملة لأغراض التصدير[2]. ويقوم هذا الافتراض الذي أورده عدد من الدارسين على أساس أن الزراعة كونت فائضا سلعيا كان الواجب استغلاله في التصدير مما شجع على ازدهار التجارة التي كانت تستفيد من طرق المواصلات الواصلة بين مجتمعات الوفرة في الشرق (بلاد الرافدين) أو الغرب (مصر) أو الشمال (الإغريق). وعلى الرغم من وجاهة الفرضية وربما قدرتها على التعميم في الكثير من المجتمعات، إلا أن ذلك سيواجه ببعض العقبات في حالة المجتمع النبطي. فإن الأنباط، وهم البدو في عصرهم الأول، لم يكونوا بقادرين على إحداث نقلة نوعية في الزراعة الأدومية، بل على العكس من ذلك، فإن ديودور الصقلي كان قد قال عنهم: إنهم قد آلوا على أنفسهم أن لا يزرعوا حبا أو يغرسوا شجرا... ومن السهل الأخذ بهذا القول عندما نتذكر الجفوة بين ثقافة البدوي والعمل الزراعي، وحين المفاضلة، فإن البدوي سيختار أي عمل قبل أن يختار الزراعة، ولذلك فإن الافتراض الأكثر منطقية في حالة الأنباط هو ميلهم لممارسة التجارة لأنفسهم بعد أن مارسوها خدمة لغيرهم واكتشفوا ما فيها من الفوائد واكتشفوا أيضا أنها أقرب إلى قيمهم وميولهم الثقافية التي تعلي من شأن التنقل والتحرر والمغامرة ومجابهة أخطار الطرق الصحراوية.

وفيما يلي إيجاز لأهم الطرق التجارية التي سلكها الأنباط، أو التي كانت معروفة في عصرهم:

١- الطريق إلى اليمن: (إيلة – العلا – تيماء – مكة – اليمن).

٢- الطريق إلى الشرق (وادي السرحان - تيماء- الخليج).

٣- الطريق إلى الغرب (إيلة - عصيون جابر - النقب - غزة - العريش - الإسكندرية).

٤- الطريق إلى الشمال (البتراء- طريق تراجان "السلطاني" - بصرى) أو طريق الملوك عبر مدن الديكابوليس قرب عمان فجرش فبصرى.

٥- الميناء البحري على البحر الأحمر "لويكي كومي" أو "إيلة" العقبة ومنها إلى اليمن جنوبا أو إلى مصر غربا. ثم ميناء "غزة" على البحر المتوسط ومنها إلى الإسكندرية أو إلى "إيطاليا - روما" وغيرها من دول العالم.

وفي مثل هذه الشبكة الضخمة من المواصلات صار لبلاد الأنباط ولعاصمتهم البتراء خصوصا مركزا استراتيجيا مكنها من تبوؤ مركز الصدارة. ففي العلا - محطة الحدود النبطية - كان عرب اليمن يسلمون بضائعهم لعرب الأنباط ليصار إلى نقلها إلى تيماء حيث يتم فرزها ويرسل قسم شمالا إلى بصرى وتدمر والشام وبذلك تصل سوريا، ويؤخذ قسم آخر إلى العقبة فالعريش والطرف الشمالي لشبه جزيرة سيناء ثم إلى مصر، والقسم الأخير ينقل عن طريق حائل إلى بابل في منحنى واسع تجنبا لمتاعب صحراء النفوذ، والظاهر أن سير الطريق الشمالية زمن الأنباط كان هكذا: تصل الطريق الحجازية إلى تيماء حيث ينقل اليمنيون تجارتهم إلى هناك، ولا شك في أن نزول القوافل والتبادل على الحدود كان جزءا من خطة نبطية ليؤمنوا لأنفسهم حصة مناسبة من عائدات نقل التجارة، ثم توقف التبادل وصار اليمنيون يقطعون كل الطرق حتى العقبة وذلك حوالي بدء التاريخ المسيحي، ولما صارت البضائع تنقل تحت مراقبة الأنباط، صار يرافقها كتبة وموظفو تحصيل (جمارك) خلال سيناء حيث كان العرب يرعون جمالهم[٣].

وهكذا فقد شهدت دولة الأنباط ازدهارا ومنعة ما بين القرنين الأول قبل الميلاد إلى الأول الميلادي، ويعود السبب الرئيس لذلك إلى موقع الأنباط التجاري حيث البضائع الغنية لشمال المنطقة العربية، وكانت القوافل الضخمة تأوي إلى البتراء ومن هناك يعاد توجيهها إلى مصر وسوريا واليونان وإيطاليا من خلال غزة والإسكندرية،

ولا بد من أن الكثير من البضائع أيضا كانت تبحر من خلال البحر الأحمر، ولا بد من أن الأنباط إزدادوا تعاظما من بالضرائب الباهضة التي كانوا يجنونها على البضائع العابرة خلال بلادهم(٤). وقد امتد النشاط التجاري للأنباط إلى مناطق شاسعة من العالم، فقد عثر على آثار تجارتهم في سلوقية والاسكندرية وردودس ومليتوس وديلوس وموانىء سورية، بل إن بعض الآثار الكتابية عثر عليها مبعثرة عند مصب الفرات(٥).

ومن المؤكد أن الأنباط اتخذوا من أسباب النجاح والازدهار ومقوماتها ما يجعل التجار يقبلون عليهم ويؤمنون لهم ويدفعون ربع تجارتهم كضرائب راغبين، فقد توفر الأمن على الطرقات، وتوفرت الخدمات الأساسية، خصوصا المياه، وتوفر المرشدون والأدلاء ومزودو القوافل بما تحتاجه من أعلاف وأطعمة وخدمات أخرى يحتاجها المسافر والقوافل خصوصا.

ويقينا أنهم كانوا يتمسكون بما عرف عن العرب من احترامهم، للعهود مثلما ذكر هيرودت الذي قال "ما من أمة تحترم العهود وتقدسها مثل العرب"(٦)، ولا نستبعد أن تكون أغلب المواثيق التي كان الأنباط يأخذونها على أنفسهم مواثيق شفوية وغير مكتوبة، وهذا ما يفسر عدم العثور على أي شكل من أشكال المواثيق الداخلية أو الخارجية للأنباط باستثناء عدد قليل من عقود البيع والرهن التي وجدت قرب البحر الميت. والاعتماد على شفوية المواثيق والعهود والعقود لا تزال أسلوبا شائعا بين القبائل العربية حتى أيامنا هذه بالرغم من دعوة الإسلام الناس إلى التوثيق والمكاتبة.

البضائع والسلع التي صنعها الأنباط أو اتجروا بها:

كانت أهم السلع التي يتاجر بها الأنباط: العطور والطيوب اليمنية، والمنسوجات الحريرية من دمشق والصين، والحناء العسقلاني، واللآلىء من الخليج العربي، هذا بالأضافة إلى المنتجات المحلية كزيت السمسم والذهب والفضة(٧). وكانت هذه البضائع تباع بأسعار عالية وفي مقدمتها البخور الذي كان مادة ضرورية في حياة الناس وعباداتهم، كما كان هو والمر(٨) يستعملان في تركيب العقاقير، وكان المر يتخذ في صناعة مواد التجميل والعطور وفي شؤون الدفن. ولا ينازع هاتين السلعتين ببعض القيمة من الحاصلات المحلية إلا البلسم والقار، وامتازت صناعة الخزف النبطي الرقيق

الأحقاف والمتناهي في الصغر والمتسلسل في الأحجام المناسبة للاستخدامات العطرية[٩].

وكان ديودور هو من ذكر قيام الأنباط باستخراج القار من البحر الميت، وكان هذا القار يستخدم في عدد من الشؤون ربما أهمه التصدير إلى مصر لاستخدامه في التحنيط، أما استخدامه الأكثر حيوية فهو طلاء ممتاز للسفن يحول دون نفاذ الماء في أخشابها[١٠]. ووفق دراسة (سناء الحمود) فإن السلع التي تاجر بها الأنباط يمكن حصر أهمها فيما يلي[١١]:

المعادن: كصناعة النقود والمجوهرات وبعض المعدات الحديدية كالأسلحة والعملات الفضية والبرونزية، ثم النحاس للزينة، والبرونز المادة الأساسية للعملات. ثم الذهب لأغراض مختلفة، ثم القار الذي يستخرج من البحر الميت وصدر إلى مصر إلى جانب استخدامه كمادة لصناعة الحلي التجميلية. أما النحاس فقد كان يجري تصديره إلى فلسطين.

ولقد كان التعدين نشاطا أساسيا لعرب الشمال الغربي من الجزيرة العربية خاصة منطقة مدين القديمة، ولعرب شرق الأردن وشبه جزيرة سيناء، فمدين مشهورة بذهبها، وشرق الأردن وشمال خليج العقبة مشهور بنحاسه، وسيناء معروفة منذ القدم أيضا بنحاسها وفيروزها. وعثر على عدد من النقوش النبطية التي تشير إلى حرفة الصياغة ووردت باسم "صيغ" أي الصائغ[١٢]. واشتهرت منطقة فينان بمناجم النحاس فيها، وكذلك عرف عن منطقة النقب اشتغالها بمناجم المعادن في المنطقة حتى سيناء إضافة إلى الزراعة ولتجارة.

وكان تعدين النحاس من أهم أعمال التعدين لدى الأنباط، وخربة فينان (٤٥ كم شمال البتراء) تعد من أكبر مناجم النحاس في المنطقة، فقد قدرت كميات النحاس المكتشفة فيها بــ١٥٠٠٠ طن بناء على أكوام خبث النحاس الموجودة في المنطقة.

١- **التوابل والملح والبخور والطيوب**: واستخرج الملح من البحر الميت، ومن المحتمل أن يكون قد أنتج في وادي السرحان (قريات الملح). أما التوابل والبخور والطيوب فقد كانت تستورد كما مر معنا.

٢- **النبيذ:** واعتمد في صناعته على الرمان والكرمة، وازدهرت صناعته في العصر الروماني.

٣- **اللؤلؤ والحرير:** كان اللؤلؤ يستقدم من الخليج العربي. في حين أن الحرير انتقل للعرب من قبل اليونان والرومان بعد جلبه من الصين.

٤- **الفخار النبطي:** اشتهر الفخار النبطي لجماله ورقة سماكته وجمال ألوانه وتعدد أحجامه التي تناهت في الصغر، وقد دلت الدراسات على أن مخلفات الفخار النبطي تعود للفترة بين النصف الثاني قبل الميلاد حتى نهاية القرن الثالث الميلادي.

ولا بد من التوقف قليلا مرة أخرى عند الفخار النبطي الذي أصبح عند الأثريين آداة يعتمدون عليها في تقدير الكثير من عناصرالثقافة النبطية، وهو فوق ذلك كان سلعة نبطية ابتزت مثيلاتها في المناطق الأخرى. وعلى الرغم من أن التأثيرات المختلفة من هلنستية وبارثية وغيرها كانت بادية في الفخار النبطي، إلا أنهم انتجوا نوعا فاخرا مميزا، وقد أشارت الدراسات الأثرية إلى تطور الفخار النبطي المباشر عن الفخار الأدومي الذي يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد[١٣].

ويبدو أن الدراسة المشار إليها أهملت بعض السلع التي لا بد من أن تكون شائعة جدا في ذلك الوقت، وقد اشارت بعض المصادر التاريخية إلى بعضها مثل تجارة الرقيق التي كانت شائعة في الشرق في ذلك الوقت، فقد كانت سواحل البحر المتوسط مراكز مزدهرة لتجارة الرقيق وكانت غزة أكبر أسواقها والمصدر الرئيس لتصدير الرقيق كما يذكر (Browning)، ويبدو أن الأنباط كانوا زاهدين في اقتناء العبيد، فقد كانوا يقومون بخدمة بعضهم البعض أو بخدمة أنفسهم بأنفسهم، وقد عرفت مثل هذه العادة في ملوكهم مثلما يذكر لنا ذلك (سترابو)[١٤]. ولا بد من أن عددا جيدا من الصناعات اليدوية والتجارية قد وجد في السوق لدعم الاقتصاد المحلي، والحياة العادية (اليومية) للبدوي تعطينا بعض الصور عن الحياة الاقتصادية في هذه المناطق، ومن ذلك: الصناعات النسيجية الخشنة (كالبسط والسجاد وبيوت الشعر والحقائب

والأكياس ومستلزمات حفظ البضائع ونقلها) أو الملابس الناعمة، ودباغة الجلود، والصناعات الاستهلاكية المحلية، والأدوات الموسيقية، والسهام والنبال والأسلحة الخفيفة، وكانت الصناعات الترفيهية أو الكمالية معروفة أيضا جنبا إلى جنب مع هذه الصناعات، وجميعها تقع ضمن الصناعات القديمة والحديثة للحياة في الشرق الأدنى، وهذه الصناعات كان لا بد من أن تمارس من قبل أية شريحة من البدو أو المستقرين[١٥]. ولا بد من أن الأنباط إتجروا بالأغنام التي وصفها سترابو بأن صوفها أبيض وكبير"، ثم إن لحوم هذه الأغنام وألبانها كانت ضرورية للمسافرين والقوافل والمواطنين على حد سواء، وكانت الألبان تحفظ وتنقل في أوعية جلدية كما هو عهدنا بها إلى وقت قريب. وتجاهلت الدراسة الزيوت التي كان أسبقها زيت السمسم الذي ذكر في المصادر التاريخية (سترابو) ثم فيما بعد زيت الزيتون حيث تنتشر معاصره بكثرة في جبال الشراة، خصوصا في وادي موسى قرب البتراء. ومن تلك البضائع والسلع أيضا الفواكه والخضار التي كانت بعض مناطق الشراة تنتجها، ولا بد من أن بعضها جرى تسويقه محليا وخارجيا، خصوصا الرمان والكرمة في العهد اليوناني – الروماني. ومن المحتمل أن يكون "الجير – الشيد" واحداً من المنتجات المهمة التي أنتجها الأنباط وصدروها، وفي منطقة جبال الشراة اليوم الكثير من آثار معامل الشيد "اللتون"[١٦] من مختلف العصور، وتجب الإشارة كذلك إلى المصنوعات النسيجية الخشنة خصوصا التي كانت تنتج من أصواف الضأن وشعر الماعز، ثم المنسوجات الناعمة التي كانت تصنع من وبر الإبل الموجودة بوفرة عظيمة في المنطقة. ولا بد من أن الأنباط صاروا يجيدون صناعة الأدوات الحديدية الدقيقة اللازمة لفن البناء والنحت مما تدل عليه آثارهم العمرانية الدقيقة والرائعة. اما الصناعات الجلدية[١٧] (انظر الملاحق حول الصناعات الجلدية) فلا بد من أن معظمها اختص بالأوعية الخاصة بحفظ السوائل، وهذه الصناعة كانت من أكثر الضرورات المحلية التجارية والاستهلاكية بجانب الفخار، وعرف الأنباط أيضا صناعات أخرى جلدية مثل الأحذية والصنادل والسيور التي وجدت في بعض القبور، وكذلك الملابس التي لا تزال تصنع من فراء الخراف. ولا بد من أن قسما منهم، خصوصا التجار والرعاة قد استخدموا

الجلود لصناعة الأخبية التي تشبه الخيام الصغيرة، أو لصناعة بعض الحقائب والأكياس التي استخدمت لنقل أو تخزين بعض السلع الثمينة أو الثقيلة. أما الصناعات الخشبية، فإن الأنباط – على الأرجح – اضطروا لاستيرادها من الخارج لأن مناطقهم كانت تخلو من الغابات الكبيرة، وإذا ما كان ثمة بعض الأحراج الصغيرة من السنديان وغيره من الأشجار الصلبة الأخشاب، فإنها بالكاد كانت تكفي للأغراض المحلية، ويبدو أن صناعة الفخار والزجاج والجير التي كانت تحتاج إلى كميات كبيرة من الحطب قد أجهزت على المساحات المحدودة من تلك الأحراج في وقت مبكر.

يشار كذلك إلى معرفة الأنباط لأوزان خاصة بهم على ما يبدو، إذ كانت تسمى "أ ب ن" أي حجر، ولا تزال الكلمة مستخدمة في السريانية والعبرية بمعنى الحجر، ويأتي لفظها بالكسر كما في الإنجليزية (EVEN). ويبدو أنه كانت لهذه الأحجار أوزان محلية متعارف عليها، وكانت وحدات الأوزان الآرامية أو الأشورية شائعة في المنطقة ولا نعرف لماذا لم تشر المصادر التاريخية والأثرية إلى هذه الوحدات، وربما أن ذلك فاتنا العثور عليه[١٨] ومن المؤكد أن اليونان أدخلوا وحداتهم الوزنية في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد مثلما بدؤوا يدخلون كل معارفهم وعناصرهم الثقافية. وقد عرف من وحدات الوزن لدى الأنباط (الككرين- ك ك ر ي) وهي تعادل تالنت وهو وحدة وزن استخدمت في سوريا وفلسطين وفي اليونان ويساوي ثلاثة آلاف شيقل أو ما يعادلها من الذهب والفضة، واستعملت الكلمة أيضا بمعنى (عملة)، واستخدمت كلمة (ك م) لقياس الكميات والمقادير، وهذه الكلمة لا تزال مستخدمة في عربيتنا اليوم بالمعنى نفسه[١٩]. ثم جاء الرومان من بعدهم فأشاعوا أوزانهم الخاصة، التي وجد منها عينات جيدة تدل على دقتها وتسلسلها وإيفائها للأوزان المتناهية في الصغر كالذهب والتوابل والعطور. أما الموازين فليس لدينا أية آثار منها باستثناء صورته المنحوتة مع تماثيل أحد الآلهة، ونحن نفترض أن الميزان الذي كان لا يزال معروفا في منطقة بلاد الشام كان معروفا لدى الأنباط، وهو عبارة عن صحنين متطابقين وزنا يعلقان على طرفي قضيب يقرب طوله من ياردة. ومن المحتمل أن يكون الأنباط عرفوا أشكالا

أخرى من الموازين، خصوصا موازين المواد الثقيلة، لكن من المؤكد أن الحضارات القديمة كانت تستخدم المكاييل أكثر من استخدامها للموازين.

وعرف الأنباط المعاملات القانونية وكتبوها في نقوشهم على بعض الحجارة أو واجهات قبورهم، وفي إحدى البرديات كتب كشف حساب يتضمن المبالغ المستحقة (الديون) من شخص لآخر، وفي بردية أخرى كشف حساب يختص بالنفقة المستحقة لامرأة، وعرف الأنباط أيضا صكوك البيع والشراء والملكية الخاصة كما أسلفنا. وقد جرى فيها استخدام تعابير ومصطلحات قانونية صرفة مثلما عكست ذلك (برديات البحر الميت) التي عثر عليها في كهف الرسائل عام ١٩٦١، ويبدو أن هذه العقود كانت تشبه النمط اليوناني – الروماني في التوثيق[٢٠]. أما المسكوكات النبطية، وهي أحد الأوجه المهمة التي تعكس الوضع الاقتصادي لأية دولة، فإن الأنباط كانوا قد تأخروا في سكها، إذ ظلوا يعتمدون العملة اليونانية إلى أن قام الحارث الثالث بضرب أول عملة في دمشق عام ٨٥ م، وعلى وجهها صورة "تايكي" وعبارة (الحارث المحب لليونان) Philhellene. وكان مالك الثاني هو أول ملك ضرب نقدا ظهر على وجهه الأول صورته النصفية وعلى الآخر النسر، في حين كان عبادة الثالث هو أول ملك ظهرت على السكة صورة زوجته مع صورته على الوجه الأول وصورته النصفية على الوجه الآخر[٢١]. كما يعتبر الحارث الرابع أكثر ملك سك العملة، بأشكال مختلفة، فبالإضافة إلى صور زوجتيه فقد ظهرت صور أبنائه وبناته على عملات تذكارية[٢٢]. يشار كذلك إلى أن منطقة الحجر كانت تسك عملتها الخاصة بها، إذ عثر على قطعة واحدة بها اسم الحجر من عهد الحارثة الرابع، وعرف الأنباط العملة الفضية وتدعى "كسف" والعملة البرونزية، ومسمى العملة "سلعين" نسبة إلى سلع منطقة الرقيم، كما تخصص بالملك الحارثة الرابع، فيكون اسمها الكامل "السلعين الحارثية"[٢٣]. ونحن غير مطالبين بالأخذ بهذا النص على علاته، فالحجر ربما تتمتع بقدر كبير من الاستقلالية بفضل اعتبارات قبلية ربما، لكننا نعرف أن الحارثة الرابع نفسه هو من أبناء منطقة الحجر، فكيف سيسمح بمظاهر انفصالية في مملكته. أو لنقل أن مثل هذه المظاهر – ربما – كانت الشكل الاحتجاجي للحارثة الرابع قبل أن يتمكن من الاستيلاء على

السلطة الملكية في البتراء. هذا إذا لم تكن هذه العملة الفريدة طبعة أو إصداراً تذكارياً لسبب أحد المناسبات، ونحن نعرف من خلال العملة أن الأنباط كانوا قد أصدروا مثل هذه الطبعات التذكارية.

وقد أوردت بعض المصادر أن الأنباط عملوا في تجارة تهريب البضائع وفي عمليات القرصنة البحرية، وليس ثمة حاجة للإسهاب في هذه المقولات التي لا تزال محط جدل وخلاف بين الدارسين، وجملة القول أن الأنباط كانوا مثل غيرهم في تلك العصور من ناحية الإعلاء من شأن الغزو الذي يماثل الفروسية، ثم إن بعض أسباب ذلك ربما ارتبطت بعوامل سياسية مما تشير إليه بعض المصادر بشأن تحويل الطرق التجارية عن بلادهم وقيام البطالمة بالسيطرة على البحر الأحمر ليحرموا بذلك الأنباط من مينائهم البحري الوحيد مما دفع الأنباط لمقاومة ذلك.

ثانيا - الزراعة النبطية ونظام الري:

أ- الزراعة:

كان القطاع الزراعي من القطاعات الأساسية لدى الأنباط حيث وجدوه أمامهم بعد أن رعاه الأدوميون وحققوا فيه تقدما كبيرا، ويستدل على ذلك عبر الكثير من المؤشرات التاريخية والأثرية، ويبدو أن الزراعة كانت عماد اقتصاد الأدوميين، وعندما بدأ الأنباط في الاستقرار والتمكن من التجارة، كان قسم منهم ينحو إلى الاستقرار والاهتمام بالزراعة إلى جانب المناحي الأخرى من النشاط الاقتصادي، ولما راحت التجارة النبطية تزدهر يوما بعد الآخر وتصل إلى أكثر الأسواق حيوية، فمن المنطقي أن تستفيد الزراعة والصناعة من هذا الازدهار بفضل آلية الفائض السلعي الذي كان لا بد لها من أن تحققه، وهذا ما سيفسر أيضا التحسينات الكبيرة التي أدخلها الأنباط على أساليب الري وجمع المياه التقليدية التي كان يتخذها الأدوميون.

وليس من المستبعد أن يكون الأنباط قد أدخلوا بعض أنواع الزراعات على المنطقة بعد أن خبروا أهميتها في تجارتهم أو خبروها في البلدان التي كانوا يسافرون إليها، ومع أن مثل هذا الاحتمال لا يوجد ما يسنده في المعلومات الأثرية والتاريخية التي بين أيدينا الآن.

وعلى كل الاحوال فقد وجد الأنباط بنية تحتية زراعية لا بأس بها فقاموا بالبناء والتطوير عليها، وكان تحسين أنظمة جمع المياه وتخزينها أبرز ما قام به الأنباط، ثم لما أصبح توفير كميات إضافية من الماء أمرا ممكنا، فقد توسعوا في إقامة المصاطب الزراعية وراحوا يستغلون كل ما يمكن استصلاحه من الأراضي الجبلية بتدعيمها بالسلاسل الحجرية والتوسع في حفر الآبار والبرك والسدود الصغيرة.

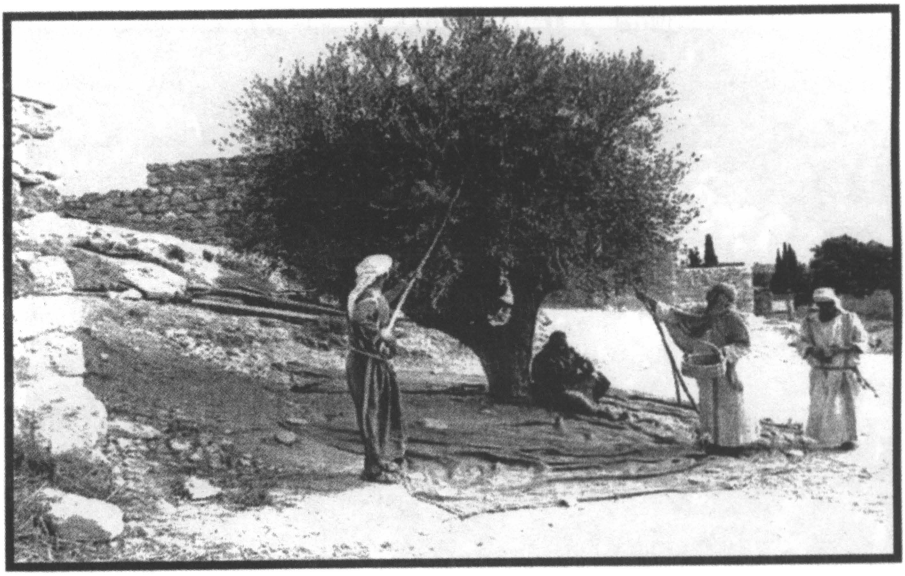
وقد كانت منطقة جبال الشراة من المناطق المناسبة لزراعة الفواكه، وقد برز من هذه الفواكه أكثر ما برز الكرمة والرمان اللذان أصبحا ضروريان جدا لصناعة الخمور في العصر الهلنستي، وقد أصبح الإله ذو الشرى إلهاً للخمر يضاهي زيوس – حدد مثلما مر معنا، ولا بد من أن الأنباط أيضا حققوا وفرا تجاريا في هذه السلع لكونها مناسبة لخدمة القوافل والمسافرين القادمين من شتى الأرجاء، فالزبيب ومنقوع الزبيب مادة استهلاكية مناسبة للمسافرين والمواطنين على حد سواء، والخمور أضحت أحد عناصر الطقوس الدينية والاجتماعية على ما بدا من كلام سترابو الذي أشار إلى أن الأنباط لا يشربون أكثر من احدى عشر كأسا من الخمر بينما هم مجتمعون في جماعات من ثلاثة عشرة شخصا في المائدة الواحدة.

ولا بد من أن الأنباط قد توسعوا في زراعة التين وبعض الفواكه الأخرى، فالتين أيضا من المنتجات المناسبة والمفضلة لدى المواطنين صيفا وشتاء، وهو أيضا مناسب لتقديمه للقوافل ولتحويله إلى سلعة تصديرية بعد تجفيفه.

أما البلسم فإنه نوع من الصموغ ينتج من شجرة البلسان أو البيلسان(٢٤)، فإنه أكثر الزراعات أهمية، ويبدو أنه احتل مكانة استراتيجية في التجارة النبطية، وقد أشارت له المصادر على أنه يجلب من منطقة أريحا، وليس من الواضح إن كانت أريحا في ذلك الوقت تحت نفوذ الأنباط أم غير ذلك، ومن المحتمل أن تكون منطقة أريحا في عصر الأنباط قد شملت الضفاف الشرقية لنهر الأردن حيث التطابق في المناخ والتربة أيضا.

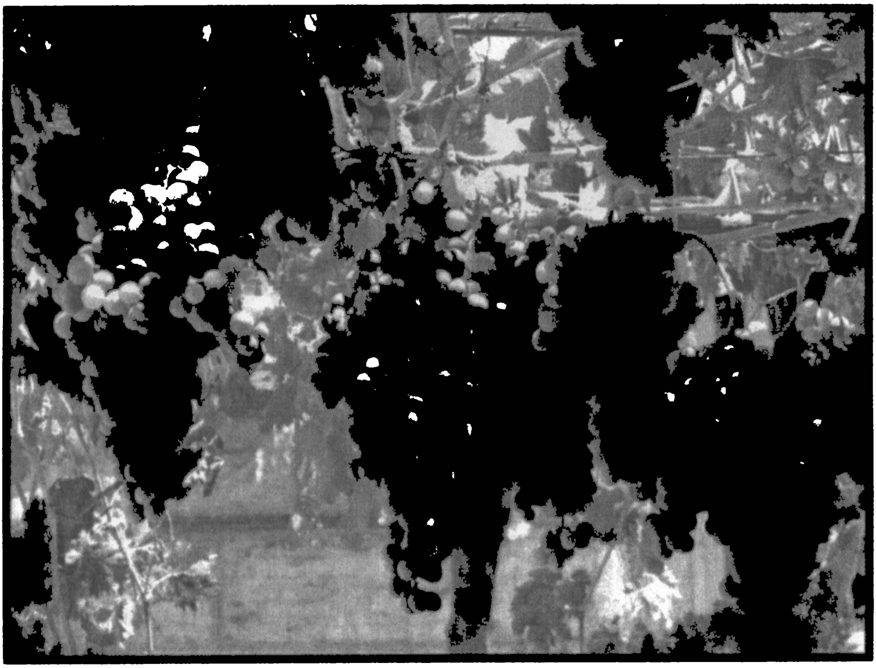
وأشارت بعض المصارد أيضا إلى زراعة النخيل، والقمح، والسمسم، والزيتون. ويبدو أن النخيل زرع أيضا في المنطقة الغورية لمناسبة مناخه لهذه

الزراعة، أما الحبوب التي كانت ضرورية لعيش السكان ولأود قطعانهم من الأنعام إضافة إلى الأعداد الهائلة من إبل القوافل ودوابها، فلا بد من أن الأنباط اضطروا للتوسع في زراعة هذه الحبوب نظرا للحاجات المتزايدة التي تتطلبها القوافل التي لم تكن لتنقطع عن بلادهم وكانوا ملزمين بتوفير متطلبات إقامتها ومرورها في بلادهم، وعلى رأس هذه المتطلبات الكلأ والماء بالطبع، ومن المؤكد أن الحبوب زرعت بتوسع في سهول حوران الشمالية حتى جنوب دمشق إضافة إلى بعض سهول مؤاب وأطراف الصحراء المحيطة بجبال الشراة.



أما عن زراعة السمسم والزيتون فقد كان (سترابو) قد ذكر "أن الأنباط لم يعرفوا زراعة الزيتون واقتصر استعمالهم على زيت السمسم (السيرج)، وقد مال أكثر الدراسين العرب لاستنكار هذا القول بناء على ما اكتشف من أعداد كبيرة من معاصر الزيتون في المنطقة النبطية، خصوصا في جبال الشراة وفي وادي موسى على وجه الخصوص. وأميل للتفسير الذي يجعل زراعة السمسم أسبق على زراعة الزيتون في منطقة الأنباط، أما كثرة معاصر الزيتون فقد تدل على أن هذه الزراعة وصناعتها عرفت بعد اليونانيين والرومان، وعلى الأرجح فإن الزيتون كان معروفاً في المنطقة على نطاق

ضيق ما دام معروفا في البلاد المجاورة، بلاد الكنعانيين الذين عرفوا زراعة الزيتون(٢٥) في الألف الثاني قبل الميلاد على الأقل. لكن الرومان هم الذين شجعوا التوسع في زراعته في القرن الأول قبل الميلاد وفقا لتاريخ آثار معاصر الزيتون التي وجدت في وادي موسى، وراح زيت الزيتون يحل محل زيت السمسم بعد أن اكتشف الناس أن أشجار الزيتون أنسب للزراعة في المناطق الجبلية وأنها أقل حاجة للرعاية والري خصوصا. ومع ذلك لا نتوقع أن يكون كلا الزيتين (الزيتون أو السمسم) قد بز المكانة العالية للسمن الحيواني الذي ظل تراثا يمتد إلى أيامنا هذه في المنطقة.



ب- نظام الري لدى الأنباط(٢٦):

لا يستقيم البحث في الحضارة النبطية إجمالا وفي الزراعة خصوصا بدون بسط ما اشتهروا به من أنظمة الري وجمع مياه الأمطار والينابيع، وهذه المهارة هي التي دفعت أغلب الدارسين والمؤرخين لربط اسم الأنباط بهذه المهارة التي جرى إعادتها إلى الجذر اللغوي "نبط". فيقول ابن منظور أن النبط هو الماء الذي ينبط من

البئر. و أيضا النبط هو ما يتجلّب من الجبل كأنه عرق من عروق الصخر. ونظرا لبراعة الأنباط في جمع المياه، فلا غرابة في تمكنهم من زراعة الأراضي القاحلة التي لم يزرعها أحد من قبلهم، وقد استخدموا أنماطا زراعية متطورة، وصلت أوجها في القرنين الأول والثاني الميلاديين، فقد راح الأنباط يقيمون الجدران الاستنادية (نحو الجدران الماثلة للعيان في "إلجي" قرب البتراء) للتقليل من سرعة انسياب مياه الأمطار على المنحدرات، وعمل مصاطب صالحة لزراعة الكروم والبساتين.وقد تمكنوا أيضا من استغلال الأودية في الزراعة لخصوبة تربتها الرسوبية ورطوبتها. أما الظاهرة الأغرب في نظام الري النبطي، فلا تزال آليتها غير واضحة تماما للدارسين، وهي صفوف من الحجارة ربما استخدمها الأنباط للتحكم في انسيابية مياه الأمطار، وعمل الأنباط كذلك سدودا صغيرة وبركاً لحجز المياه خلفها في الأودية الفرعية وقاموا بجرها خلال أقنية لري الأراضي العالية، مما زاد في مساحة الأراضي الزراعية.وتاليا أساليب الأنباط في جمع المياه:

١- **السدود:** كانت تقام في الأودية لتجمع مياه الأمطار للاستفادة منها في الشرب والزراعة، وأفضل مثال على هذه السدود "سد مدخل سيق البتراء".

٢- **أحواض الجمع:** وهي سدود صغيرة كان القصد من إنشائها عمل أحواض استبقاء، كانت تزود الخزانات بواسطة قنوات صممت لهذه الغاية[٢٧].

٣- **آبار جمع المياه الخاصة والعامة:** وبعضها خاص كالآبار الملحقة بالمزارع والبيوت والمراعي، وبعضها عام كالآبار التي تقع في بعض المدن وتشرف عليها الدولة كالتي في البتراء، أو بعض الآبار الواقعة على محطات القوافل والطرق التجارية، أو "مشاعي" كالتي في المراعي التي تخص قبائل معينة أو مناطق معينة، وهذا النظام لا تزال آثاره باقية في المنطقة حتى أيامنا هذه.

أما نظام الاستفادة من مياه الينابيع فهو كثير في منطقة جبال الشراة وجبل رم، فقد تضمن ذلك حفر آبار وخزانات ضخمة لجمع مياهها وكان يسميها البعض "القلاع المائية"[٢٨] وكانت مصممة لتزويد المدن بالمياه كما في خزانات الرملة في البتراء أو

كانت مخصصة للقوافل مثل خزانات "سيق البارد – البتراء الصغيرة". وثمة خزانات أصغر من الأولى صممت لأغراض عامة أيضا ولتزود آبار المنازل وخزاناتها، وذكر بعض الدارسين أن هذا النظام كان لا بد أن يكون تحت إشراف "سلطة مياه" أشبه بما هو معروف اليوم في المدن الحديثة. وقد قام الأنباط بتمديد قنوات غمرت تحت الأرض غالبا وتصل هذه القنوات إلى المناطق السكنية لاستخدامات الشرب وري الحدائق، وقد صنعت أنابيب المياه من السيراميك ومن الرصاص أحيانا(٢٩).

وقد فسر البعض عدم اهتمام الأنباط باقتناء الرقيق من خلال حرصهم على الحفاظ على أسرار آبار المياه وخزاناته كي لا يتفشى سرها بين الأقوام الأخرى في حال بيع الرقيق، ويحتمل أن الكثير من الآبار المنتشرة على الطرقات خصوصا والمراعي كانت سرية نظرا لما عرف عن الأنباط من إيلاء الماء أهمية عالية في حياتهم.

ثالثا- الرعي وتربية الماشية والإبل والطيور:

لا شك في أن تربية الماشية والحيوانات عموما كانت من الأنشطة الاقتصادية المألوفة في المنطقة منذ آماد بعيدة، تشير مصادر عديدة إلى أن هذا النشاط بدأ حينما بدأ الإنسان باستئناس الحيوانات، وتفيد التقديرات بأن استئناس الجمل كان على الأرجح في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد في شرق الجزيرة العربية، وعلى الأرجح أيضاً فإن استئناس الحيوانات الأخرى كان قد سبق هذا الوقت بقرون طويلة. ولا شك في أن الجمل والضأن كانا أهم الأنعام التي إعتنى الأنباط والعرب عموما بها، ويأتي في المرتبة الثالثة من ذلك الماشية من فصيلة الماعز أو ما يسميه العرب (السمار)، وهذا الفصيل إنما يناسب المناطق الجبلية أكثر من الضأن والإبل بالطبع، فتلك حيوانات صحراوية بامتياز بسبب صفاتها الجسمية والتشريحية.غير أن سترابو لم يشر إلى الماعز بينما أشار إلى تربيتهم البقر وهذه تدعو للتساؤل، ذلك أن البقر يحتاج إلى كميات كبيرة من الأعلاف التي لا تتوفر إلا في المناطق الزراعية الخصبة والسهلية غالبا كدلتا مصر أو بلاد الرافدين، ولا بد من أن نستنتج أن الزراعة النبطية في جبال

الشراة ومنطقة الحجر كانت في غاية الازدهار والخصوبة لتتكفل بأعلاف كل تلك الحيوانات، خصوصا الثيران التي ربما استخدمت للحراثة "والضأن لديهم ذات صوف أبيض والثيران كبيرة، ولكن بلادهم لا تنتج خيولا، وتقوم الجمال بتلبية خدماتهم مقام الخيل..".

وعلى كل الأحوال فلا بد من أن قطاعا واسعا منهم اختص بتربية الماشية وتاجر بها وبمنتجاتها، لكن من المعروف أن مهنة الرعي وتوفير الأعلاف للحيوانات إنما ظلت في الغالب اقتصادا منزليا يتكفل أفراد العائلة كلهم بالقيام به بما فيهم الأطفال، وفي الثقافة البدوية القديمة أنه عندما ترزق الأسرة بطفلة جديدة يبشرون الناس بولادة راعية ماشية.

رابعا- قطاع الخدمات والمهن والبناء:

كان قطاع الخدمات في الاقتصاد النبطي من القطاعات المهمة بالتأكيد، ويمكن استنتاج ذلك بقراءة بعض النقوش التي ذكرت الكثير من المهن، فقد أوردت هذه النقوش عددا من المهن مثل: البناء، النحات، الرسام، الصائغ، هذا إضافة للمزارعين والتجار والجند والإداريين في الدولة والرعاة...إلخ من المهن، وبوسع المرء استنتاج عدد آخر كبير من المهن التي لا بد من أن تكون معروفة بحكم النشاط الاقتصادي كالسقائين الذي يوفرون الماء والشراب للناس، وكذلك أصحاب الحوانيت الذين يبيعون السلع الاستهلاكية أو العطرية والطبية والنساجون الذين يصنعون الملابس وخيام الشعر والصوف، وربما الأدلاء والمرشدون الذين يرافقون القوافل والمسافرين في تنقلهم، وربما " المكارية " الذين يؤجرون إبلهم ودوابهم للمسافرين وينقلون عليها حاجياتهم داخل المناطق النبطية وخارجها....إلخ. أما قطاع البناء فقد كان قطاعا نشطا وحيويا خصوصا بين القرنين الأول قبل الميلاد إلى الأول الميلادي، فهذه النهضة العمرانية الواسعة والفلل والبيوت الكثيرة كالتي في وادي موسى أو منطقة الزنطور في البتراء تدل على استيطان كثيف في المنطقة.

ولا بد من أن قسما كبيرا من الأنباط ظل مختصا بالرعي وتربية الماشية، ويبدو أن الإبل والضأن كانتا الأكثر حيازة من بين حيواناتهم، ولا غرو في ذلك ونحن نعرف أن هذين النوعين هما الأكثر تكيفا مع ظروف الجفاف الصحراوية. على أن الكثير من المزارعين وأنصاف البدو المستقرين في جبال الشراة لا بد من أنهم كانوا يربون المواشي بأعداد محدودة قرب منازلهم ومزارعهم لإستكمال الدائرة الزراعية المعروفة في هذه المناطق حتى أيامنا هذه. **وهؤلاء عادة ما كانوا ينقسمون إلى شريحتين:** شريحة المزارعين المستقرين (الفلاحين)، ويقيمون باستمرار في قراهم ويتخذون الزراعة همهم الأول ويلحقونها بأعداد قليلة من الماشية لأغراض منزلية غالبا، ومنهم من كان يعمل في أنشطة اقتصادية أخرى إضافة إلى الزراعة كبعض الأعمال الحرفية غير الماهرة كالعمل في البناء أو الأعمال الماهرة كصناعة الفخار أو تجارة المفرق الموسمية. والشريحة الثانية هي "أنصاف البدو- أو أنصاف المستقرين" وهؤلاء يمارسون تربية الماشية بالأساس لكنهم يأوون إلى اطراف المزارع والحقول الزراعية قبل أن يعاودوا الانتقال شتاء نحو الأغوار أو الصحاري، وقليل منهم يمارس بعض الزراعات الموسمية كزراعة الحبوب خصوصا، ومنهم من يمارس بعض الأعمال المؤقتة كأعمال النسيج التي عادة ما كانت تقوم بها النساء.

ثانيا - بناء المجتمع النبطي ومؤسساته:

١- القبيلة والاتحاد القبلي:

لا بد من أن المجتمع النبطي كان قائما على أسس المجتمعات القبلية التي عرفت في المشرق منذ أقدم العصور، والبينات في هذا الشأن تاريخية أكثر من أن تكون أثرية، فالنظام السياسي نفسه كان يقوم على دعائم النظام القبلي في المجتمع النبطي مثلما في المجتمعات المعاصرة والسابقة واللاحقة أيضا مرورا في فترة الدولة الإسلامية، وكان هذا النظام دعامة الحياة السياسية والاجتماعية في الممالك العربية والإمارات التي قامت في جنوب الجزيرة العربية وفي حواضر الحجاز وكذلك الإمارات العربية التي قامت على تخوم بلاد الشأم والعراق. وفوق ذلك فإن مناطق الجزيرة العربية وأطراف الشام لم تعرف نظاما اجتماعيا أو سياسيا آخر غير النظام

القبلي، وما بعض الظواهر المخالفة لذلك إلا جزءا هامشيا من هذا النظام الذي ساد المنطقة العربية منذ أزمان بعيدة ولا يزال يحافظ على تجلياته القوية في الأقطار العربية المعاصرة، وتجليات هذا النظام تظل بارزة في أعلى قمة المجتمع ممثلة ببعض أنظمة الحكم التي برزت واستمرت مستندة إلى أسس هذا النظام.

ففي نظام القبيلة يكون شيخ القبيلة هو رأس السلطة ورمزها، وهو الذي يتولى عادة تحديد الاتجاه الذي ستسافر به القبيلة والقبائل التي ستتحالف معها أو تلك المرشحة للغزو والسلب، ومع ان باستطاعة شيخ القبيلة اتخاذ قراراته منفردا، فإنه غالبا ما يعتمد على مجلس شورى من وجهاء القبيلة وزعاماتها القبلية، وكثيرا ما كان يناقش ويعارض من قبل أصغر أبناء القبيلة فلا يلحق بالمعارض أي أذى إلا في الحالات التي تتجاوز الأعراف الأدبية المحددة، ولهذا فقد اتصف حكم الشيخ بمبادئ الديمقراطية إلى حد ما، وفي بعض الحالات كان بعض المشايخ يتعسفون في حكم قبائلهم ويتصرفون مثلما الطغاة.

والقبائل عادة ما تتحالف مع بعضها بعضا فتؤلف اتحادا قبليا كبيرا لأجل تعزيز مكانة التحالف بين القبائل الأخرى وبقصد السيطرة على مصادر الماء والكلأ وتحقيق الهيبة القبيلة، وإذا ما تعاظم هذا التحالف ليشمل إقليما جغرافيا أو منطقة جغرافية واسعة فإنه يحاول الاستقلال بذاته فيما يسمى المشيخة أو الإمارة، وتمتلك هذه الإمارة أو المشيخة بعض عناصر القوة مما يشجع قبائلها على محاولة تحديد حدودها ليس الجغرافية وحسب، بل والثقافية والاقتصادية والتجارية، وعلاوة على ذلك يبدأ هذا الكيان بامتصاص بعض الأقوام أو الجماعات والقبائل الصغيرة الموجودة في إقليمه أو على أطرافه دون أن يضع خططا لذلك ودون أن يقيم لذلك أي اتفاقيات أو معاهدات. ويبدو أن الأنباط كانوا قد كونوا هذا التحالف قبل أن ينشئوا مملكتهم بوقت طويل، يعد بمئات السنين، فإذا كان نزوحهم نحو غرب شمال الجزيرة وجبال الشراة قد بدأ في حدود القرنين السابع والسادس قبل الميلاد وفقا لتقديرات تستند إلى حركات الحملات الأشورية في المنطقة آنذاك، فإن أول ذكر لهم يحمل في طياته بذور الكيان السياسي جاء نتيجة حملات الجيوش السلوقية في المنطقة في أواخر القرن الرابع قبل

الميلاد (٣١٢ ق.م). وعلى كل الأحوال فإن الأنباط كانوا قد وجدوا أمامهم أقوام أسبق منهم في الحضارة وشؤونها لكنهم كانوا قد بدؤوا يفقدون كيانهم السياسي مما شجع الأنباط على استلام زمام المبادرة، وبما أن أي من المصادر التاريخية والأثرية لم يشر إلى حروب قامت بين الأنباط وسلفهم من أدوميين ومؤابيين وغيرهم من الأقوام الكنعانية والآرامية، فإنه يصح التخمين بأن الأنباط كونوا اتحادا قبليا كبيرا ضم فئات واسعة أو ربما قبائل من تلك الأقوام، ومما يعزز هذا التخمين ما عرف من عمليات اختلاط وتزاوج وتجاور بين الأنباط والأدوميين. ومن المحتمل أيضا أن الفئات النبطية التي استطاعت تعزيز قوتها بين الفئات الأخرى هي تلك التي بدأت تنحو نحو الاستقرار المبكر أكثر من غيرها، خصوصا في المدن أو في أطرافها القريبة، لماذا؟ لأن المصادر التاريخية والآثارية ظلت تشير إلى مدينة البتراء كمركز سياسي وعسكري منذ بداية ظهور الأنباط السياسي، ويعزز هذا الاستنتاج ملاحظتان أخريان أولهما أن المدن كانت هي المراكز السياسية للأنباط مثلما ظهر في مدينة الحجر (مدائن صالح) التي خرج منها الحارث الرابع على ما يبدو، ثم عبدة في النقب التي دفن فيها الملك عبادة. أما الملاحظة الأخرى فهي أن نظام الحكم ظل متسامحا مع الجنسيات والأقوام الأخرى المحيطة وهذا ما يؤكده كثير من الحقائق منها ما عرف عن البتراء من جاليات أجنبية كبيرة، ثم الانفتاح الاجتماعي والديني أيضا على الأقوام الأخرى مما انعكس في علاقات الزواج والمصاهرة والتعاون السياسي والثقافي والمشاركة في توقير الآلهة التي تخص تلك الأقوام والجماعات أيضا.

وهكذا نخلص للقول أن النظام القبلي النبطي لم يكن نظاما قائما على قربى الدم فقط، بل وعلى قربى المصالح والثقافة أيضا بما فيها الدين. وما الأنساب والتقاليد لسلالة ما إلا افتراضات جماعة من المتأخرين من أصحاب النظريات الذين يحاولون تعليل وجود جماعات متجانسة في اصلها، وبالنسبة للعرب فلم يظهر النسابون عندهم إلا بعد انقضاء فترة لا بأس فيها من العصور الإسلامية(٣٠). ونخلص للقول أن عماد النظام السياسي للأنباط كان قد نشأ في البادية وانتقل إلى المدينة ليتطور فيها مستفيدا مما توصلت إليه المدينة من تطور في شتى المجالات، خصوصا المجال الإداري

والسياسي، وعلى هذا الأساس فإن الأسر الحاكمة هي أيضا سليلة الأرستقراطية المشيخية التي استفادت من تجارة المدينة والقوافل ثم استفادت من التراث الإداري والسياسي الذي كان ينشأ ويتطور في المدينة أكثر منه في الصحراء.

ويجدر بنا لفت الانتباه إلى أن المجتمع القبلي لم يكن بحد ذاته متجانسا حتى في تركيبته الاجتماعية، بل فقد كان أقرب إلى ما كان عليه المجتمع القبلي في الجاهلية الذي **ينقسم بدوره إلى ثلاث طبقات اجتماعية كما يلي:**

أ - **طبقة القبيل:** أو جمهور أبناء القبيلة الصرحاء، وهؤلاء تربطهم رابطة الدم وهم جمهور القبيلة ودعامتها.

ب - **طبقة الموالي:** ويدخل فيها الحلفاء وهم الذين خلفتهم (جردتهم) قبائلهم وفصلتهم وتبرأت منهم لجرائم ارتكبوها، وكان الخلع يتم في الأسواق والمحافل، ومن الموالي أيضا العتقاء، وكانوا في الأصل عبيدا ثم أعتقوا.

ج - **طبقة الرقيق:** وهم إما أن يكونوا سود البشرة أو بيض البشرة لا فرق بينهم ومعظمهم يشترى في الأسواق، ويجلب بعضهم من أسرى الحرب، والسود أكثر من البيض ويدعون بالأحابيش، وهؤلاء محرومون من الامتيازات، وكان يوكل إليهم الأعمال التي يأنف العرب ممارستها كالحرف والرعي والحجامة، وكثيرا ما يعتق العبد لخدمة مميزة أو بطولة واضحة أو لكلمة طيبة تفوه بها.

وقد مر معنا في أكثر من موقع أن ديودرس أشار إلى زهد الأنباط في امتلاك الرقيق بالرغم من كونه كان جزءا مهما من تجارتهم أو وساطاتهم التجارية، فقد كانت "غزة" القريبة أحد أهم أسواق الرقيق، وكان الأنباط يوردون بضائعهم إلى غزة لتنتقل من هناك عبر البحر المتوسط أو إلى البر المصري مباشرة. إن تفسير زهد الأنباط في امتلاك الرقيق يمكن أن يعزى إلى سببين: أحدهما ما اقترحه عبدالرحمن الأنصاري من تفسير أمني مرده أن الأنباط كانوا يتجنبون حيازة العبيد حفاظا على نقاء مجتمعهم وعلى سرية مواضع المياه الدفينة في الصحراء[٣١]. وإن كنا لا نستبعد ما خص الأسباب الأمنية، لكننا نعارض ما خص النقاء العرقي للأنباط الذين أثبتت المؤشرات

والآثار الكثيرة أنهم كانوا يتحلون بقدر كبير من الانفتاح على الأجانب بعد أن كانوا أيضا قادرين على التمازج والتزاوج مع القبائل والأقوام السابقة لهم، خصوصا الأدوميين والأقوام الكنعانية الأخرى كالمؤابيين ومجموعات اخرى من شمال غرب الجزيرة العربية. أما العامل الآخر الذي قد يفسر زهد الأنباط في اقتناء الرقيق فهو العامل الاجتماعي أو التركيبة الاجتماعية، وهذا ما أشار إليه سترابو عندما قال أنهم يميلون لخدمة بعضهم بعضا أو يقومون بخدمة أنفسهم بأنفسهم، وقد عرفت هذه العادة بين ملوكهم حسب سترابو. وتوضيح ذلك يكمن في أن النظام الاقتصادي - الاجتماعي الأبوي كان يحتم على كافة أفراد الأسرة القيام بواجبات معروفة في هذا النظام، ويكاد كل أفراد الأسرة بما فيهم الأطفال يكونون جزءاً فاعلاً في هذه التركيبة، فرعي الماشية والإبل يمكن أن يؤديه طفل صغير أوطفلة أنثى، والكل مسخر لخدمة ثروة الأسرة من الأنعام أو عضو فاعل في نشاطها الاقتصادي الآخر بما فيه التجارة والزراعة، وعليه تقل حاجة الأسرة للعبيد، وإن كان ذلك لا ينفي وجود شريحة منهم بين ظهراني المجتمع النبطي لكن بنسبة أقل من المجتمعات المحيطة ربما. لأن الرق وامتلاك العبيد كان جزءاً من تركيبة المجتمعات الشرقية عموما. وظل كذلك حتى بعد أن جاء الإسلام بدعوته السمحاء التي فتحت أبوابا عديدة لتحرير الرق عوضا عن إلغائه مرة واحدة لما في ذلك من مشقة وصعوبة على هذه المجتمعات التي اعتادت الرقيق منذ آماد بعيدة. ويشير د. جواد علي إلى أن التغيرات التي طرأت على المجتمع النبطي خلال مرحلة الازدهار الاقتصادي التي كان من شأنها خلق مجتمع الرفاهية كانت قد شجعت على انتشار ظاهرة الرقيق، فالرفاهية المتنامية تتطلب مزيدا من الرق، خصوصا في المدن، وبقيت البوادي على حالها من زهد في امتلاك الرقيق لبساطة الحياة فيها(٣٢).

٢ - الأسرة ومكانة المرأة:

لا يوجد ما يشير إلى غير نظام الأسرة التقليدي المعروف في المجتمع الشرقي منذ أقدم العصور، وعلى الأرجح فقد كان شكل الأسرة الممتدة هو الشكل السائد باعتبار نمط العيش الاقتصادي ثم المرحلة التاريخية، أما شكل الأسرة النووية فهو - لا شك -

كان معروفا – خصوصا في المدن النبطية. وتدلنا مخططات المساكن النبطية على وجود أشكال متعددة من أشكال الأسر أو أحجامها أيضا، فبعض المساكن تتكون من حجرة واحدة أو حجرتين مما لا يناسب غير الأسرة النووية، بل إن بعض المساكن تتكون من حجرة واحدة من الحجرات الصغيرة المجوبة في الصخور. ولا بد من أن الأب أو الذكر الأكبر كان صاحب المكانة الأعلى في إدارة شؤون أفراد الأسرة ورعايتا جميعا، وهذه المسألة معروفة ولا تزال في المجتمع الشرقي فيما يسمى النظام البطريركي. أما بالنسبة لحجم الأسرة، فإن التوقعات تشير إلى أن الأسرة النبطية كانت كبيرة نسبيا، فأساليب تنظيم الأسرة لم تكن معروفة أو لم تكن دارجة آنذاك، ولم يرد في أي من النقوش النبيطية ما يلمح إلى ذلك، وعليه فإن مستوى الخصوبة لدى المرأة النبطية سيظل مفتوحا حسب الطبيعة، وفي هذه الحال يسهل التكهن بحجم أسرة كبير ما لم تعارض عوامل الطبيعة ذلك مثل الأمراض الفتاكة التي كانت تنتشر في بعض المناطق لفترات متكررة فتقضي على نسبة كبيرة من الآدميين والأطفال منهم خصوصا، على أن منطقة الصحراء كانت أقل المناطق عرضة لتلك الكوارث المرضية قياسا إلى المجتمعات الحضرية، وتورد الأخبار في هذا الشأن قصصاً كثيرة منها قصص طاعون عمواس الذي قضى على أعداد كبيرة من أهل الشام ومنهم من كان من صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتشير هذه القصص إلى أنه في الوقت الذي كان المرض في أوج انتشاره في الشام، كان سكان الجزيرة العربية لا يعلمون عن ذلك شيئا بما فيهم الخليفة عمر بن الخطاب الذي ارتد عن حدود الشام قافلا للحجاز حين علم بانتشار هذا المرض. أما بخصوص الوفيات الناتجة عن الحروب والغزو الذي عرف في الصحراء العربية فإن ضحايا هذه الحروب والغزوات لم تكن علامة فارقة في تحديد أعداد السكان. وبالمقابل فإن طبيعة النظام الاجتماعي – الاقتصادي، كانت تشجع على إقامة الأسر الكبيرة حيث من شأن ذلك تعزيز قدرة العائلة الاقتصادية ثم تعزيز قوتها القتالية فيما يعرف في التراث العربي "العزوة".

أما بالنسبة لمكانة المرأة، فيستشهد عادة بوجود قبور خاصة بالنساء وفق نقوشها التي تذكر ذلك، أي أن المرأة تمتعت بحقوق الملكية، وفي قبور البتراء والحجر عددا من تلك القبور الخاصة بملكيات نسائية. وفي موقع "أم القطين" مثلا عثر على

عدة نقوش لنساء تؤرخ بالنصف الأول من القرن الأول الميلادي، وقد حرصت النساء على تسجيل أسمائهن على شواهد القبور حتى في الأماكن البعيدة عن الحواضر مثل "ذات رأس" جنوب الأردن، ومثال ذلك النقش التالي "ل حيت برت عمرت بر أنجسدمس بر عمرت" أي (لحياة بنت عمرة بن أنجسدمس بن عمرة)(٣٣)، وفي نقش آخر " مؤرخ ٩٠ميلادي " قبر هينة برت عبد عبدت، لها ولأولادها وذريتهم ومن بيده وثيقة من هينة، ولأبيها عبعبدت وعبعدت بر مليكة أخت معنوه أم عبعدت أبو هينة وأخ رسي وملكو الأسرتج بر ربيب آل الأسرتج " (CIS,11,224) وقد ورد مثل ذلك أيضا في برديات البحر الميت التي تضمنت عقوداً ملكية وبيعاً وشراء تخص امرأة تسمى "بابتا"، ومن المحتمل أن أغلب هذه الملكيات الخاصة بالنساء تعود لنساء إما أجنبيات يقمن بين ظهراني الأنباط وإما نساء نبطيات من الطبقة الأرستقراطية التي تأثرت باليونانيين والرومان مثلما تشير كلمة (آل الأسترتج) التي تعطي هذا الانطباع وكذلك بعض الاسماء المتأثرة باليونانية أو الرومانية مثل الاسم "أنجسدمس"، ولا يزال هذا الأمر بحاجة إلى دراسة أكثر مما هو متوفر حتى الآن. ويستشهد كذلك بظهور صورة المرأة كأخت للملك أو كزوجته على المسكوكات النقدية. ومن اللافت للنظر أن والدة (رب إيل الثاني) كانت هي الوصية علي عرشه ريثما يبلغ السن القانونية للولاية بعد موت والده، وقد سكت العملة التي تظهر فيها صورتها إلى جانب صورته(٣٤).

والحقيقة أننا لا نمتلك نصوصا أو نقوشا خاصة بشرح مكانة المرأة بل هي تقديرات عامة، ويمكننا الإضافة ايضا بخصوص المرأة ما تعلق بظاهرة "وأد البنات" فمن المعروف أن مثل هذه الظاهرة كانت لا تزال سارية حتى بزوغ الدعوة الإسلامية التي جعلت هذا السلوك من الكبائر ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾(سورة التكوير، ٧) أو ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾(الإسراء، ٣١). ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾(الأنعام، ١٥١). والوأد عند العرب ربما يعود إلى ما قبل الميلاد، وظل

هذا الأمر ساريا بينهم إلى أن جاء الإسلام ليمنعه، والتقدير الأقوى أن هذه الظاهرة كانت لا تمارس بأكثر من واحد في العشرة، أي ١٠% من القبائل العربية[٣٥]، ومن المستبعد أن تكون وجدت بين الأنباط لأن أي من المصادر الرئيسية لم تتعرض لها لا من قريب ولا من بعيد، وكانت ستفعل ذلك حين تحدثت عن ظواهر أقل أهمية بكثير من هذه الظاهرة، مع الإشارة إلى أن مجتمع الأنباط، ومجتمعات الشام عموما كانت على مر العصور مجتمعات مكتفية اقتصاديا، مما يقلل الدوافع وراء نشوء هذه الظاهرة.

وخلاصة القول أن المرأة في المجتمع النبطي كانت مثل المرأة في المجتمعات المعاصرة والسابقة، حقوقها مهضومة في المجتمع الأبوي، خصوصا المجتمع الزراعي والبدوي، إذ يجب عليها المساهمة بجهود كبيرة في النشاط الاقتصادي دون أن يوازي ذلك قدر كاف من المكاسب، أما في المجتمع المدني فالأمر يتحسن قليلا إذ تمارس بعض النساء كل ما يمارسه الرجال من حقوق، وقد عرفنا في الممالك اللحيانية والصفوية المجاورة للأنباط مكانيا أو زمانيا بعض النساء اللاتي تبوأن سدة الحكم، وفي نظري أن هذه الحالات التي برزت فيها المرأة كانت حالات استثنائية لم تكن لتعمم على كل النساء بحيث نقول أن المرأة تمتعت بحقوق مساوية لحقوق الرجل. أما الأفراد الآخرون فإن لهم حقوقهم وعليهم واجباتهم ويتركز معظمها حول الحقوق والواجبات الاقتصادية. فجميع أبناء الأسرة الممتدة أو النووية شركاء في العمل وشركاء في الثروة إلى أن يجري تقسيمها من قبل الأب، مقابل ذلك تتكفل الأسرة بتوفير متطلبات الزواج والمسكن الجديد للأبناء الذكور البالغين ميقات الزواج. أما الإناث فالنظام الأبوي لا يعطيهن شيئا في حال زواج الفتاة غير بعض الهدايا التي تعتمد على مدى ثروة الأسرة ومدى كرمها وليس بناء على حقوق عرفية أو دينية واضحة.

٣- الأجانب في المجتمع النبطي:

لعله من البدهي أن يشمل مجتمع الأنباط جاليات أجنبية في ضوء مكانته التجارية التي كان لها الفضل الأكبر في ازدهار هذا المجتمع وتطوره، وكنا قد ذكرنا

أن الأنباط كانوا قد فطنوا لكل مستلزمات الازدهار التجاري وشروطه واتخذوا لها الأسباب بما يشبه في أيامنا هذه ما يسمى احيانا "قوانين وأخلاق تشجيع الاستثمار الأجنبي"، فقد أمنوا الطرقات وزودها بكل مستلزمات القوافل والمسافرين، ثم وسعوا المدن وأنشؤوا فيها البنى التحتية والصناعية والخدمية اللازمة، ولذلك فقد اعتقد (جلوك) أن البتراء كانت مركزا تجاريا وإداريا لرعاية شؤون القوافل أكثر من أن تكون مدينة سكنية، بالرغم من أن هذا الاعتقاد لم ينل موافقة الأغلبية الأخرى من الدارسين إلا أنه يشي بشيء من الحقيقة على الأقل.

وقد وجد في الرقيم (البتراء) وغيرها العديد من المخربشات التي فسرها البعض بوجود أجانب أو جاليات أجنبية، وعلى الرغم من أن هذه المخربشات لم تحمل نصوصا صريحة، إلا أن المستشرقين كانوا قد استنتجوا منها وجود جاليات (إغريقية، رومانية، يهودية) وكان جوسن وسافيناك من أكثر المستشرقين إلحاحا على تأكيد الاسماء اليهودية في مدن شمال شبه الجزيرة العربية، خصوصا مدينة الحجر، وقد حاول بعضهم الاستشهاد بالمصادر الإخبارية الإسلامية لتأكيد توقعاتهم حيث يشير بعضها إلى وجود اليهود في وادي القرى منذ خراب أورشليم عام ٧٠ م[٣٦]. ولا نستطيع نفي ذلك، بل إن شواهد أخرى دلت على وجود عناصر يهودية في المنطقة ودلت على علاقات طبيعية على الرغم من الحروب الخمس التي وقعت بين الأنباط ودويلات اليهود طوال أكثر من قرن من الزمان. وتؤكد مصادر عديدة أن الحاكم "انتيباتر" الأدومي، مستشار هيركانوس الملك المكابي (الإسرائيلي) حوالي عام ٦٤ق. م ومؤسس السلالة الحشمونية، كان قد تزوج من أميرة نبطية تدعى Kypros (كيبروس)، وهذه ولدت له هيردوت. وكذلك قام حفيده هيرود الثاني بالزواج من ابنة حارثة الرابع[٣٧].. ونقلت المصادر أيضا أن هيرود الثاني قام بتطليق زوجته ابنة الحارثة الرابع التي وصلت إلى قلعة مخاوريس (مكاور حاليا) لتتسلل من هناك إلى بلاد أهلها الأنباط ومما دفع الحارثة والدها إلى قيادة حملة كبيرة حاصر بها أورشليم قبل أن يجري حل الأزمة بضغط من الرومان على ما يبدو. وبخصوص العناصر اليهودية في المجتمعات العربية المجاورة سيلاحظ الدارس أن المستشرقين بالغوا في

تقدير أهمية هذه الجالية مقابل إنكار واضح لبعض الدارسين العرب(٣٨). ويجب التأكيد هنا أن وجود جالية أو عناصر يهودية وكذلك عناصر إغريقية لم يكن بالأمر المستغرب، فمجتمع الأنباط كان مجتمعا متسامحا، ثم إن مصالح التجارة وعلاقات النسب لا بد من أنها شجعت على وجود هذه الجاليات ومنها الجالية اليهودية. بل إن بعض المعارضين السياسيين كانوا قد لجؤوا إلى دولة الأنباط في بعض الأحيان، وسنشير إلى ذلك بالتفصيل في حديثنا عن حروب الأنباط مع دولة اليهود. أما الأغريق والرومان فإن آثار وجودهم القوي ظلت ماثلة حتى الآن في النمط المعماري في البتراء والحجر وغيرها من المناطق، والنقوش الكثيرة ثنائية اللغة (نبطية – يونانية) تؤكد هذا الوجود القوي، أما تلقب الملوك الأنباط ببعض ألقاب الحكام اليونان فذلك أمر اشتهر وعكسته العملات النقدية التي حرص أوائل ملوك الأنباط على التقرب فيها للثقافة اليونانية، بل إن الكثير من الاسماء حورت لحمل الطابع اليوناني مما سينشأ معه تمازج ثقافي حقيقي. وإذا ما علمنا ان استراتجية اليونان التي بلورها الإسكندر كانت ترمي إلى خلط الثقافات بالتزاوج والتجاور، إستطعنا أن نتفهم التواجد اليوناني القوي في المدن النبطية. فعلى ساحل البحر الأحمر أسست الجالية اليونانية مدينة "أمبلوني" لرعاية المصالح التجارية للبطالمة في البحر الأحمر والجزيرة العربية، ويكمن افتراض التأثير الأجنبي في منطقة الحجر وما يليها جنوبا إلى جنوب الجزيرة العربية، ففي الحجر عثر على النقوش والمخربشات اليونانية واللاتينية(٣٩). ومثل ذلك يمكن أن يقال أيضا عن الرومان الذين قدموا للمنطقة بكثافة كبيرة على ما تعكسه الآثار نظرا لما عرف عنهم من اهتمامهم الكبير بالمنطقة وطرقها التجارية، وقد ترك الرومان لنا إرثا مميزا في الأسلوب الروماني في المعمار، وكذلك في مسميات الوظائف العسكرية، وربما في الزراعة أيضا، وفي القدر الكبير من العملات الرومانية. أما الجالية المصرية فلا شيء محدد باستثناء ما يشار إليه من بعض التأثير الثقافي المصري في المجتمع النبطي، خصوصا ما تعلق منه بالدين والمعتقدات وبناء المعابد، ومن هذه المعابد التي أبرزت التأثير المصري على سبيل المثال "قصر بنت فرعون"، ثم استخدام البخور في المراسم والشعائر الدينية. كيف لا ونحن نعرف أن الطريق التجارية النبطية العابرة للنقب وسيناء كانت من أهم الطرق التجارية للأنباط. وكانت السوق

المصرية من أكبر الأسواق المستوردة للسلع النبطية كالقار المستخرج من البحر الميت، ثم النحاس المستخرج من منطقة فينان، ثم البخور والطيوب والمر القادمة من جنوب الجزيرة العربية إضافة إلى أعداد أخرى من السلع الكمالية كالبلسم واللؤلؤ....إلخ.

٤- الزواج في المجتمع النبطي:

من غير الواضح تماما إذا ما كان الأنباط قد عرفوا غير شكل الزواج الأحادي الذي عكسته معظم الآثار والنقوش المتوفرة، فهذا الملك الحارثة الرابع (٩ ق.م – ٤٠ م) قد تزوج من اثنتين (خلدو) ثم (شقيلت)، وكانت صورة خلدو تظهر في العملة إلى أن انقطعت عن ذلك عام ٢٤ من حكم الملك لتبدأ صورة (شقيلت) بالظهور في العام ٢٧ من حكمه، وأغلب الظن أن خلدو الزوجة الأولى إما طلقت وإما توفيت. وفوق ذلك فليس من الواضح إن كان الأنباط عرفوا أنماط الزواج الأخرى التي كانت معروفة لدى عرب الجاهلية حتى أيامها الأخيرة من مثل تعدد الزوجات أو تعدد الأزواج أو زواج المباضعة... إلخ من الأنماط[٤٠]. ويبدو أن الأنباط كانوا يتخذون السريات والمحظيات بالإضافة إلى زوجاتهم، ففي نقش ضريحي من الرقم (٨٠) تذكر زوجة ومحظية وحليهما، وتدعى المحظية لديهم " أسرتا " ربما من الأسر، فهي من بقايا السبي، وكان المصدر الأساسي للرقيق هو العرب[٤١]. لكن لا شيء يمنع من الاعتقاد أن الأنباط عرفوا تعدد الزوجات على الأقل باعتبارهم حملة الثقافة السامية ثم باعتبارهم المجتمع القبلي الذي ظل يحافظ على تقليد تعدد الزوجات لوقت طويل، بل ولأيامنا هذه مرورا بالإسلام الذي لم يمنع هذه الظاهرة بل قام بتنظيمها فقط. أما الأشكال الأخرى من الزواج التي عرفت في الجاهلية، فإن مجتمعات المدينة لا بد من أنها عرفت أنماطا أخرى من الزواج أو على الأصح العلاقة الجنسية مثلما عرفته المجتمعات الشرقية، وقد وردت إشارات كثيرة في العهد القديم تؤكد وجود مثل هذه الظواهر، (راحاب أريحا في سفر يشوع، ١٧) وقد وردت في كتب الأخبار الإسلامية أيضا الكثير من الصور في بعض المدن في شمال شبه الجزيرة العربية وفي الحجاز حتى مجئ الإسلام، لكننا لا نستطيع تحديد أي من تلك الأنماط كان معروفا دون أن نعتمد على مؤشرات أو نصوص كافية.

٥- الملكية والإرث:

عرف الأنباط الملكية الخاصة مثلما نعرفها اليوم، والنقوش التي تملأ القبور حافلة بنصوص تذكر ملكيات هذه القبور وتفصل في حقوق ملكيتها وإرثها أيضا. ويلاحظ في نقوش الحجر النبطية أن الإرث لم يكن تلقائيا أو مطلقا، بل كان لا ينفذ إلا بموجب وصية محددة، أي يحدد فيها المورث الأشخاص الذين يحق لهم الوراثة ومن الممكن أن يستثنى منها بعض من الورثة لهذا السبب أو ذاك مما لا نعرفه من الأسباب. وفي نقش فريد نجد أن وصية للجيران كذلك على أحد الأضرحة "لهم ولعميرة وعصرانة وآل علت بنات وشوح ولجيرانهم الذكور والإناث" (CIS,11,207) وجاء في أحد نقوش القبور أيضا: "قبر أروس بر فرون، له ولأبيه فرون الهفرك ولزوجته قينو ولأخواته حطبة وحملة وأولادهم ومن يكتبون له وثيقة بذلك من الورثة الشرعيين" (CIS,11,207).

٦- الختان:

لا شيء في الآثار يوجب الذكر بخصوص هذه العادة أو الظاهرة لدى الأنباط، ومن المنطق أن نعتقد أن الأنباط مارسوا عملية الختان مثل مختلف الأقوام السامية الأخرى، بل إن الختان كان منتشرا في مناطق أوسع، ويزعم "هيرودت" أن اصل العادة جاء وانتشر من المصريين " وخلاصة القول أن ثمة أربع أمم تأخذ دون سواها، بعادة الختان، فالجلي لدينا أنها تقتدي بالمصريين في هذا، أما الأثيوبيون فلا أملك أن أجزم إن كان هؤلاء قد أخذوا بهذا التقليد عن المصريين، أم أن المصريين يقتدون بهم في إتباعه، ولكن مما لا ريب فيه أنه يعود إلى تاريخ بالغ في القدم في أثيوبيا، أما الآخرون فالجلي عندي أنهم اقتبسوا معرفتهم به من مصر[٤٢]. على أن محاولات قامت لإثبات أن هذه العادة كانت مقتبسة من اليهود، ومنهم من يعود بذلك إلى الرومان الذين - كما قيل - حاولوا إجبار العرب الذين احتلوا بلادهم في سوريا وغيرها على تغيير الكثير من شرائعهم المحلية، وكان الختان أحدها[٤٣]. لكن المصادر العربية تشير أو توحي أن مثل هذه العادة ضاربة في القدم في مجتمع الجزيرة العربية

إلى درجة وصلت معها حد التقديس. وفي تراث عرب الجاهلية ما يشير إلى أن الختان هو من تمام الرجولة.

٧- القانون والعرف:

أشارت المصادر التاريخية إلى أن الأنباط لم يعرفوا نظام المحاكم الرسمية ولم يكونوا بحاجة إليها حسب سترابو، والأبنية التي قدر أنها من بقايا المحاكم في البتراء هي في الحقيقة محاكم يونانية أو رومانية نشأت في العصر الروماني، ومبنى المحكمة المنحوت في الجانب الشرقي لمدينة البتراء هو في الحقيقة من أكبر أبنية المدينة، ونحن نميل إلى تصديق سترابو الذي قال "أن الأنباط لم يعتادوا اللجوء الى المحاكم ولم يكن لديهم محاكم خاصة بهم، والمحكمة خاصة بالأجانب في حال خرقهم أو تعديهم عليها"، ويفسر سترابو ذلك بحب الأنباط للسلام والتصالح. إذا فإن المحاكم الرسمية كانت من صنع اليونان والرومان. غير أننا لا نشك في أن الأنباط كان لديهم نظام قانوني يحتكمون إليه في تسوية خلافاتهم وتحصيل حقوقهم والاقتصاص من مرتكبي الجرائم والجنح والمخالفات، وبغير ذلك لا تستقيم حياة المجتمع، فما بالك بمجتمع مترامي الأطراف، تعددت فيه الأنشطة وكثر فيه الأجانب وازدادت ثرواته...إلخ.

الحقيقة في أمر القانون النبطي يكمن في العرف أو القضاء العشائري وفق تسميتنا اليوم، ولا بد من أن جزءاً كبيراً من أعراف العشائر البدوية وقوانينها القضائية اليوم قد تشابه مع قوانين الأنباط أو اقتبس منها، وللأعراف سمة الحياة الطويلة مثلما نعرف لدى كل الشعوب، خصوصا شعوب الشرق. أما المؤسسات القضائية، فلا بد من أن الملك يقف على رأسها وإن كان بصورة رمزية بعد أن كثرت مشاغله وتوسعت مملكته، وقد ورد في نقوش الحجر النبطية ما يؤيد هذا الاحتمال إذ حددت غرامات لصالح الملك أو لصالح دوشرا في حالة التعدي على الحقوق المنصوص عليها في النقش الذي يخص القبر.

وبوسعنا الآن تخيل الإجراءات التي كان الأنباط يتخذونها في حالة نشوب النزاعات الفردية أو الجماعية وفي كل الحالات التي تستوجب تحكيما قانونيا: يجري التوجه إلى أحد الوجهاء أو الزعماء أو الرموز الدينية، يعرض على هؤلاء طلب

الحقوق أو الاستعداد لدفعها في حالة الثبوت أو حالة الاعتراف، وهو ما نسميه اليوم في العرف العشائري "العطوة"، ويبدو أن هذا الاصطلاح مشتق من الجذر "عطى" أي أعطى، بعد ذلك تجري ترتيبات متصاعدة إلى أن يجري الفصل بين الطرفين بإصدار الأحكام أو تنفيذها، في بعض الحالات يحق لأحد الطرفين الاستئناف أمام قاض آخر غالبا ما يكون أعلى مكانة وفق العرف السائد. أما في حالات نزاع الدم، فيجري التوجه إلى قضاة خاصين بمثل هذه القضايا الكبرى، وحسب العرف أيضا فإن لكل نوع من القضاة أو "المشايخ" ما يختص به من القضايا. ولا بد أيضا من أن القضاء راح يتسع ويتفرع بعد أن برزت في المجتمع النبطي تطورات اجتماعية واقتصادية جديدة، ومن المحتمل أن بعض القضايا التجارية احتكم فيها أمام القضاء اليوناني أو الروماني ما دام الأنباط قد انتشروا في مناطق أجنبية كثيرة، ولا بد أن بعض الأجانب أيضا استطاع تحقيق بعض الامتيازات بشأن تطبيق قوانين مجتمعه وأعرافه في بعض الحالات، خصوصا ما تعلق منها بالقضايا التجارية.

ثالثاً – (النظام العسكري/الإداري) نظام الدولة وجيشها ووقائعها الحربية:

كنا قد تحدثنا عن الكثير من مظاهر النظام السياسي لدولة الأنباط في مواقع كثيرة من هذا الكتاب، ونضطر هنا لتلخيص أهم ما علم من مظاهر هذا النظام وأركانه بما في ذلك القوانين والأساليب الإدارية للدولة. إضافة إلى نبذة عن القوة العسكرية للأنباط وأهم ما عرف من وقائعهم الحربية في أكثر من أربعة قرون هي العمرالسياسي للقوة النبطية.

أولا- هيكل الدولة:

أ – رأس السلطة (الملك): يعتبر الملك رأس السلطة في الدولة، وليس لدينا أي مخلفات تدل على طريقة اختيار الملك، لكن المصادر التاريخية وفرت لنا قدرا لا بأس فيه من المعلومات والإشارات المفيدة حول هذا الموضوع، منها أن تداول السلطة في الأسر الحاكمة غلب عليه الطابع السلمي، إذ لا تذكر المصادر ولا تشير إلى أي نزاع كبير في هذا الجانب باستثناء الإشارات غير المؤكدة لاستيلاء الحارث الرابع

على السلطة مما سيلي الحديث عنه. وأما بخصوص نشوء الأسرة الحاكمة، فالأمر لا بد من أن يكون متماثلا أو متشابها مع الطريقة الرئيسية الدارجة في الشرق التي تستند إلى النظام القبلي وعناصر القوة فيه. فالقبيلة الأكثر عددا وأكثر قوة غالبا ما تسعى للاستئثار بالسلطة، وهذا أمر طبيعي بين كل الجماعات البشرية شرقيها وغربيها، على أن مصادر القوة لا تنحصر في العدد والعتاد في كثير من الأحيان، ففي حالات معينة كانت قبيلة أو اتحاد قبلي ينجح في الوصول إلى السلطة والتمركز فيها وتوارثها ليس بفضل الأعداد المقاتلة بين أبنائه، بل وبفضل حسن القيادة وميزة التماسك الداخلي أمام أعداد أخرى أقل تماسكا أو أسوأ قيادة. وفي حالات أخرى كثيرة كانت جماعة معينة أو فرد مخصص يتلبس اللبوس الديني لمساعدته في السيطرة على السلطة، وفي كل الأحوال فإن مصادر قوة الجماعة هي المنطق الأفضل للوصول إلى السلطة في المجتمعات القديمة حيث لم تكن الانتخابات معروفة إلا في المجتمع الأثيني في القرن الخامس قبل الميلاد تقريبا عندما كان يجري انتخاب ممثلين وحكام من قبل الشعب مباشرة.

كان ملك الأنباط ما يزال يحتفظ بكثير من خصائص شيخ القبيلة، فهو يخدم نفسه بنفسه، بل ويخدم ضيوفه أيضا، ويقدم لشعبه " كشفا" عن شؤونه الذاتية[٤٤] وفق ما علمناه من سترابو، ولم يكن الملك محتكرا للسلطة المطلقة، فقد أشرك غيره فيها كما يبدو، ويبدو أن بعضا من أفراد العائلة المالكة استأثر ببعض الصلاحيات مما يعكسه ظهور صور الملكات على العملات النبطية، ثم من خلال ما علمنا عن تولي زوجة الملك الوصاية على الوريث الشرعي خمسة عشر عاما.

وكان أول استخدام لاسم الملك قد ظهر في عهد (عبادة الثاني ٦٢-٦٠ ق.م) فصاعدا، وقبل ذلك عرف رأس السلطة "المالك على مسكوكاته" تقليدا للسلوقيين والبطالمة في اتخاذ هذا اللقب[٤٥].

وما يؤيد أن الملكية في الأنباط لم تواجه هزات عنيفة ما نعرفه عن توارث السلطة من الأبناء بعد الآباء، وفي حالة معينة كان الوريث الشرعي دون مرحلة البلوغ إثر وفاة والده، ومع ذلك كانت أمه الحاضنة أو الوصية على العرش إلى أن بلغ السن التي تتيح له الحكم مثلما كان مع الملك (رب إيل الثاني) الذي ظل تحت وصاية أمه

خمس سنوات، حيث ظهرت صورتها بجانب صورته على النقود، وهو الملك الأخير للأنباط حسب تقديرات أكثر الدارسين(٤٦).

ونعود لما كانت بعض المصادر قد أشارت إليه في أن الحارثة الرابع (٩ ق.م – ٤٠ م) كان قد استولى على السلطة بعد أن كان ضابطا كبيرا في جيش الأنباط واسمه (إيناس)، وأشارت بعض المصادر إلى أن الحارث ربما ينحدر من قبيلة ثمودية من قبائل الحجر، وقد استدل على ذلك من خلال العدد الكبير من القادة (الأسرتج) الذين وثقوا أسماءهم في مدينة الحجر. ويبدو أن الملك الحارث اعتمد على أبناء قبيلته وأبناء منطقته الجنوبية لترسيخ سيطرته في الحكم(٤٧).

ب – الوزير الأول Ethnarch (رئيس الوزراء): تعرفنا لوظيفة الوزير الأول من خلال الوزير سيلي (صالح) الذي برز في عهد الملك عبادة الثالث، فهو نائب الملك، ومهمته رعاية مصالح الأنباط في الخارج، وهذا يدل على تأثر الأنباط بنظام الدولة السلوقيين والبطلميين ثم الرومان(٤٨)، وهو في اتصاله بالإمبراطور الروماني إنما كان يقوم بدور كبير اتجاه مصالح بلده، وتروي المصادر، خاصة (يوسيفيوس) المؤرخ اليهودي – الروماني ثم سترابو الكثير من القصص عن سيلي. ويخبرنا (يوسيفيوس) أن سلي Syllaeus كان كثير المكوث في روما بجانب القيصر، وقد حاز على ثقته، وأنه استطاع إقناع القيصر بأن هيرود ملك يهودا قام بالاعتداء على المملكة العربية وقام بالقتل وأخذ أسرى..إلخ. مما سنورده في حروب الأنباط مع اليهود، وقد دافع سيليوس خير دفاع عن دولته ومواطنيه وكان قد أصر على لبس السواد قبل مقابلة الإمبراطور الروماني(٤٩).

ونعرف من خلال سترابو أن الرومان اختاروا سيلي لمرافقة حملتهم العسكرية الأولى والأخيرة على جنوب الجزيرة العربية (٢٤ ق.م) بقصد السيطرة على الطرقات التجارية وأسواق البخور والطيب التي اشتهرت فيها تلك المناطق، وكان على سيلي وكتيبته النبطية الإرشاد وقيادة الجيش الروماني وتزويده بما يلزم من الماء والمواد التموينية. وإثر الفشل الذي آلت إليه الحملة بفعل كوارث الطرق الصعبة التي إتهم سيلي باختيارها لإهلاك الجيش، فقد اتهم سيلي "بالخيانة العظمى"(٥٠) للرومانية مما يجب معه اعتقاله وقيادته للمحاكمة في روما حيث تم إعدامه.

والمصادر التاريخية أو النقشية لا تخبرنا بغير اسم سيلي كوزير، ويبدو أن هذه الوظيفة لم تنشأ قبل الحكم الروماني وربما منذ الحكم اليوناني لأن الملوك الأنباط مثلما ذكر صاروا يقلدون ملوك الإغريق في الكثير من شؤونهم مثل سك العملة والعبارات والصور التي تحملها ومثل المسميات أيضا وربما الأساليب القيادية والإدارية في الدولة، وهذه الأخيرة واضحة من بعض مسميات الوظائف العسكرية والمدنية، خصوصا في المرحلة الرومانية حيث أحصى سليمان الذيب ستة مسميات رومانية للوظائف الكبرى في نقوش مدينة الحجر وحدها. والمصادر كذلك لا تنبئنا شيئاً عن وجود وزراء آخرين مختصين أو غيرمختصين، غير أنه من المؤكد أن تنظيم الإدارة النبطية كان قد تأثر كثيرا بالتنظيم اليوناني ثم الروماني، حتى أنه يمكن الافتراض أن اليونانيين أنفسهم قد أبقوا على الكثير من التقسيمات الإدارية للفرس قبل إندحار الأخيرة منذ عام ٣١٤ تقريبا. فقد اعتمدت الأساليب الفارسية ذاتها في التنظيم العسكري وفي نظام إدارة المقاطعات، ويبدو أن الجهاز القديم كان باقيا. أما بخصوص المدن الهلينية فقد منح بعضها نوعا من الاستقلال الذاتي لإدارة شؤونها لتشكل دول المدن(٥١)، ومن أمثلة ذلك مدن الديكابوليس التي كان معظمها يقع في منطقة شرقي الأردن.

ت - **الأستراتج** (س ت ر ت ج): Strategus وكان بمثابة حاكم الولاية، ومن المحتمل ان يكون هذا منصبا مدنيا. ويبدو أن سلطات الأستراتج قد تعرضت لبعض التطوير أو التبديل في الفترة الهلينستية، إذ نجد التنظيم الروماني في مصر يقسم البلاد إلى ثلاث مقاطعات واقاليم، يتولى كل مقاطعة ابستراتيج (Epistrategos)(٥٢).

ث - **الهفرك**: والكلمة من أصل يوناني (Eparchos) وتعني قائد الفرسان وهي "هفركا" بالآرامية، وقد وجد الكثير من النقوش التي يحمل فيها أشخاص هذا اللقب بلغت ١٣ نقشا. ومن المحتمل أن يكون الهفرك بمثابة القائد العسكري للمنطقة فيما كان الأسرتج المسؤول السياسي أو ممثل الملك فيها، إذ أن الأسرتج والهفرك وظيفتان متلازمتان وفق العديد من النقوش.

ج – **رب مشربتا**: وتعني قائد المعسكر، وهو منصب عسكري أدنى من منصب ستراتيجوس (إستراتيج)[٥٣] ومن غير الواضح تماما سلطاته التي تحتمل ممارسته لسلطات مدنية أيضا.

ح – **كليركا**: وهي إغريقية الأصل Chiliarchos وتعني قائد الألف رجل، وفيها إشارة وحيدة في نقش من مدينة الحجر أنشأه "مليكون فتورا لأبيه حنينو هفستيون كليركا" في العام ١٧ للحارثة الرابع.

خ – **قنطرين (الكنتوريو)**: الذي هو قائد الحامية العسكرية المكونة من مئة رجل، ومثل هذه الحامية وجد في ميناء لويكي كومي، فبالإضافة إلى حماية الميناء، فإن الحامية أيضا تقوم بجباية الضريبة المقدرة بربع التجارة المارة بالميناء.

وبالإضافة على هذه الوظائف القيادية ذات الصفة الحساسة، فقد وجد أيضا عدد آخر من الوظائف والمناصب المهمة، نعرف منها[٥٤]:

١- **م ق ت ب ي "الجمال"**: إن منصب الجمال يعبر عنه بالنبطية ب "مقتبي وبالعربية" اقتب " وهو الرجل الذي يضع السرج الخلفي على ظهر الجمل. ويبدو أن هذه الوظيفة كانت مهمة ليس لأن الجمال يضع السرج على الجمل، بل لإنه يتحكم في سلوك الجمل ويسيطر عليه، وهذا أشبه ما يكون بقائد الطائرة أو الدبابة في عصرنا الحالي، في ضوء ما نعرف عن أهمية الجمل بالنسبة للأنباط ولقبائل الصحراء عموما وللتجارة والحروب خصوصا. (انظر الملحق رقم ١ – الجمل علامة فارقة).

٢- **راش " الرئيس"**: وهذا اللقب يطلق على الشخص المسؤول عن توزيع كمية المياه المخصصة لأصحابها من قبل المعبد، ويستعمل أيضا لرئيس المدينة مثل تدمر في القرن الثالث الميلادي وتيماء والحجر في القرن الرابع. ومن المحتمل أن تحديد حصص المياه كان من المهمات الحساسة لتلك الحضارات بحيث يتولاه رجل ذو مكانة عالية في نظام الدولة أو المدينة.

٣- **ف ر س ا " الفارس "**: وهذه وظيفة يكون الفارس بموجبها مسؤولاً ورئيساً لعشرة خيالة، ويبدو أن هذه الوظيفة وغيرها أيضا تشير إلى التأثير اليوناني على تطور الخيالة وتربية الخيول عند الأنباط.

٤- **ف ت و ر ا "مفسر الأحلام"**، ومن المحتمل أن هذه الوظيفة تعود إلى التنظيم العسكري والمدني في الحجر، وقد اختلف في معناها بين الباحثين، لكن أحمد العجلوني يرجح معنى مفسر الأحلام للملك. وهذه وظيفة عرفتها الحضارات الشرقية جميعا منذ آماد بعيدة، وهي تكتسب أهمية بالغة لتداخلها بالكهانة ولتأثيرها في الكثير من القرارات المصيرية والحساسة.

وبذلك نلاحظ مدى التأثير اليوناني ثم فيما بعد الروماني الذي قام هو الآخر بتثبيت معظم التقسيمات الإدارية والسياسية والعسكرية في نظم الدولة، غير أن الرومان كان لهم بصمات واضحة على التنظيم العسكري أكثر من غيره من تنظيمات الدولة، نظرا لما اشتهر به الرومان من اهتمام شديد بالنظم العسكرية. غير أن المصادر التاريخية تكاد تغفل جانبا آخر من التنظيمات التي كانت معروفة ومعتمدة لدى الأنباط، بل لدى كل الدول التي كانت تقوم في ذلك الوقت، حتى الدولة الرومانية قامت بالحفاظ على تلك التنظيمات التي تخص المناطق القبلية في الصحراء، وظلت الدول فيما بعد تحافظ عليها بعد أن علمت أن تغييرها كان صعبا لأنها تكون البنية الاجتماعية والقيمية للقبائل العربية، وقد اعتمد هذا التنظيم على شيوخ القبائل في تنظيم مصالح الدولة ورعايتها مقابل بعض الفوائد المباشرة وغير المباشرة، خصوصا، أن منطقة القبائل غالبا ما تكون غير مستقرة كما هو معلوم، مما يعني أن التنظيم الإداري يلحق بالناس أكثر من أن يلحق بالأرض، على أن الدولة كانت تعزز وجودها في أطراف البوادي بإقامة حاميات عسكرية هنا وهناك، خصوصا قرب الطرق التجارية والمناطق الحدودية المرتفعة.

ثانياً- الجيش النبطي:

لا توجد معلومات مباشرة تخص الجيش النبطي، غير ان بعض الشذرات هنا وهناك قد تكفي ليس لتبيان تنظيم الجيش، بل لإظهار مدى القوة العسكرية التي تمتعت بها دولة الأنباط التي استطاعت مجابهة الكثير من التحديات بفضل قوتها العسكرية وبفضل قيادتها السياسية التي حاولت الحفاظ على سياسة متوازنة بين أطراف المعادلات القائمة آنذاك، مستفيدة من كل فرصة سانحة للتوسع أو لتكريس أقدامها أو لدفع شر أعظم تراه ماثلا أمامها.

ولا نستطيع الحديث عن قيادة واضحة للجيش، باستثناء ما بدأ يردنا من اسماء القيادات العسكرية والمدنية في النقوش التي أشرنا إليها، والتي أشارت إلى مسميات إغريقية أو رومانية، ويبدو أن التنظيم العسكري للأنباط، شأنه شأن مناحي الحياة الأخرى، كان قد مر بمراحل تطورية، **يمكن تقسيمها إلى فترات ثلاث كما يلي:**

أ - **الفترة الأولى:** كانت القوة العسكرية النبطية تعتمد على أعداد من الفرسان التي توفرها القبائل المتحالفة التي لا شك في أن الأنباط كانوا عمادها القيادي. في هذه المرحلة لم تكن القوة النبطية متفرغة كجيش، بل هي قوة تطوعية تتجمع حين الضرورة فقط وتفترق بانتهاء مهماتها الهجومية أو الدفاعية المحددة. ويبدو مثل ذلك في قصة الحملات اليونانية الأولى على الأنباط في صخرتهم (٣١٢ق.م)، إذ تفاجئ الحملة أهل الصخرة من الأنباط بعد أن سارت قادمة من سوريا عددا من الأيام. ولم تواجه الحملة أية مقاومة لأنها أخذت المدينة على حين غرة، إلا أن الأنباط استطاعوا التجمع واللحاق بالحملة في أثناء عودتها ليلا، وهذا دليل على أن قوة الأنباط اعتمدت على "الفزعة والنخوة"، ولم يكن لديها نظام عسكري واضح المعالم آنذاك. أما من ناحية المعدات الحربية، فالشواهد تشير إلى الجمل باعتباره ركوبة المحارب النبطي والعرب في شمال شبه الجزيرة بشكل عام، ويبدو أن استخدام الخيل كان قليلا حتى جاءت جيوش السلوقيين والرومان.

ب - **الفترة الثانية:** يحتمل أن يكون الأنباط قد بدؤوا تنظيم بعض الحاميات العسكرية لهم في أعقاب الحملات السلوقية المشار إليها، لا يوجد ما يؤكد ذلك، غير أن

الأكثر احتمالا هو أن النظام القبلي تنبه إلى ضرورة أخذ الحيطة والحذر أكثر من ذي قبل، ويبدو ذلك في الحملة الثانية التي كان الأنباط قد حسبوا لها حسابا، فرصدوها قبل أن تتمكن من مفاجأتهم، غير أنهم أيضا لم يواجهوها بالقوة العسكرية المنظمة لأنهم لا يملكون هذه القوة أغلب الظن أو ليس لهم قبل بمواجهة القوات الغازية، ولذلك آثروا الانسحاب في عمق الصحاري بعد أن حصنوا ما يصعب حمله ونقله كالأموال والعجائز والأطفال.

ت - **الفترة الثالثة:** بدأ السلوقيون والبطالمة بعدهم بإيلاء أهمية لتنظيم الأمور العسكرية في الولايات التي تقع تحت نفوذهم، وما أن بدأ النظام الملكي بالبزوغ في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد، كان ذلك يتطلب تطورا مواكبا في التنظيم العسكري، فالملك يحتاج إلى قوة تنفيذية تأتمر بإمرته وتسهر على حماية أمنه ومصالح الدولة الحيوية عموما كحراسة الطرق والمحطات التجارية.

في هذه المرحلة بدأت الأساليب والطرائق السلوقية بالنفاذ إلى تنظيم الأنباط العسكري وربما بإشراف مباشر منهم أيضا، ووفق التنظيم السلوقي، فقد كان الجيش والأسطول البحري تابعين للملك، وتمتع الجيش السلوقي بنفوذ كبير في الدولة، كان اليونان هم نواة الجيش، غير أنه راح يضم جنسيات أخرى إلى صفوفه، وعادة ما كانت كل جنسية تكلف بمهمة أو مهمات محددة في الجيش، وكانت الكتيبة اليونانية مسلحة بالسيوف والرماح الضخمة التي بلغ طولها واحدا وعشرين قدما تحميها الخوذ والتروس، وكان السلاح الوطني لليونان والمكدونيين الرمح لا السيف وبقي كذلك، أما رماة القذائف النبالة وأصحاب المقاليع وقاذفو الرماح فهم من غير الهلينيين، وكانت بعض كتائب الخيالة تضم بعض الفرس وبعض السوريين، فيما كان الرماة العرب وهم يركبون الجمال خلف الفرسان حاملين سيوفا رشيقة طولها أربعة أذرع لكي يتمكنوا من الوصول إلى العدو من علو كبير كهذا. وفي بعض المعارك، جلب السلوقيون عددا من الفيلة من الهند حيث كانت تحقق نتائج مميزة(٥٥). ولا بد من أن الأنباط قد طلب منهم تكوين فرق أو كتائب لهم للمشاركة في بعض الحملات السلوقية، وسفر المكابيين الثاني يشير إلى مثل هذه الجيوش التي كان السلوقيون يجمعونها من شتى الأقوام والقبائل

القائمة، ولا بد من أن الأنباط استفادوا من هذه المشاركات في تكوين جيشهم النظامي فيما بعد، وقد ظهر ذلك في اسماء الرتب والوظائف العسكرية وطرائق القتال والأسلحة. زد على ذلك كثرة الحروب والغارات التي كانت رحاها تدور في المنطقة بين الفينة والأخرى بسبب من سوء إدارة السلوقيين ثم بسبب صراعاتهم مع الفرثيين في الشرق من سوريا ومع البطالمة المصريين في الغرب إضافة إلى الثورات المحلية التي نشبت في أقاليم متعددة من سوريا كثورات الإيطوريين والمكابيين.

ثالثا: الوضع السياسي الإقليمي والدولي منذ أواخر القرن الرابع ق.م.

منذ حوالي ٣١٢ ق.م صار الأغريق يعززون قوتهم في المنطقة بدءا من سوريا التي جعلوا فيها عاصمة السلوقيين (سلوقية) ثم (أنطاكيا)، وبدؤوا يحاولون التوسع ليواجهوا أشقاءهم البطالمة في مصر في عمليات صراع دامت طويلا تراجع فيها السلوقيون بفضل هذا الصراع من الغرب والجنوب وبفضل الصراع مع الفرثيين في الشرق إضافة إلى التمردات والثورات المحلية في ولاياتهم.

وكان الفرثيون[٥٦] قد أقاموا أسرة حاكمة لهم في إيران عام ٢٥٠ ق.م وراحوا يصارعون السلوقيين للسيطرة على بلاد النهرين ففتحوها عام ١٣٩ ق.م وطردوا السلوقيين من بابل وميديا، واتخذوا سلوقية عاصمتهم الشتوية. وظل الفرثيون طوال الوقت يتطلعون لتوسيع نفوذهم غربا لنفس الأسباب التي دفعت القوى الأخرى لذلك ألا وهو السيطرة على الطرق التجارية البحرية منها والبرية. وهم في مساعيهم هذه استخدموا العديد من الوسائل الحربية وغير الحربية وأهمها استمالة بعض القبائل العربية ودفعهم لشن غارات على أملاك السلوقيين وحلفائهم بقصد زعزعة استقرار السلوقيين. وقد استطاعوا في العام ٤٠ ق.م اجتياح مناطق واسعة من بلاد الشام إثر استغلالهم للخلافات الداخلية في الإمبراطورية الرومانية، ولكنهم لم يمكثوا طويلا فقد استطاع الرومان طردهم بعد عامين فقط من ذلك[٥٧]. يمكن كذلك التذكير بالنفوذ أو الاستعمار الفارسي القديم الذي أعقب استيلاء الفرس على بابل ٥٣٩ ق.م والذي أورث هذه الإمبراطورية الجديدة كل أملاكها في الغرب وفي الشرق ومنها المنطقة العربية برمتها وفي القلب منها سوريا الطبيعية.

يشار كذلك إلى سلسلة المدن العشرة (اتحاد الديكابولس) التي كانت مدنا أنشأها اليونانيون أو أعادوا تجديدها كمدينة عمان (فيلادلفيا)، وقد ارتبطت هذه المدن مع بعضها بعضا بعرى حضارية ودينية واقتصادية وثقافية، وكانت على درجة عالية من التقدم والازدهار[٥٨]، وقد انضم لهذه المدن مدن أخرى فيما بعد. وجميعها تقع شرقي الأردن باستثناء سكيثوبولس (بيسان) ومنحت أنطاكية وسلوقية وغزة ومستعمرات أخرى الحكم الذاتي أيضا تحت حكام الولايات[٥٩]. لكن هذه المدن لم تكن لتشكل خطرا حقيقيا على جيرانها من الأنباط أو غيرهم، غير أنها كانت تقطع إقليم دولة الأنباط من المنتصف تقريبا.فهي تمتد من بيسان قرب بحيرة طبريا غربي النهر وتمتد شرقا لتشمل طبقة فحل (بلا) في الغور ومدينة عمان (عمون- فيلادلفيا) ثم شمالا إلى أن تصل إربد (أرابيلا) وجرش (جراسا) وأم قيس (جدارا) ومدينة (ديون) ولعلها "إيدون" من أعمال إربد حاليا[٦٠].

من الناحية الشرقية للصحراء النبطية، فقد كانت الحجاز التي ضمت آنذاك مدنا صغيرة تحيط بها مجموعات كبيرة من القبائل العربية المرتحلة التي لا تستقر حتى تعود للرحيل، وكان بعض تلك القبائل يعمل على ضعضعة استقرار الطرق التجارية بهدف السلب والنهب، إلا أن الحفاظ على سلامة الطرق التجارية كاد يصبح مصلحة حقيقية لمعظم القبائل، أو على الأقل للقبائل الكبيرة التي أخذت على عاتقها رعاية سلامة الطرق التجارية ما دامت تحقق من وراء ذلك مصالح لها في التجارة أو في العطايا والهدايا التي كانت تمنحها لهم الدول القائمة. ويبدو أن الأنباط كانوا قد استغلوا جيدا صلاتهم القرابية والثقافية بتلك القبائل فأقاموا معها عهودا متينة بالحفاظ على مصالح الدولة النبطية، خصوصا ما تعلق منها بسلامة الطرق التجارية عبر شبه الجزيرة. ولم تكن حدود الأنباط في تلك الجهات تتعرض لخطر حقيقي، بل إن مدينة الحجر كانت أشبه ما تكون بمدينة مستقلة في ظل الحكم النبطي كما مر معنا من مظاهر الحكم الذاتي كسك النقد وعلو صرح المعمار والثراء فيها.

غير أن الخطر الحقيقي الدائم سيبدو لنا بوضوح متمثلا في الكيان اليهودي المجاور لهم غربا في بعض أجزاء فلسطين، وفي بعض الفترات كان يمتد إلى مناطق

في شرقي الأردن؛ لأن معظم الحروب والمعارك التي خاضها الأنباط كانت مع ذلك الكيان، خصوصا في فترة حكم المكابيين (١٦٧- ٣٧ ق.م).ثم مع خلفهم الأسرة الهيرودية (الهرادسة ٣٧ق.م - ١٠٠م)، وذلك أن هذه الفترة من الزمان كانت هي نفسها التي شهدت تطور حضارة الأنباط ودولتهم، وهي الفترة نفسها أيضا التي ظلت فيها القوى الغربية (اليونان - الرومان) وكذلك القوة الشرقية (الفرس - الفرثيين) تتطلع للسيطرة على منطقة الشرق وصولا إلى سواحل المتوسط الشرقية وموانئه البحرية في المتوسط والأحمر إضافة إلى الطرقات البرية التي كانت تمثل شرايين العالم الشرقي آنذاك.

كان الكيان اليهودي طوال هذه المدة يمور بالتقلبات والثورات والصراعات الداخلية (انظر في الملحق "١" المكابيين والهيروديين جيران الأنباط)، وكانت مظاهر الصراع كما تعكسها المصادر العبرية تتراوح ما بين الصراع على سلطة الكهنوت والسلطة الزمنية، ثم الصراع ما بين ثقافتين أو أسلوبين للحياة، أسلوب يتمثل في تقاليد الشريعة وفق ما تراه فئة من المتصارعين مقابل ما تراه فئة أخرى ارتأت اندماج اليهود في ثقافات العصر السائدة من كنعانية- آرامية ثم هلينية ثم رومانية، ولم يستطع أي من الفريقين حسم الصراع لصالحه طوال الوقت مما أرهق جميع الأطراف بل وأزعج الدول الحاكمة لولاياتهم مما سيوجه غضب هذه القوى اتجاههم في كثير من الأحيان، وهذا ما يفسر تعرض هذه الأقوام العبرانية للتدمير والتشتيت عبر كل الحقب الزمنية منذ حكم الآشوريين مرورا بحكم المقدونيين إلى الرومان أخيرا الذين دمروا القدس والهيكل عام (٧٠ م) على يد القائد الروماني طيطوس. ثم ما لبث اليهود أن عادوا إلى سيرتهم الأولى في خلق القلاقل والاضطرابات والصراعات إلى أن قضي عليهم في عهد الإمبراطور هدريان (١١٧- ١٣٨ م) الذي شتتهم مرة أخرى بعد أن قضى على خلق كثير منهم.

رابعاً- الوقائع النبطية:

وفي أثناء الحكم الملكي النبطي وفي فترة حروبه مع اليهود، كان الجيش النبطي يمثل قوة ضاربة يحسب حسابها، إذ يخبرنا جوسيفيوس عن وساطة إنتيباتر

الأدومي لدى الحارث ملك الأنباط في أثناء صراع أبناء الإسكندر جانيوس على السلطة عقب موته، وكانت القضية هي تأمين دعم الأنباط لهيركانوس، ونتيجة لذلك تلقى هيركانوس الدعم من الحارث مقابل أن يقوم هذا بإعادة كل المدن الإثنتي عشرة التي سبق لوالده ضمها، وبسبب هذه الوعود فقد جرد الحارث جيشا من خمسين ألف فارس وراجل واتجه إلى أرستوبولس وحاصر أورشاليم- القدس، وكاد يفتحها لولا تدخل القائد الروماني سكاوروس[٦١]. ويسجل سفر المكابيين أيضا قبل ذلك ما مفاده أن الأنباط صاروا قوة عظيمة يمكن الاستنجاد بها " وأرسل يوناتان أخاه بجماعة تحت قيادته يسأل النباطيين أولياءه أن يعيروهم عدتهم الوافرة " (سفر المكابيين الثاني ٩/٣٥).

أما في عام ١٠٠ ق.م، فكانت كليوبترا حاكمة مصر تقيم تحالفا مع (الكسندر جاني) الحاكم (الكاهن الأكبر) اليوناني في فلسطين، من أجل القضاء على نفوذ الأنباط على ساحل المتوسط (غزة)، فاستنجد أهل غزة بملك الأنباط الحارث الثاني بعد أن حوصرت المدينة من قبل الكسندر جاني، واستطاع الأنباط القضاء على هذا الحلف ودخلوا المدينة وقاموا بسك النقود التي عثر على قسم منها في الحفريات التي تمت في مدينة غزة[٦٢]. وبعد استلام أنتوخيوس الثاني عشر السلوقي زمام الحكم في دمشق وضع نصب عينيه القضاء على تقدم الأنباط الذين كانوا يشكلون خطرا على السلوقيين في سورية، قام هذا الحاكم بشن حملتين ضد العرب، الأولى عام ٨٥ ق.م، ويبدو أن معلومات هذه الحملة غير معروفة (Fredman,1992)، والثانية (وقد وقعت في عهد الحارث الثاني حسب (نيقف Negev) عندما شن هجوما على الطريق الساحلي متعاونا مع المرتزقة لتحريضهم ضد العرب في المدن الفلسطينية، لكن الملك النبطي عبادة الأول (عبادة الأول ٩٥-٨٨ ق.م) وضع خطة حربية محكمة حيث تراجع بقواته إلى النقب لإغراء القائد السلوقي الذي شعر بأن الطريق أصبح مفتوحا أمامه وبدأ بالتقدم السريع وسرعان ما تصدى له الملك النبطي وأنزل بقواته المعادية خسائر فادحة ولقي القائد السلوقي حتفه، وفرت قواته ومات معظمها من الجوع والعطش[٦٣].

وتزودنا المصادر التاريخية بأنباء حملة نبطية تتجه إلى دمشق لكن دون أن نعرف إن كانت قد وجهت بقوة عسكرية أم غير ذلك، وأغلب الظن أن دخول الأنباط

إلى دمشق عام ٨٥ ق. م كان سلميا، فقد قام المجلس البلدي للمدينة بتوجيه دعوة إلى الملك النبطي الحارث الثالث (٨٥-٦٢ ق.م) لاستلام السلطة في المدينة بعد أن بدأت تخشى من خطر القبائل العربية الأيطورية التي كانت توسع نفوذها في شمال سورية، ويذكر أن المدينة كانت تحتضن جالية نبطية كبيرة ومن الطبقات الغنية فيها. وقام الأنباط بسك النقد فيها[٦٤]. وقد مكثوا فيها إلى حين قدوم القائد الروماني بومبي الذي أخرجهم منها عام (٧٠ ق.م). واستمر بومبي في زحفه جنوبا إلى أن وصل أحد جيوشه بقيادة سكاوروس إلى البتراء عام ٦٢ ق.م، غير أن الأنباط تداركوا الأمر عن طريق إعطائهم كمية من الفضة مقابل أن يتراجعوا عن حصار المدينة[٦٥]. ويبدو أن سكاوروس حاصر البتراء وأشعل النيران بممتلكات الأنباط حولها، ثم عاد بعد أن دفع له (٣٠٠) تالنت من الفضة وعقد معاهدة صلح من الحارث الثالث (٨٧-٦٢) تتضمن قبول الأنباط بتبعية الرومان.

وينقل لنا Meshorer أنباء عن مشاركة مالك الثاني (٤٠- ٧١ م) في حملة عسكرية رومانية بقيادة تيطس كانت تقصد القدس -أورشاليم) قوامها ألف فارس وخمسة آلاف راجل، وكان ذلك عام ٧٠ م [٦٦]، العام الذي نعرف أنه كان عام تدمير الهيكل وتدمير القدس من قبل الرومان. ومن الوقائع النبطية نعرف من مصادر متعددة أهمها سترابو عن مشاركة الأنباط للحملة الرومانية الشهيرة نحو بلاد العرب الجنوبية، كنا قد تعرضنا لها عدة مرات في هذا الكتاب، وقد كانت مشاركة الأنباط فيها بقيادة الوزير الشهير سيلي (صالح) على رأس ألف من الأنباط، وكانت مهمتهم الأساسية إرشاد الحملة إلى الطريق المناسب نحو الجنوب عبر البحر والبر وتأمين التموين لها، ويذكر أن اليهود أيضا كانوا يشاركون بفريق من خمسين فردا لا نعرف مهمتهم، لكن ليس من الغريب ان يكون هؤلاء سببا في تأليب الرومان على سيلي واتهامه بتضليل الحملة لتلاقي ما لاقت من الفشل، ومما يعزز هذا الشك، ما كان بين الوزير سيلي ممثلا للأنباط وبين الإسكندر جانيوس وخلفائه من صراع انتقل إلى البلاط الإمبراطوري في روما، وكانت النتيجة أن دفع سيلي الثمن بالحكم عليه بالإعدام.

خامساً- الحروب التي خاضها الأنباط مع اليهود(٦٧):

خلال التاريخ الطويل للحروب التي دارت بين الأنباط واليهود، يبدو أن الغلبة كانت للأنباط في أكثر الوقائع، بينما أحاط انتصار اليهود في بعض المعارك الكثير من التساؤلات والشكوك، فقد تواجه الطرفان في ثماني معارك ضمن خمسة حروب كانت قد نشبت بين الطرفين تحت حكم خمسة ملوك من ملوك الأنباط، وكان النصر حليفا للأنباط في خمس معارك منها، وفيما يلي استعراض لأهم ما توفر من معلومات هذه الحروب:

أولا- الحرب الأولى:

ووقعت في أثناء حكم الإسكندر جانيوس (١٠٤- ٧٦ ق.م) في جانب والملك النبطي (عبادة الأول ٩٥-٨٨ ق.م) في الجانب الآخر. كان جانيوس قد حاول استغلال ضعف السلوقيين وما نشأ عن ذلك من فوضى واضطراب في جنوب سورية، ولذلك فقد حاول التوسع شرقا إلى جلعاد ومؤاب وحوران والجولان السوري، واستطاع الإسكندر تعزيز مواقعه في "جلعاد" و"دبون" حيث بنى قلعة "ماخيروس" وجعلها مركزا متقدما لمراقبة الأنباط. وكانت اهم الحروب التي وقعت بين الطرفين هي معركة "قانا" قرب أم قيس "جدارا" إلى الشرق من بحيرة طبريا، واضطرته هجمات الأنباط إلى الوقوع في واد عميق، وكاد يفقد حياته، ويبدو أن صلحا عقد بين الطرفين رد بموجبه جانيوس المدن التي كان استولى عليها مقابل امتناع عبادة الأول عن مساندة خصومه. ولكننا سنعرف لاحقا أن هذه المدن إما أنها لم تعاد أو أنه جرت إعادة احتلالها مرة أخرى.

ويشير (فردريك ج بيك، ١٩٣٥) إلى أن يهودا مؤسس الأسرة المكابية كان قد دأب على مهاجمة منطقة جلعاد بحجة تعرض المستوطنات اليهودية فيها لهجمات القبائل العربية.

وقد واصل الإسكندر جانيوس سياسة سلفه في محاولات التوسع، ولا نعرف ما كان يسند قول (هاردنج) غير ما جاء في التوراة عندما قال أن الإسكندر استطاع الوصول إلى عمون – فيلادلفيا وملاحقة ملكها إلى جرش والسيطرة على جرش حتى

قدوم القائد الروماني بومبي الذي أمر باعادة الأوضاع في المدن اليونانية إلى ما كانت عليه قبل اعتداء الإسكندر.

ثانيا- الحرب الثانية:

ووقعت بين الملك النبطي الحارث الثالث (٨٧-٦٢ ق.م) والأسرة المكابية، وقد تضمنت ثلاث معارك رئيسية:

الأولى، انتصر فيها الحارث الثالث على الإسكندر جانيوس.

والثانية، هجم فيها "أرسطوبولس" بن جانيوس، على الأراضي النبطية وانتصر جيشه على الأنباط، غير أن جدلا كثيرا دار حول هذا الانتصار.

الثالثة: انتصر الحارث الثالث فيها على أرسطوبولس، حيث وصل الحارث الثالث بجيش كبير وحاصر القدس وكاد يفتحها لولا تدخل القائد الروماني سكاورس الذي كان يجول في المنطقة بجيوشه، ويبدو أن السبب الرئيسي لهذه الحرب هو مناصرة الأنباط لهيركانوس ضد أخيه أرسطوبولس في صراعهما على السلطة، وكان هيركانوس قد قدم إلى الحارث بصحبة إنتيباتر الأدومي في البتراء كما تخبرنا المصادر العبرية، وقد تلقاه الحارث بالترحاب وقدم له الهدايا مقابل وعد من هيركاونوس بإعادة المدن التي كان والده قد ضمها إليه في وقت سابق.

ثالثاً- الحرب الثالثة:

ووقعت بين الملك النبطي مالك الأول (٦٠-٣٠ ق.م) من جانب وخصمه هيرود والتي دارت ضمن معركتين رئيسيتين: الأولى انتصر فيها مالك الأول، والثانية انتصر فيها هيرود.

رابعاً- الحرب الرابعة:

وقعت هذه المعركة في أثناء حكم الملك عبادة الثالث (٣٠-٩ ق.م) وفي أثناء حكم هيرود لليهود، ووقعت إثر هجوم هيرود بجيشه على الأراضي النبطية بحجة إنهاء أعمال السرقة والقتل، وانتصر فيها على الأنباط. وفي هذه المدة كان الوزير صالح "سيلي" الوزير النبطي الشهير في البلاط الإمبراطوري في روما، وقد أصر على الدخول للإمبراطور لابسا السواد احتجاجا على اعتداءات اليهود على بني قومه، وقد

دافع خير دفاع عنهم. ويبدو أن مواقفه الحازمة والقوية كانت تؤثر في السياسة الرومانية، إذ أمر الإمبراطور بإلقاء القبض على هيرود وتجريده من تاج الملوكية، لكن الموت كان قد عاجل الإمبراطور فتغيرت الخطط، ويبدو أن اليهود أضمروا حقدا كبيرا عى سيلي لينتهوا إلى استغلال فشل الحملة الرومانية الشهيرة إلى بلاد العرب الجنوبية عام ٢٦. م، وليتهم سيلي بتضليل الحملة ثم ليساق بعدها إلى روما حيث أعدم.

خامساً- الحرب الخامسة:

ودارت بين الملك النبطي (الحارث الرابع ٩ق.م - ٤٠ م) والحاكم الهيرودي هيرودس أنتيباس وانتهت بانتصار الأنباط. ويذكر أن هذه المعركة وقعت في العام ٣٤ م وذلك بسبب طلاق هيرود لابنة الحارث، ويذكر أن هيرود فزع إلى الإمبراطور الروماني طيباروس الذي أراد الحارث حيا أو ميتا، إلا أن وفاة طيباروس حالت دون تحقيق ذلك(٦٨). ومن المعروف أن هيرود ينحدر من أسرة أدومية وأن أمه نبطية الأصل، وهو قاتل يوحنا المعمدان شرطا لزواجه من بنت أخيه "أرسطوبولس" البارعة الجمال والماجنة "هيروديا" التي اشترطت عليه قطع رأس "يوحنا المعمدان"، فكان لها ذلك، ويذكر أن هذه الوقائع حدثت في قلعة " ماخيروس" وهي قلعة مكاور اليوم بين مادبا ووادي الموجب، ولما توجه هيرودس إلى روما لكي يطلب لنفسه لقب "ملك" قرر الإمبراطور الروماني "كاليغولا" عزله ونفاه هو و"هيروديا" إلى "ليون" في فرنسا حيث توفيا هناك(٦٩).

رابعاً- النظام القيمي والعادات والتقاليد:

يعد هذا الباب من أكثر الأبواب صعوبة في البحث لشح آثاره ولندرة النقوش التي تدل عليه، ومع ذلك فإن رسم معالم الحياة الداخلية للأنباط أمرا ممكنا في ضوء ما وصلنا من بعض الإشارات التي أوردتها المصادر الكلاسيكية القديمة، أو من خلال البحوث الأثرية التي أمدتنا بمعظم مما صرنا نعرفه عن حياة الأنباط، فإذا ما أضفنا إلى ذلك التراث الجاهلي في شبه الجزيرة العربية ضمن سياقه التاريخي والجغرافي، فإننا لا بد من أن نحدد بعض ملامح تلك الحياة من قيم الأنباط وعاداتهم وتقاليدهم..إلخ.

وأول ما يجب أن يتبادر إلى الذهن دور الدين في حياة الأنباط مما لذلك من أثر معروف في تحديد منظومة القيم وطرائق العادات والتقاليد، فإن عرفنا من خلال النقوش، أن الدين كان لدى الأنباط أمر يدخل في شتى مناحي حياتهم، وإذا ما رغبنا في استحضار المؤشرات على تمسك الأنباط بدينهم فهي كثيرة، نكتفي بالإشارة فيها إلى الأعداد الكبيرة من المعابد التي بناها الأنباط في مختلف أرجاء الأرض التي عاشوا فيها ومنها إيطاليا التي وجد فيها جالية تجارية نبطية، وكانت المعابد و "المساجد" تنتشر في أنحاء الطرقات التي كان يسلكها الأنباط حتى في الأماكن النائية قليلة السكان كخربة التنور ووادي رم وغير ذلك. ثم أن نقوش القبور لم تكن تغفل اللعنات التي تستجلبها باسم الآلهة على كل من يخالف تعليمات صاحب القبر، والمخالف لا بد من أن يغرم لصالح الآلهة والملك أحيانا. والأهم من ذلك ما كان يعتقد به الأنباط من مسؤولية الآلهة عن سلامتهم في السفر ونجاح تجارتهم مثلما عزوا ذلك لـ"شيع القوم" أولا ثم ليشركوا به "الدلفين" الذي صار يلازم بعض قبورهم، ومن المحتمل جدا أنه كان يلازمهم في السفر أيضا بأيقونة تعلق في رقابهم أو رقاب جمالهم وخيلهم أو في سفنهم وقواربهم.

إذا فنحن بإزاء مجتمع تقليدي محافظ يجعل من يومه وليله وعقله أيضا قدرا لا بأس فيه لحياته الروحية، بل إنهم قدموا التقدمات السخية لمعابدهم من أموالهم الخاصة، وكان أن قامت بعض الأسر بأخذ مسؤولية بناء المعبد وترميمه على عاتقها كابراً عن غابر مثلما عرف عن معبد "صلخد "، ولا بد من أن يكون للدين تجلياته الملموسة في حياتهم وقيمهم وتقاليدهم. ولكن لا بد قبل أي بحث في تفاصيل هذا الموضوع من الانتباه إلى أن المجتمع النبطي – كغيره من المجتمعات – قد تمايز على صعيدين مما لا يجوز معه التعميم، والصعيد الأول هو ما يمكن أن نسميه (التباين العرضي)، أما الصعيد الثاني فهو ما يمكن تسميته (التباين الطولي- الزماني)، فإن مجتمع الأنباط لم يكن كتلة واحدة، بل كان مجتمعا متنوعا بطبقاته وشرائحه الاجتماعية بل وبمنابت سكانه وثقافاتهم، فمن هؤلاء من كان متمسكا بثقافته البدوية التي تعبر عن ثقافة الجزيرة العربية، وأغلب هؤلاء من البدو الرحل وأشباه الرحل (أشباه البدو)، وفي

المقابل لدينا ثقافات مدنية تكونت بفعل الاستقرار والتمدن الذي كان مرتعا لثقافات قادمة من الشمال السوري ومن الشرق (حضارات بلاد الرافدين) ومن الغرب (حضارة وادي النيل) ومن مدن قريبة سابقة ك "عمون" و "مؤاب" و "أريحا" و "العلا" و "الحجر" و "آرام دمشق" وغيرها الكثير من الحواضر. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار العدد الكبير من سكان القرى الزراعية التي تكونت من السكان الأصليين كالأدوميين والمؤابيين والسوريين وشظايا من الأقوام الآرامية والأمورية والكنعانية، فإننا نصبح إزاء ثلاثة أنماط ثقافية، البدوي، الريفي – الزراعي، المدني. أما إذا ما استعرضنا مقطعا /طوليا لمجتمع الأنباط طوال أكثر من ستة قرون هي عمر الحضارة النبطية، فإننا إزاء مدة طويلة تتقلب فيها المجتمعات وسماتها بما فيها قيمها وعاداتها..إلخ.

في المراحل الأولى لحضارة الأنباط كان النمط البدوي غالبا على الأنماط الأخرى، ولعل هذه الغلبة ظلت دائمة إلى وقت متأخر إلى أن بدأت الحضارة الرومانية ترمي بثقلها على المنطقة مثلما يتضح لكل معاين لآثار الرومان في بلاد الشام عموما وشرقي الأردن خصوصا. ويبدو أن الرومان كانوا قد وقفوا موقفا سلبيا اتجاه نمط البداوة وأعلوا من شأن العمارة المدنية أيما إعلاء، وهم أيضا بذلوا جهدا كبيرا في طبع الحياة اليومية بطابعهم الخاص، ويتضح ذلك في اسماء بعض الوظائف الإدارية والعسكرية مثلما لاحظنا، وفي إدخال بعض الزراعات أو تشجيعها، خصوصا الزراعات التحويلية كالعنب والزيتون. وفوق ذلك فإن آلهة الرومان بدأت تطغى على الآلهة المحلية وتخلع عليها الاسماء الإغريقية والرومانية بل ولتغير ملامحها للدرجة التي تصعب بعدها معاينة القديم عن الجديد.

وفي المراحل الأولى تنقل لنا المصادر بساطة حياة الأنباط بما في ذلك بساطة المنظومة الدينية من آلهة ورموز وطقوس وعبادات، وهذا الأمر ينسجم مع ما يعرف عن النمط البدوي طوال الوقت. في هذه المرحلة كان الأنباط يأنفون – كما يقول ديودورس – من بذر الحب أو زراعة الحقول، ويبدو أن عملهم الأساسي ظل يدور حول الإبل والمواشي وبتجارة "الترانزيت" التي ترتبط أيضا بالتنقل الدائم. والبدوي في هذه المرحلة – كما يقول سترابو – لا يأبه لدفن جثث موتاه، ومع أن هذا الأمر ظل

محور خلاف كبير، إلا أنه يتضمن قدرا من الصحة في مجتمع البداوة تحديدا، فالبدوي غير مرتبط بأرض محددة لأنه دائم السعي خلف الكلأ والماء، فهنا حياته الحقيقية وفيها حريته الأثمن التي لا يبدلها بسبب الارتباط بمجموعة من القبور، والصحراء التي يعيش فيها لا تنفع لبناء القبور ما دامت معالمها متغيرة ورمالها دائمة التنقل أيضا، وفوق ذلك فإن القيمة الأكبر هي للحياة والأحياء وليست للأموات مثلما يقول قولهم المأثور (الحي أبقى من الميت) الذي لا يزال ساري المفعول في بعض الأوساط البدوية أو المنحدرة من أصول بدوية، فالأولوية للحياة والأحياء، لذلك فليس غريبا أن بعضهم وربما أكثرهم كان يطرح الجثث في عرض الصحراء بعد أن يواريها بقليل من الرمال، ومن المحتمل أن هذه الرمال كانت تذريها الرياح سريعا قبل أن تتحلل الجثث فتتكشف مما دعا سترابو للقول أنهم يطرحون جثث موتاهم بما فيها جثث ملوكهم في العراء أو قريبا من النفايات، وإنه لمن الحق القول أن القبور الكثيرة التي وجدت كانت نوعين: **الأول:** قبور المدن المنحوتة في الصخر، ومعظم هذه القبور بني منذ أواخر القرن الأول قبل الميلاد فما بعد ذلك، وهي في كل الأحوال كانت تخص علية القوم من كبار موظفي الدولة مثلما اتضح لنا، أو من قبل كبار الأثرياء من التجار والكهنة، ومع ذلك فإن الحفريات لم تكشف لنا حتى الآن عن قبر واحد لأحد ملوك الأنباط. والنوع الثاني من هذه القبور هو قبور القرى أو المستوطنات، وهذا النوع من القبور غالبا ما بني من الحجارة المشذبة ودفن في الأرض أو في الكهوف، وهو أيضا بدأ يعرف في أوقات متأخرة نسبيا من حضارة الأنباط. والبدوي في هذه المرحلة يعلي من شأن قيم: الشجاعة، والنخوة، والكرم، والفروسية، والرياضة، والأدب الشفوي وعلى رأسه الشعر. وهو أيضا لا يقيم وزنا لطرائق الحياة المادية المتعالية على الطبيعة، فالشعور تطلق على طبيعتها، واللباس لا بد من أن يكون خشنا ليناسب عيش الصحراء والكر والفر، والمرأة الأفضل هي الأشبه بالرجال في سلوكها، فإن رغبت في العلو أكثر تقربت لنمط الرجل أكثر، ولا بد من أن الذكر ظل مفضلا على الأنثى مثلما ظل دارجا حتى وقتنا هذا، فما بالك في أيامهم وقد تكون المرأة هدفا للسبي الذي يلحق بهم العار والأذى. والبدوي لا يرتضي لحريته المطلقة تقريبا بديلا إلا إذا بدأ يقتنع ويرتضي بما

يعود عليه التحضر والاستقرار من منافع تفوق ما سيخسره مقابل ذلك من حريته التي لا يحدها غير الأعراف البدوية التي تترك للبدوي هامشا واسعا لا يجوز التسلط عليه من قبل الآخرين. على أن تعميم ذلك لا يجوز في كل الأحوال، فإن بعض شرائح البدو استطاعت أن تستفيد من ثمار المدنية الشئ الكثير وتتمثلها في حياتها، وهي بالمقابل لم تتخلّ عما تشربته من قيم وتقاليد طوال أجيال عديدة، وعلى الأرجح أن مثل هذه الشرائح كانت من كبار الملاك وكبار التجار والزعماء الدينيين أمثال قريش وحياتهم في مكة وأطرافها. فقد أدخلوا ما يناسب أذواقهم من وسائل الرفاهية والتمدن، فبنوا المنازل والقصور، واستجلبوا العطور والطيوب لهم ولنسائهم وأعلوا من شأنها، ولبسوا الملابس ذات الألوان الأرجوانية، وبعضهم استجلب الأرائك والأسرة والكراسي من الحواضر المحيطة بالجزيرة، فعرفوا الحرير والطنافس والزرابي والأرائك الفارسية حتى صارت جزءا من لغتهم ونمط حياتهم.

يقابل هذه المنظومة البدوية أو الصحراوية منظومة أخرى لا تناقضها تماما بل تتمايز عنها في الكثير من المظاهر ألا وهي منظومة المدينة. والمدينة والمدنية لم تكن نبتا طارئا في المنطقة، فقد عرفت المنطقة المدينة وقيمها وتقاليدها منذ قرون مديدة قبل مدنية الأنباط، فالمدن الكنعانية والفينيقية كانت قد وجدت منذ وجد العصر البرونزي، أي منذ أكثر من ألفين ونصف قبل ظهور مدينة الأنباط. بل إن مدينة "جاوا" في شرقي الأردن كانت قد نشأت منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة على مدينة الأنباط[٧٠]. ومع ذلك يجب الاعتراف أن المدينة لم تستطع الاستمرار دون انقطاعات طويلة لأسباب سياسية أو أيكولوجية مثلما تؤكد بعض الدراسات. وإن أقرب المدنيات المندثرة في المنطقة كانت مدنية الأدوميين التي اشتهر منها عاصمتها "بصيرة" ثم مدنية العمونيين وعاصمتهم "عمون" ومدنية المؤابيين وعاصمتهم "ديبون- ديبان". ومهما يكن من أمر، فإن للمدنية هي الأخرى نمطها الخاص بها الذي يتقارب إلى درجة كبيرة في العصور القديمة: المعبد في وسط المدينة والسوق قريبا من ذلك وغالبا ساحة مركزية للاجتماعات والاحتفالات، ثم مرافق تجارية متنوعة...إلخ. أما في المنظومة القيمية والسلوكية فالعمل والجد والاجتهاد قيم عليا، والعبادة والدين ضرورة حياتية أكثر من

أن ترتبط بفكرة الحساب والعقاب الأخروي، والأموات من الأسلاف تحترم قبورهم لأن في ذلك احتراما لأرواحهم، وربما تعبيرا عن المكانة الاجتماعية للعائلة. وفي الحياة اليومية لا بد من ملاحقة مستوى المعيشة المتغير بما في ذلك البحث عن الوسائل والأدوات الترفيهية والكمالية ما أمكن ذلك. أما المرأة فالنظرة لها مزدوجة: نظرة تحترمها وتقدرها لأنها جزء من الاقتصاد العائلي في المدينة، خصوصا في أعمال النسيج والحياكة، وهي أيضا المحور الأساسي في حياة الترويح والرفاه. والنظرة الأخرى هي التي تحط من قدرها باعتبارها هدفا للسبي أيضا، فالمدن كثيرا ما تعرضت لذلك من قبل الجيوش الغازية أو من قبل الجماعات البدوية المحيطة، والمرأة أيضا المخلوق الأقل قيمة من الناحية العقلية والفسيولوجية ما دام الأفراد يوزنون بقوة عضلاتهم.

وإذا ما استعرضنا قيم المجتمع الريفي فإننا سنجد انحرافات قليلة عن كلا النمطين السابقين، البدوي والمدني. فالدين بالنسبة لهؤلاء ضرورة حياتية، لأن الدين ورموزه الغيبية (الميتافيزيقية) هي التي تتحكم في دورات الحياة، خصوصا الزراعة، فالأمطار تسقط بمشيئة بعل وقوتها، والفيضانات تحدث إما انتقاما من الناس أو رحمة لمزروعاتهم إذا لم تكن مدمرة. والحياة هي كد وجد ومعاناة لا بد من إمضائها بهذه الطريقة أو تلك. وعموما فإننا لا نستطيع التمييز الواضح في هذا النمط لقلة البيانات الأثرية والنصوص الصريحة، ثم إن هذا النمط غالبا ما يكون غير مستقر أو غير ثابت لأن أصول السكان انحدرت من المصدرين البدوي والمدني، فتمازجت معه القيم والعادات والتقاليد، وترصعت من هذا النمط ومن ذاك، ولكنها في أساسها ظلت منسجمة مع القيم السامية الشرقية وعاشت فترة طولة عبر العصور للدرجة التي وصلنا منها الشئ الكثير وإن كان ذلك على شكل خرافات وأساطير وأمثال وقيم مأثورة لا نعرف مصدرها المكاني والزماني المحددين.

وفيما يلي بعض من الموضوعات القيمية / الدينية إضافة إلى ما أشرنا إليه سابقا:

١- **الحلال والحرام:** حدد الحلال والحرام من قبل الدين في كل المراحل، وغالبا ما حافظت الديانات السامية على نفس قائمة الحلال والحرام في أغلب العصور؛ فالزنى مثلا كان جريمة أو جنحة في المجتمع النبطي مثلا، وقد يعاقب عليه الفاعل

بدفع غرامة للمعبد، وفي بعض الحالات بالقتل، ومن المحتمل أن الزواج الإجباري كان أحد الحلول أو النتائج لبعض الوقائع الجنسية. غير أن ذلك لا يمنع الافتراض أن الاتصال الجنسي الحر كان متاحا في ظروف معينة مثلما علمنا من خلال التوراة ومن خلال الأدبيات الجاهلية حتى مجئ الإسلام، فإن بعضهن قد اتخذن بيوتا ترفع فوقها الرايات التي تدل عليها، وهذه الرايات بمثابة الرخصة الرسمية والاجتماعية. وعلى الأغلب فإن مجتمعات المدينة كانت قد ابتكرت هذا الشكل من الاتصال الحر لأسباب كثيرة أهمها ما يمكن أن نسميه "واقع الاغتراب المديني" الذي لا يحمل عارا لعائلة المرأة أو الرجل الذي يمارس هذا السلوك. وفي الأمثال البائدة ما يشير إلى ذلك وبما فحواه " البلاد التي لا تعرف فيها افعل فيها ما شئت من الرذائل". أما بخصوص شرب الخمر، فهو لم يحرم إلا في وقت متأخر عند مجئ الإسلام تحديدا، فالديانات السامية الأخرى، لم تكن لتشدد على منع الخمر، واليهودية والمسيحية جعلتا من شرب الخمر جزءا من الطقوس الدينية، وقد عرف ذلك أيضا عن الديانات الوثنية السابقة كديانات الكنعانيين والفينيقيين. أما في مجتمع الأنباط، فالأمر ذو وجهين، في المراحل الأولى (أي مرحلة البداوة وثقافتها) كان الخمر إما محرما أو مكروها، وأغلب الظن أن سبب التحريم ليس دينيا بقدر ما لشرب الخمر من نتائج عكسية على قيم البداوة، فهو يفت في قوة البدوي فيتراخى عن القيام بواجباته في الحرب، وقصة إمرؤ القيس الشهيرة ترمز إلى ذلك عندما جاءه خبر مقتل والده فقال قولته الشهيرة " اليوم خمر وغد أمر". والوجه الآخر للخمر مرغوب، خصوصا في مرحلة المدنية، فالمدنية تبحث عن كل اللذات والرفاهية ومنها الخمر. و"ذوالشرى" بعد أن كان لا يشرب الخمر صار "رب الخمر" بعد أن ضاهت الهلينية بينه وبين "زيوس – حدد". أي أن شرب الخمر صار جزءاً من المنظومة الدينية وطقوسها، وربما بسبب ما للخمر من قيمة تجارية عالية إضافة إلى قيمته الكمالية.

٢- **النظرة إلى النفس:** التعصب للنفس كفرد أو جماعة قيمة عليا عند البدو، والفرد لا أهمية له مقابل الجماعة القبيلة، فالجماعة هي الوطن والدولة ومصدر الكرامة

والعيش، وكل الأفراد يجب أن ينصهروا فيها ويتخلوا عن " فرادتهم الشخصية " لأنها لا تغني عنهم شيئا يوم تدور الدوائر ويوم تشرع السيوف. وإذا ما تذكرنا أن مجتمع البداوة يتلقى ثقافته من مصدر واحد لا يتغير ألا وهو التوارث، علمنا حينها أن الفرد نادرا ما يعترف له بخصوصية تتجاوز خصوصيته في محرم بيته. حتى محرم البيت لا يمكن عزله عن الجزء الآخر منه حيث قد يطيل الضيوف مكوثهم لأيام وشهور. بالمقابل النمط الآخر في المدينة، يعلي من خصوصية الفرد ويعظم من أهمية القانون الذي يضمن الحماية والحقوق أكثر من الجماعة، ذلك لأن الجماعة لم تكن متجانسة في أصولها القبلية والثقافية. أما في النمط الريفي فإن للفرد قيمة أكبر في نطاق المجتمع لأنه عضو في أسرة اقتصادية بما في ذلك الإناث، فتعلو قيمة الفرد بقدر ما يزيد إنتاجه، ولعل هذه القيمة موجودة في المدينة الشرقية لأنها أيضا ظلت تعتمد الاقتصاد العائلي في التجارة والصناعة، وقد نقل إلينا سترابو ما مفاده أن الأنباط يعلون من شأن الذين تزيد ثروتهم بل ويفرضون غرامات على أولئك الذين تقل ثروتهم. ولعل مثل هذا الظاهرة ظلت موجودة في المجتمعات الشرقية وكل المجتمعات عموما، لكن يمكن أن نستشف من ذلك التطور المتنامي في سيادة القيم المادية أكثر من القيم الروحية في المجتمع النبطي بفضل التأثير اليوناني أولا ثم الروماني خصوصا الذي عرف عنه إعلاؤه لقيم القوة والجسد والعمران الضخم....إلخ.

٣-**النظرة إلى الآخر:** والنظرة إلى الآخر تصبح أكثر وضوحا، فالآخر الجيد هو الحليف والصديق في النمط البدوي بصرف النظر عن ثروته، وهو أيضا المرء الشجاع الكريم المقدام ما دام لذلك قيمة في حياة الصحراء وصراعاتها. وعموما فإن كل الآخرين يعتبرون أغرابا في قيم البدوي، ولكن لذلك درجات، فالبدو عموما وحدة ثقافية وربما عرقية في عرفهم، غير أن هذه الوحدة تعاود التجزؤ إلى قبائل وبطون وعشائر وحمائل وأفخاذ. أما عند النمط المديني فالآخر الأفضل هو الأكثر فائدة مباشرة، خصوصا ما ارتبط منه بالرزق اليومي كالتجارة والإستهلاك. وهذا الأمر هو ما سيفيد ازدهار التجارة وتشجيع إقامة الأجانب في المدينة. والآخر

الأكثر استحقاقا للتبجيل هو الأكثر غنى وقدرة اقتصادية ما دام ذلك يتضمن توقعات بالفائدة وتقييم يتوقع القدرة العالية في القيادة أيضا. ومفهوم الآخرين عند الريفي مفهوم أكثر مرونة مما لدى البدو، أما مفهوم "النحن" فهو أيضا أكثر مرونة لأنه يضم أهل القرية بصرف النظر عن أصولهم، لكنه بالطبع يعاود التجزئة وإن بأقل حدة مما في المجتمع البدوي.

٤- **الفنون والآداب:** الفنون الأساسية في الصحراء والبداوة تكاد تنحصر في نوعين: الفنون الشفوية من قصص وحكايات وشعر، والشعر هو أرقى أشكال الفن والتعبير على الإطلاق. وترتفع قيمة الشخص ما ارتفعت قيمة أشعاره وحكاياته. والنوع الثاني هو ما ارتبط بالقوة وفنونها وعلى رأسها الفروسية، فالفروسية كما الصيد ترتبط بالحياة والموت وعزة القبيلة. أما الأشكال الأخرى فأهميتها أقل من أن يفرد لها الوقت في الصحراء باستثناء القليل الذي يمارسه الفتيان أو الشيوخ الكبار كألعاب التسلية واللهو على قلتها.

لكن ذلك سيتبدل ويتطور بتقدم المدنية، وستنمو قيم الفنون الأخرى لتزدهر مع تقدم الأقوام الجديدة الأسبق في المدنية، فتبدأ الرسوم والتماثيل بالظهور والانتشار وخصوصا في أوساط الأثرياء، وقيمة الفنون لا تقدر لذاتها في أغلب الحالات، بل لأنها تدل على القدرة الاقتصادية المحترمة في مجتمع المدينة. وسنعاود لاستعراض نبذة عن الفنون النبطية في أثناء استعراضنا اللاحق لأشكال الثقافة والفنون النبطية.

خامساً- الثقافة والفنون في المجتمع النبطي:

للثقافة مفهوم واسع كما هو معلوم قد يعادل مفهوم الحضارة، أو يعادل مفهوم الحياة الاجتماعية أو البناء الاجتماعي برمته. وعلى ذلك فإن كل المعالجات التي تطرق لها هذا الكتاب تقع في صلب الثقافة وفق تعريفات علماء الاجتماع والأنثروبولوجي والتاريخ ومفاهيمهم. على أننا في هذا المحور من البحث نشير إلى حدود أضيق لمفهوم الثقافة التي نرغب في معالجتها في هذه العجالة، وهي أقرب إلى ما تعتني به وزارات الثقافة والفنون في أيامنا هذه، ويكاد ذلك الاهتمام ينحصر في "النتاجات الأدبية والعلمية

والفنون والرياضة "، ولا بد قبل ذلك أيضا من التعريف بملامح اللغة النبطية ليس بوصفها عنصرا من عناصر الثقافة وحسب، بل باعتبارها الإطار الذي تتكون فيه الثقافة وتنتقل وتنمو.

١- اللغة النبطية، حروفها وتراكيبها:

قال فيليب حتى "كانت حضارة الأنباط عربية في لغتها، آرامية في كتابتها، سامية في ديانتها، ويونانية ورومانية في فنها وهندستها المعمارية، وهي لذلك حضارة مركبة، وسطحية في مظهرها الهليني، ولكنها عربية في أساسها وبقيت كذلك".

كانت اللغة الآرامية اللغة الرسمية التي تتفاهم بها الأمم الحية في القرون الأولى قبل الميلاد، من إيران شرقا إلى سورية غربا، ومن آشور شمالا إلى فلسطين جنوبا. والآرامية التي كانت لغة السيد المسيح، لم تزل حتى الآن لغة الطقوس الكنسية لمعظم مسيحيي الشرق الأدنى من نساطرة ويعاقبة وسريان كاثوليك وموارنة[٧١]. وكان الأنباط يتفاهمون بلغة عربية، إلا أنهم كانوا يكتبون كتاباتهم بالآرامية، التي كانت شائعة في ذلك العصر، مع اختلاف قليل بين كتاباتهم وبين الخط الأصلي، وبالتدريج انفصلت الكتابة النبطية عن الآرامية. وحوالي منتصف القرن الأول قبل الميلاد اتخذت طابعها المميز وأصبحت ذات صفة ثابتة[٧٢]. وأغلب الظن أن هذا التطور كان يرافق تطورا أوسع في المنطقة عنوانها بناء الهويات الوطنية بسبب الصراعات الكبيرة التي تأججت بفعل العديد من العوامل ومنها هجوم الثقافة الهلينية على المنطقة، ثم حروب السلاجقة والبطالمة والرومان، ثم الحروب النبطية التي راحت تتأجج مع المكابيين اليهود (١٦٧- ٣٧ ق.م) كصراع على الأرض وعلى السكان أيضا. وما يدعم هذا الافتراض أن اللغة العبرية نفسها لم تبدأ بالانفصال والتطور عن الآرامية قبل القرن الثاني للميلاد[٧٣]. وعموما تنسب الكتابة النبطية كما تنسب الكتابة العربية الحديثة والكتابة العبرية إلى مجموعة الألفباء السامية الشمالية[٧٤].

ولقد امتاز القلم النبطي بمميزات عامة منها أن عدد الحروف يبلغ اثنين وعشرين، وأن الكتابة تبدأ من اليمين إلى اليسار، وهي بهذا تتشابه مع معظم الأقلام المنحدرة عن القلم السامي القديم، والقلم الآرامي، وعرف الأنباط أيضا الوصل، وكان

هذا قليلا في نقوشهم القديمة ولكنه زاد في النقوش المتأخرة. واستخدم الأنباط في الوصل طرقا أربعة: طريقة الاسناد، وهي أن يسند حرف على ساق الحرف الذي يليه كما هو الحال في كلمة (بر). وطريقة ربط الحرف بذيل الحرف الذي يليه كما هو الحال في كلمة (بر) أيضا. ثم طريقة المزج أي مزج حرفين ببعضهما ليجعل منهما شكلا واحدا. ولم تستخدم إلا في اللام والألف فقط، وهذا ناتج عن مزج حرف اللام بحرف الألف (لا). وأخيرا طريقة النظم أو النضد، وهي نظم الحروف برباط يجمع بينهما من أسفل كما هو موضح في كلمة (عبيد)[٧٥].

ومن المميزات الأخرى التي اتسم بها القلم النبطي خلوه من الإعجام إذ أن بعض أشكال حروفه يمثل أكثر من لفظة، وتلك الحروف هي:

ب: تؤدي معنى الباء والنون.

د: تؤدي معنى الدال والذال والراء.

ح: تؤدي معنى الحاء والخاء.

ط: تؤدي معنى الطاء والظاء.

ع: تؤدي معنى العين والغين.

ص: تؤدي معنى الصاد والضاد.

س: تؤدي معنى السين والشين.

ت: تؤدي معنى التاء والثاء.

ز: تؤدي معنى الزاي والذال.

وبذلك فإن الاثنين وعشرين حرفا كانت تلفظ تسعة وعشرين صوتا. وقد أسقط حرف الألف من بعض الاسماء فكتبوا (حرثت) بدلا من حارث، و(ثلثين) بدلا من ثلاثين.

وإجمالا فقد أحدث الأنباط تغييرات على بعض الحروف الآرامية لتتخذ أشكالا جديدة هي في الغالب أميل نحو التبسيط. إضافة لابتكارهم أشكالا لبعضها الآخر لتسهيل ربط الحروف بعضها ببعض. وأصبح لبعض الحروف التي تتصل بما قبلها وما بعدها ثلاثة أشكال مثل الباء، والياء، والنون، والهاء، والكاف.

ويلاحظ البعض من الدارسين الكثير من رواسب اللهجة النبطية واللغة الآرامية في لغتنا العربية او لهجاتنا الشعبية التي لا زالت حية حتى اليوم، وهذه بعض الأمثلة التي جمعناها من مصادر متعددة:

سجد: من "سجدة" الآرامية، بمعنى" المكان والسجود "وربما كان محل العبادة، وفي لبنان قرية تعرف باسم" سجد" من أعمال النبطية.

قانا: بمعنى "العش" وهي قرية في لبنان، وفي شرقي الأردن، وفي فلسطين.

الجية: "المكان المبهج الرائق اللطيف" والجي أو الجية أحد أهم المواقع النبطية في وادي موسى قبل الوصول إلى مدخل البتراء، وفيها آثار نبطية مهمة. والجية أيضا من أعمال غزة، جوار عسقلان، و "الجية" قرية على ساحل البحر بين صيدا وبيروت، و "الجاية – الجي" في منطقة معان شرقي الأردن تحريف لكلمة "الجية".

- صيدون: صيد
- جشور – جسر، وفي العبرية "جيشر".
- دقق: دقيق.
- قرت: قرية أو مدينة.
- قدموس: قديم، قدماء.
- طيابا: طيب، طيبة.
- كتن: كتان.
- يشمع إيل: اسماعيل.(ومعناها الله يسمع أو سمع الله)
- لآهام: لحم.
- أوتيك: عتيق.
- دامور: تمور
- بصة: بصة (المستنقع).
- باراق: برق (وعلى الأرجح أن الألف غير أصيلة في الكلمة) خصوصا في اللهجة النبطية.
- حمور: حمار(ولا زالت في العبرية الكلمة نفسها).

- شمش: شمس (وهي نفسها بالعبرية).
- لسن: لسان. (يلاحظ غياب الألف من الكلمة الأصيلة).
- نحس: معدن النحاس

والكلمات التالية هي نفسها بين العربية والآرامية، وقد جرى تعريبها من خلال السريانية[٧٦].

أتون، أرز، بور، السبت، كفر(القرية)، بطيخ، بلوط، بطة، بركة، توت، الحور، خابية، خص، دجال (كذاب)، زفت (قار)، زنار، المكس (الضرائب)، ومار (بمعنى السيد، وكانت هذه الكلمة متكررة كثيرا في النقوش النبطية).

وفيما يلي مجموعة أخرى من الكلمات الآرامية التي عبرت المراحل الزمنية ولا زالت تحتفظ بسماتها الأصيلة[٧٧]:

جبل، لون، أم، أب، أخ، ثاني ،ثلاث، أربع، سبع، شمان، تسع، راس، يد، بيت، أرض، تحت، كلب، قبر.

وقد كان اختيار الأنباط للآرامية ضرورة حضارية ووسيلة عملية للتفاهم مع من حولهم ممن يستعملونها في مكاتباتهم، وظلت لغة الكتابة بعد أن سقطت دولتهم[٧٨]. وقد أثرت الآرامية ومن بعدها اللغة السريانية على ثقافة النبطيين ولغتهم وعلى تكوين المادة اللغوية العربية في شمال الجزيرة كما يتضح لنا من الخط النبطي وتأثيره على تكوين الخط العربي. وهناك العديد من النقوش أو بالأحرى كتابات منقوشة على أحجار تؤشر لنا كيف تطورت اللغة النبطية والعامية الأرامية أي السريانية، وقد تداخلت التراكيب اللغوية العربية حتى أمكن تحويلها مع الزمن الى كلمات وحروف عربية بخط يشبه أولا الخط السرياني ثم يقترب تدريجيا من الخط العربي غير المنقوط والمدغم في بعض حروفه والخالي من الحركات مما يشبه الخط المسند السبئي، كما يتضح لنا من نقش "النمارة" المحفور على قبر امرؤ القيس ابن عمرو ملك العرب والمؤرخ سنة ٢٢٣ م، ونقش "زيد" الذي يقرأ: (باسم الاله شرحو بر قيمو بر مر القس وشرحو بر سعدو وسترو و"شريحو" بتميمي)، والكلمة الأخيرة كتبت بالسريانية[٧٩].

ويعتقد أن الخط العربي الشمالي بدأ بالانتقال إلى مكة المكرمة في أواسط القرن السادس الميلادي، وقد اقترح كروهمان[٨٠] تاريخ انتقال الكتابة العربية الشمالية إلى مكة وهو حوالي سنة ٥٦٠م، وقد استند فيه على رواية أوردها البلاذري نقلا عن ابن الكلبي وهي أن من أوائل الذين تعلموا الكتابة في مكة كان سفيان بن أمية بن عبد شمس عم أبي سفيان بن حرب، أو والد أبي سفيان وهو حرب بن أمية، مستندا في هذا على روايتين للجهشياري ولابن النديم. ومهما يكن من الأمر، فلا يمكن الجزم بنوع الكتابة التي كان يحسنها قصي وليس من المستبعد أن يكون القلم العربي الشمالي، وقد حاول بعض الدارسين تحديد خط انتقال الخط العربي الشمالي للجزيرة العربية عن طريق الحيرة، أي عن طريق جنوب العراق إستنادا إلى بعض الشواهد والأخبار[٨١]. غير أن اتجاها أخر أكثر إصرارا على أن الانتقال حدث عن طريق آخر هو طريق أعالي الحجاز وبلاد الشام، ومن هؤلاء (جواد علي) الذي قال بأن صلة هذا القلم بأعالي الحجاز وبلاد الشام أقرب من صلته بالحيرة والأنبار، ومنهم ايضا (صلاح الدين منجد) الذي يرى بأن عرب الحجاز قد اقتبسوا خطهم عن الأنباط نظرا للاتصال المباشر بهم في أثناء رحلاتهم الدائمة المتواصلة إلى الشام[٨٢]، باعتبار أن الطرق البرية بين الحجاز والشام كانت تمر في بلادهم. ورحلة الشتاء والصيف الواردة في القرآن الكريم تشير إلى ذلك، وثمة من الشواهد والأخبار ما يصعب حصره بصلة أهل الحجاز ببلاد الشام، خصوصا جنوبها الذي كان ممرا رئيسيا للحجاز ومنها، ومما يؤكد رسوخ هذه العلاقة وقدمها، حتى أن بعض الإخباريين العرب عزا إلى الشام انتقال الأصنام إلى الحجاز. وعلى الأرجح فإن عددا من أهل الحجاز قد انتقل للعيش في بلاد الشام فترات طويلة، وربما أنهم كونوا جالية هناك مثلما يجري عادة بين الجماعات التي تتعاطى التجارة فيما بينها، ولا بد من أن عدداً منهم قد تصاهروا فيما بينهم بالزواج. والافتراض أن الأنباط أنفسهم أقاموا لهم جالية في مكة على قدر كبير من الوجاهة إذا ما علمنا أن النبط أقاموا جاليات كبيرة في عدد كبير من المدن البعيدة عن بلادهم كمدينة بيتولي في إيطاليا ومدينة ممفيس في مصر وفي دمشق، وعلى الأرجح في غزة وفي بلاد الفينيقيين، وربما كانت (النبطية) في لبنان من آثار جالياتهم هناك.

وعن الأسباب التي حملت علماء الساميات إلى الجزم بأن النبط اعتمدوا في قلمهم أساسا على القلم الآرامي يرجع إلى شكل الحروف وعددها وإلى أمور مشتركة متعددة أخرى تربط بين القلمين منها الفصل والوصل وطريقة كتابتها ثم عددها وترتيبها الأبجدي، ففي شكل الحروف مثلا يلاحظ أنها اعتمدت في أغلبها على حروف القلم الآرامي[٨٣]، وفي جزء يسير منها على الخطوط الأخرى المعاصرة لها مثل القلم العبري المربع (Square Script) والتدمري (الذي تطور عن القلم الآرامي الذي ظهر بين سنتي ٢٥٠ ق.م و١٠٠ ق.م)[٨٤] وذلك بمقارنة تلك الحروف بالحروف النبطية القديمة منها والمتأخرة، هذا بالإضافة إلى أن الأنباط قد عدلوا في أشكال بعض الحروف المقتبسة مما جعل للبعض منها صورا بعيدة بعض الشيء عما كانت عليه في الأصل، ولم يكتف النبط بالأشكال القديمة والمعاصرة، فقد ابتكروا للبعض منها صورا جديدة تسهيلا لعملية الفصل والوصل.

٢ - الآداب النبطية:

لسوء الحظ لا يملك أي من الباحثين أية إشارة ذات علاقة بموضوع الآداب النبطية، فلا النقوش أشارت إلى ذلك ولا البرديات على ندرتها ولا أي نوع من المأثورات الشفوية التي يمكن أن تعزى إلى تلك المرحلة البعيدة من تاريخ الأنباط. لكن اللافت للانتباه في هذا الجانب ما نعرفه هذه الأيام من اللون الشعري العامي الشائع المعروف بــ"الشعر النبطي". فما الشعر النبطي؟ وهل يعود بالفعل إلى تلك المرحلة التي كان فيها الأنباط أمة لها حضارتها المميزة؟

أ - **الشعر النبطي:** سمي بهذا الاسم نسبة إلى الأنباط على أغلب تقدير، ويستبعد أن يكون قد سمي اشتقاقا من الجذر "نبط" لأن هذا الجذر واشتقاقاته إنما ارتبطت بالماء واستنباطه من الأرض مثلما مر معنا في "لسان العرب" لابن منظور وغيره من المعاجم. إذاً فإن الاسم لا بد من أن يكون اسما نسبيا للأنباط العرب الذين عاشوا في شمال غرب الجزيرة العربية، وهي المنطقة نفسها التي لا يزال الشعر النبطي يعيش فيها ويلقى فيها رواجا لما فيه من روحية الصحراء ورشاقة اللسان البدوي واتساع الحرية الشكلية التي يتيحها هذا النوع من الشعر.

وفي الحقيقة أن الشعر النبطي الذي نسمعه هذه الأيام أو نقرؤه بعد أن صار يطبع بعضه في دواوين إنما لا يرتبط بالشعر النبطي القديم إلا بالاسم وبالبحور الشعرية. وثمة اسماء أخرى للشعر النبطي في الكثير من المناطق العربية من شمال إفريقيا حتى الخليج العربي، والتسمية الأكثر شيوعا هي الشعر الشعبي أو الشعر العامي أو الشعر الشروقي الذي يغنى على أنغام الرباب عادة، وكان ابن خلدون قد تحدث عن ذلك الشعر الشعبي في مقدمته وأشار إلى تشابه بحوره مع بحور الشعر الفصيح وذكر أنه يسمى "الشعر الحوراني" في منطقة المشرق والشعر الشعبي في الكثير من المناطق العربية[٨٥]، وبعض هذا الشعر يغنى على الربابة في أقطار عديدة من الوطن العربي نعرف منها: الأردن وفلسطين ومصر وربما بعض دول شمال إفريقيا. والحقيقة الثانية هي –للأسف – أن الشعر النبطي القديم لم يبادر أحد إلى طبعه أو جمعه، وما وصلنا من أشعار محفوظة أو مطبوعة لا تنحدر لوقت أبعد من أواسط القرن الماضي في أحسن تقدير، وهذه أيضا نادرة قام بها بعض الأفراد لحفظ ما قالوه أو ما قاله مقربون لهم. وهكذا فإن الشعر النبطي الأصيل لم يصلنا منه غير بعض الألفاظ أو الصور، بينما حافظ على الشكل والبحور التي عرف فيها منذ القدم، مثل الشعر العربي العامودي.

والاختلاف الجوهري بين الشعر النبطي الشعر الفصيح يكمن في التخلي عن علامات الإعراب في أواخر الكلمات ونطق بعض الحروف، وليس في التراكيب والصرف والمفردات التي لا تزال تشابه الفصيحة إلى حد كبير، وهو بذلك يعتبر شعرا ملحونا وأقل قيمة من شعر العرب الفصيح. وربما كان ذلك هو السبب الذي حدا بأبناء الجزيرة لنسبته للنبطيين الذين ربما خالط لسانهم بعض اللحن بسبب اختلاطهم بالأعاجم.

والشعر النبطي – كما هو معلوم – لا يزال رائجا في الكثير من الأقطار العربية، خصوصا في المملكة العربية السعودية، والمملكة الأردنية الهاشمية، ودولة الكويت وغيرها من دول الخليج[٨٦] وهو معروف منذ القدم في جنوب فلسطين أي بين بدو الجنوب، وكذلك بين أبناء البادية السورية، وكل هذه المناطق كانت ضمن حدود المجتمع النبطي أو في نطاق نفوذه كما هو معلوم.

وتاليا نماذج من الشعر النبطي:

أنا بوصيك يا حميد وصية خلها مرجاع ... تذكرها منك وكبرت وصــرت رجــال
وصية من هني عينه يشوفك نادر بتــاع ... تفوز بعالي المناصب وتاخذ زين الأعمال
أنا سميتك حميد على اللي شاع ذكره شاع ... على جدك ترى جدك كسى زينات الأفعال
ترى ما للمصايب سوق تجلب له وفيه تباع ... وتجيك بقدرة المولى وبأمره عنك تنجال
فلا تجزع من أمر الله وخلك للقدر مطواع ... ولا تقطع رجا الرحمة وللعسرات حلال

***

وأخيراً، فغني عن البيان أن الأنباط، مثل عرب الجاهلية بعدهم، كان الشعر بالنسبة لهم الديوان الذي يضم آدابهم وفنونهم ومعتقداتهم وآمالهم وآلامهم وكل مناحي حياتهم. وكم كانت الفائدة عظيمة لو أن قدرا من هذا الشعر وصلنا على حاله هذه الأيام ولو كان يعادل المعلقات السبع فقط، عندها لكان بإمكاننا استشفاف واستنباط الكثير من المفاهيم والمعارف والمعتقدات والهواجس. ..إلخ التي دارت في أذهان الأنباط ونفوسهم وحياتهم اليومية.

ب - **الحكايا والقصص والأساطير:** مع أن كلاً من هذه الألوان يمثل لونا خاصا نشأ في ظروف معينة واستهدف أهدافا متنوعة، إلا أن المقاربة بينها تتمثل في أنها جميعا تعتمد فن السرد الشفوي "القصصي". ومن المنطقي أن يكون الأنباط ، مثل الجماعات الأخرى قد كان لهم ألوانهم الخاصة من ألوان القصص التي تفسر بعض معتقداتهم اتجاه مختلف ظاهرات الطبيعة من حولهم، ولا بد من أنهم استخدموا هذه الفنون والآداب كوسيلة أساسية في التربية والتنشئة الاجتماعية والثقافية مثلما استخدموها أيضا للترفيه والتسلية والتربية العقلية. أما الأساطير فلم يصلنا من تاريخ العرب شيئا مكتملا منها، لا يستبعد د.جواد علي أن يكون لدى الجاهليين أساطير تدور حول آلهتهم، أو أن يكون لديهم أساطير دينية معقدة على شاكلة الأساطير اليونانية، أو الأساطير المصرية أو الهندية، لما بين الظروف المحيطة بالجاهليين وبين الشعوب المذكورة من فروق، والأساطير هي من حاصل المجتمع والظروف المتحكمة بالإنسان(٨٧). ويبدو أن تلك الأساطير - إن وجدت - قد اضمحلت وذابت إلى أن

وصلتنا على شكل نتف من الخرافات والمعتقدات التي تفتقد رابطها السردي المتكامل، وعلى الأرجح فإن الدين الإسلامي قضى على ما كان موجودا منها أو من بقاياها.

أما القصص والحكايا والخراريف، فهي لا تزال كثيرة في مجتمعاتنا العربية ومجتمع الجزيرة العربية، وإن كانت قد خرجت من كونها المادة التربوية الشفوية لدى معظم الشرائح الاجتماعية بسبب حالة التمدن الواسعة وما رافق ذلك من تطور وسائل الاتصال والإعلام، فإن بعض الشرائح الاجتماعية، خصوصا في البادية لا تزال تحافظ على قدر لا بأس فيه منها، ولحسن الحظ، فقد اهتم العديد من أبناء المجتمعات العربية بها وقاموا بتسجيل الكثير منها، ويجدر التنويه أيضا إلى أن عدداً من المستشرقين والرحالة الغربيين كانوا سباقين في بعض تلك المحاولات، فسجلوا لنا الكثير من المرويات التراثية.

وأخيرا فإن تراث الأنباط في هذا الجانب لا يمكن فرزه وتصنيفه بمعزل عن تراث الشعوب العربية، خصوصا أن هذا التراث لا بد وأنه تعرض لبعض التعديلات أثناء عبوره الأجيال والمراحل منذ كان الأنباط يسمرون في بيوت الشعر أو في مخيماتهم التجارية.

ج -**الموسيقى**: عرف الأنباط – بالطبع – الغناء والفنون الغنائية، ومع أن هذا الأمر لا يحتاج إلى أدلة أثرية أو نصية، فإن الآثار نقلت إلينا بعض صور الآلات الموسيقية، خصوصا الناي وآلة أخرى يعتقد بأنها القيثارة، وكان سترابو قد أشار إلى ذلك عندما قال أن الأنباط يجتمعون على مآدبهم في جماعات من ثلاثة عشر رجلا تغني لهم قينتان. ومن المحتمل أن تكون الآلات الموسيقية أيضا قد استخدمت في بعض الترانيم الدينية في أثناء القيام بالطقوس في المعابد شأن العديد من الأقوام السامية مثل الكنعانيين الذين عرفوا القيثارة والمزمار المفرد "الناي والشبابة" والمزمار المزدوج "اليرغول". وعرفت منطقة بلاد الشام خصوصا الكثير من الآلات الموسيقية "النفخية" و "الوترية" و "الجلدية". "فالقرن Horn" كان معروفا منذ أزمان بعيدة بين الشعوب السامية، وقد وجد في النقب وفي أماكن مختلفة من سوريا وفلسطين، وبعضها كان مصنوعا من العاج والبعض الآخر من قرون الحيوانات، وترجع إلى القرن الرابع

عشر والثالث عشر قبل الميلاد. أما الربابة، فمع أنها الأشهر في الغناء البدوي، إلا أنه يعثر على أي أثر لها حتى الآن شأنها شأن الآثار البدوية الأخرى التي لا تقاوم عاديات الأرض والزمان. ولكن الربابة لصيقة بالتراث الغنائي البدوي للحد الذي يمكن معه الافتراض أنها قديمة جدا وأقدم من الأنباط، بل لعلها عرفت منذ بدء الإنسان بتدجين الحيوانات لبساطتها واعتمادها على المنتجات الحيوانية إضافة إلى صندوقها الخشبي. أما القربة (مزمار الجراب) فإن البعض يعتقد أنها ذات نشأة يونانية، أو رومانية وبعضهم يعتقد أنها ذات أصل شرقي روح الشرق لملاءمتها، وقد أشار إليها العهد القديم. ووجد في الآثار أيضا الناي المفرد (الشبابة) والناي المزدوج (اليرغول) وغيرها الكثير من الآلات الموسيقية التي أخذ بعضا منها الأوروبيون فصرنا نعتقد أنها جاءت من حضارتهم مثل العود والقانون والطبل والقيثارة والنقارة والقصعة والصنوج..إلخ(٨٨).

وذكر أهل الأخبار العرب أن العود كان من آلات الطرب القديمة عند العرب، وقد عرف من ضمن الآلات المستخدمة زمن داوود، وذلك في المزامير، ويعتقد أيضا أن المزمار والرباب من الآلات القديمة أيضا، وقد عرف "الدف" أيضا وهو معروف عند الساميين " توف Toph "(٨٩).

د- الغناء: يعتقد أن الغناء نشأ مع نشأة التجمعات البشرية، فالغناء وسيلة تعبيرية عن الفرح أو وسيلة للهو والتسلية ،وهو كذلك وسيلة تعبيرية حربية عندما كان يستخدمها المتحاربون لرفع معنوياتهم وللحط من شأن عدوهم. ومن الصعب تقدير الظروف التي بدأت فيها الألوان الغنائية تشيع ما دام الغناء شكلا إنسانيا تعبيريا ضارب في القدم.

وفي المجتمعات العربية لا بد من أن ألوانا من الغناء كانت قد نشأت قبل غيرها، والاعتقاد المنطقي هو أن أشكال الغناء الحربي أو الحماسي ثم غناء الرعاة والجمالة هي أقدم هذه الألوان. ولا سبيل للفصل ما بين الغناء وما بين الشعر لأن كليهما يشتركان في الكثير من القواسم المشتركة، فالشعر موضوع الغناء غالبا. إذ لا بد من أن يكون كلام الغناء مضبوطا بلحن داخلي أو خارجي (في الشكل) ليصبح فنا

يتميز عن التعبيرات الكلامية الأخرى. ومن المحتمل أن يكون اللون الغنائي "الهجيني" من أقدم ألوان الغناء في الصحراء، ذلك أن هذا اللون نشأ مصاحبا لمشي "الهجن" وهي الإبل ومنها أخذ اسمه، ويؤدى الهجيني على انفراد وقد يؤدى بمصاحبة رفيق يردد نفس (المصراع)، وذلك بهدف التسلية في الطريق الطويل أو في أثناء رعي الإبل، وقد يغنى بواسطة الرباب ولكن في المجالس فقط. ويستطيع القارئ تخيل صورة النشأة الأولى لهذا اللون مع الإبل وهي تسير مسافات طويلة بينما لا يرى راكبها غير الصحراء النقية التي ستوحي له بصور شتى من مخيلته ومن تجاربه التي مر بها، وهو لا بد أن ينحو إلى تسلية نفسه والترويح عنها أو عن نفس رفيقه أو رفيقته بأن يبدأ بمحاولات إطلاق الأقوال المضبوطة التي ستساير إيقاع خطوات الناقة وهي تختال فوق الرمال الصحراوية. ومن أمثلة غناء الهجيني:

طلعـــت أنـــا مرقـــب عـــالي   مـــن ضـــيقة الـــصدر يـــا مفـــضي

ربـــــي بلانـــــي بعـــــريض   اكتـــاف والـــزين مـــا دبـــره حظـــي

لــــو كــــان قلبــــه لزولــــي   عاف يا ويلـــي مـــا ويجعـــه حظـــي

***

واللون الثاني من الغناء البدوي القديم هو "الحداء"، وهو قريب الشبه بالهجيني لكن لحنه أسرع مما يناسب الحركة السريعة، ويضطر البدوي للحركة السريعة في السير، خصوصا في أثناء حالات الحرب والكر والفر وربما في حالات السفر وكذلك سباق الخيل والإبل. ويبدو أن هذا اللون أيضا من أقدم الألوان لأنه لون صحراوي بدوي بامتياز حتى لو كان قد انتقل إلى الأوساط العربية الأخرى غير البدوية.

أما الشروقي، فهو أيضا من الألوان الغنائية القديمة لأنه عبارة عن قصائد "نبطية" تغنى على آلة الرباب، وهذا اللون يناسب المجالس في بيوت الشعر، وبوسع المرء تخيل النشأة الأولى عندما كان الناس يسمرون في الليل، خصوصا في ليالي أفراحهم، فلا بد من أن بعضهم كان قد تطوع وقدم ما تفتقت عنه قريحته بمصاحبة آلة الرباب مما لاقى استحسان الناس وإكبارهم، خاصة أن موضوعات قصيد الشروقي هي

نفسها موضوعات الشعر العربي بما فيها من عواطف متنوعة وغزل وأطلال ومدح وذم وحكمة..إلخ.

على أن ألوان الغناء البدوي كثيرة وليس هنا المجال لبسطها، وخلاصة القول أن الأنباط كانوا أكثر أحقية بمعرفة ألوان الغناء الصحراوي الذي كان يصاحب مسيرهم الطويل مع القوافل التجارية وحياة التنقل، أو كان يخالط مجالسهم في بيوت الشعر على أنغام الرباب واليرغول والناي وغيرها وربما في احتفالاتهم الدينية والاجتماعية. ولا بد من أن الذين استقروا أو تمدنوا منهم تبنوا الكثير من الألوان الغنائية التي لم يكن لهم بها سابق علم أو رغبة. ومن ذلك الرقصات والدبكات التي ظلت جزءا أصيلا من تراث القرى، أو تلك الألوان المدنية التي تتقبل كل جديد ومناسب وتحوره وتستجلب آلاته الموسيقية عاجلا أو آجلا.

هـ - الفنون التشكيلية: يبدو أن الأنباط لم يولوا اهتماما للفنون التشكيلية حتى بداية العصر الهليني من حضاريتهم، وهذا أمر مفهوم ما دامت الحضارة البدوية إجمالا لا تعتني بهذا الجانب من الفنون بسبب حالة عدم الاستقرار التي تعيشها مما ينفي أحد أهم شروط نشوء الفنون التشكيلية وتطورها. ولقد لاحظنا (أثناء استعراضنا للديانة النبطية) كيف أن رموز الآلهة النبطية إنما كانت كتلا صخرية تكاد تكون غشيمة خالية من أي فن، وأقصى ما تمكن منه الأنباط وكذلك القبائل العربية في الحجاز هو تمثيل آلهتهم اللات بصخرة "مستطيلة مكعبة" مثلما عرف عنها في الطائف والسويداء، أما "ذو الشرى" الإله الرئيسي عندهم فرموزه عبارة عن أنصاب حجرية مستطيلة لا تزال بادية المعالم منذ أن بدأ الأنباط بالنقش والنحت في المدينة. فهم لم يعرفوا التماثيل في مرحلة البداوة، ولم يتقنوا فن النحت أو فن تشكيل الصلصال الطيني إلا متأخرا، وعلى الأغلب لم يتمكنوا من إجادة التصوير النحتي والجداري قبل انتشار الحضارة الهلينية وانتشار نحاتيها ورساميها. ومنذ بداية القرن الأول قبل الميلاد بدأت تظهر التماثيل المتقنة، ودخلت الفنون النحتية وفنون الرسم (الفريسكو) في العمران، خصوصا في المعابد والقصور والفلل. وإذ ذاك بدأت هذه الفنون تجتذب تأثيرات الحضارات القريبة وتعكس شيئا من فنونها، ولكن الفضل سيعترف به للأنباط وهم يبدعون من

أذواقهم تعبيرات حضارتهم الشرقية المميزة، ويحاكون بيئتهم لتنعكس في هذه الفنون حيث ستظهر أوراق الكرمة وقطوف العنب وحبات الرمان والزيتون والنسر والجرة والأسد والجمال والطيور...إلخ. ويستخلص من الحفريات الأثرية في معبد التنور تطور فن النحت والمعمار النبطي ضمن مراحل ثلاث: أولها النمط المعماري – الفني الساذج، ويظهر التقدم الفني في المرحلة الثانية، أما المرحلة الأخيرة فقد ظهرت فيها منحوتات بارزة لتماثيل متعددة غاية في الإتقان[٩٠].

وما أن جاءت الدولة الرومانية حتى وصلت بالفن إلى قمته في عهد الإمبراطور "أوكتافيوس أغسطس" في أواخر القرن الأول ق.م. وكان الرومان قد استعملوا الطرز الإغريقية، الطراز الدوري والأيوني والكورنثي بصورة أو بأخرى، إلا أنهم أدخلوا عليها بعض التعديل[٩١]. ولم يتحرج الفنان الروماني من الأخذ من الأنباط، إذ بدأت أنماط وفنون ورسوم عديدة تعكس نفسها في الفن الروماني من مثل أوراق الكرمة وصور الحيوانات كالجمال والخيل إلى جانب الزهور والطيور والأشكال الهندسية المتنوعة.

و – **الرياضات البدنية والألعاب:** لا نعرف الكثير عن الرياضات التي كان يمارسها الأنباط باستثناء الإشارات الموجزة لرياضتهم في الصيد التي أوردها ديودرس، وعلى الأرجح أن الأنباط مارسوا الرياضات البدوية في مجتمعاتهم البدوية، والرياضات المدنية في مدنهم وقراهم، فالرياضات البدوية يمكن حصرها في رياضات الفروسية، كسباقات الخيول والجمال، وهذه لا تزال رائجة في المجتمعات العربية في شبه الجزيرة العربية ويبذل لإقامتها الكثير من الوقت والمال مما يدل على تغلغلها في الوجدان الجمعي للناس، أما رياضة الخيول فهي رياضة محدودة ويبدو أن سباقات الإبل كانت هي المفضلة مثلما هي عليه الآن أيضا. ومن المحتمل أن رياضة اللعب بالسيف وطراد الحيوانات كانت رياضة رئيسية لدى الأنباط، وهذا ما تومئ إليه الرسومات الكثيرة التي صنعت من (الفريسكو) ويصور بعضها الصياد قريبا من الطرائد من الوعول والغزلان إلى جانب صور الحيوانات المفترسة أيضا، وجاءت هذه المشاهد عالية الإتقان مما يعكس معرفة حقيقية بهذه المشاهد، ويبدو أن هذه المشاهد

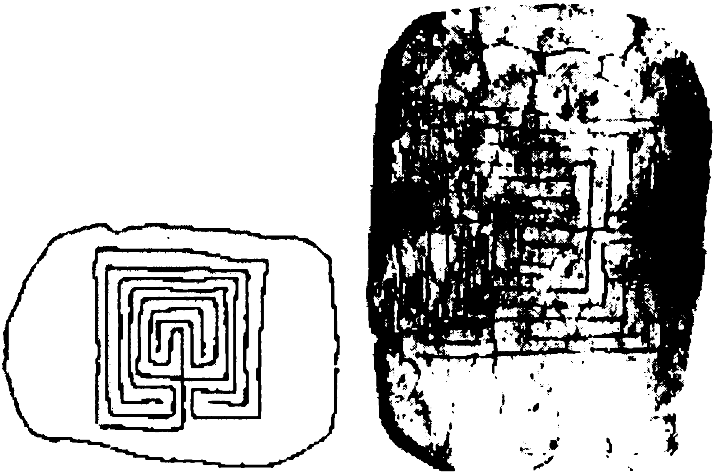
وهذه الرياضة الفروسية كانت رياضة تراثية لمعظم الأقوام التي قطنت المنطقة لأنها ظلت تظهر في تصاويرهم حتى بداية العصور الإسلامية. أما الرياضات المدنية فليس لدينا معرفة بها، ولكن بناء المسارح في الفترة الهيلنستية لا بد من أن رافقه تطور في الرياضات، خصوصا الرياضات الإغريقية والرومانية من مصارعة وألعاب قوى لا نعرف عنها بين الأنباط ما يصلح للعرض حتى تكشف لنا الدراسات الأثرية ما يكفي لذلك.



بقايا لعبة المنقلة، وهي على أشكال عديدة في صخور البتراء

وبخصوص الألعاب فإن الأنباط - لا شك - قد عرفوا العديد من ألعاب التسلية لكل شرائحهم الاجتماعية، ونحن نعرف من خلال تاريخ الشعوب السامية والحضارات المجاورة عن وجود كثير من الألعاب التي وردت في المصادر ووجد بعض منها محفوظا في المتاحف مثل لعبة "المنقلة"، ولقد اكتشفت المنقلة من قبل فريق أبحاث كان يرافقه الباحث الأردني بلال خريسات، وهذه المنقلة وجدت محفورة في الصخر قرب الدير في البتراء، وهي عبارة عن لوحة تتكون من صفوف من الحفر الصغيرة "الفناجين" التي يوضع بها حبات الحجارة وما يقابلها من البيئة المحلية، وتتكون المنقلة من صفين من الحفر ١٢×٤. عرفت كذلك السيجة من ضمن الألعاب التي عرفتها شعوب المنطقة خصوصا، وغالبا ما كانت تحضر في التراب، وهي تشبه

تنظيم لعبة المنقلة، وكانت هاتان اللعبتان لا تزالان شائعتين بين أوساط البدو والفلاحين إلى وقت قريب من القرن العشرين. ومن تلك الألعاب التي كانت شائعة أيضا لعبة لا نعرف لها اسما عربيا " Labyinths، ويعتقد انها كانت معروفة أيضا في المنطقة النبطية بما أنها وجت في سورية منذ أزمنة بعيدة، وهي عبارة عن لوحة خشبية أو ما يماثلها وقد رسم عليها خطوط متعرجة تمثل ممرات وجب على اللاعب العبور فيها.



بقايا لعبة الممرات المتعرجة، ومن المحتمل أن تكون واحدة من ضمن مستوردات الأنباط من الأسواق المجاورة

أما ألعاب النساء والأطفال فلا نملك عنها شيئا، ولكن ذلك لا ينفي وجودها بكثرة في المجتمع النبطي، ولا بد من القول أن الألعاب الشعبية في المجتمعات العربية كانت كثيرة، وقد اعتمدت هذه الألعاب على عناصر وفرتها البيئة، وتدخل الإنسان فيها كان بسيطا، والحجارة والتراب والأخشاب كانت من العناصر الأساسية في الألعاب، ولعل الدمى التي عثر عليها في عين غزال قرب عمان تمثل أقدم أنواع الألعاب إن لم تكن دمى للطقوس الدينية، فهي تعود للعصر الحجري، وقد صنعت هذه الدمى من الطين بعد أن جرى توضيب الهيكل من الأعواد والصوف. وعلى الأرجح فقد اهتدى النبطي إلى تحسين ما وجده من ألعاب شعبية وتراثية، ولا بد من أنه استقدم بعضها من

الخارج ما دام مفتوحا على شعوب المنطقة وحضاراتها بفضل التجارة. ولا بد من أن بعض هذه الألعاب كان يقصد به تنمية القدرات الذهنية أو القدرات الحركية والعضلية للأطفال، وبعضها كان يمارس بهدف الترويح عن النفس بالدرجة الأولى، والخلاصة أن الأنباط لا بد من أن عرفوا ما للألعاب من دور كبير في تنشئة أبنائهم، ولا بد من أنهم احتاجوا هذه الألعاب والرياضات لتزجية أوقات فراغهم وتسلية ضيوفهم وأصدقائهم وعائلاتهم، فهذه حاجات إنسانية وجدت حيث وجد المجتمع البشري.

مراجع الفصل الرابع وهوامش:

١ - انظر مثلا: هتون الفاسي ١٩٩٣/ ١٩٥.

٢ - انظر مثلا: زيدان الكفافي، ٢٠٠٦/٣٥١

٣ - دي لاسي أوليري، جزيرة العرب قبل البعثة /١١٩-١٢٠

٤ - Gluck , N.1970: 192

٥ - فيليب حتى، ج١، ١٩٥٨/٤٢٥

٦ - هيرودت ٢٠٠١/٢٢٠

٧ - فيليب حتي، ج١، ١٩٥٨/٤٢٥

٨ - يقول ابن وحشية: هذه شجرة عربية ذات شوك، وإنما قلنا أنها عربية، لأن نباتها في بلادهم أجود وأدسم مما ينبت منها في جميع الأراضي، فالعرب يشطرونها فيسيل منها رطوبة كثيرة تجمد، وربما على الشجرة وربما إذا وقعت منها، فهم يبسطون تحتها شيئا تجتمع تلك الرطوبة عليه وتجمد، وهي سريعة الانجماد والانعقاد، إذا ذاقها لدغت لسانه وفاه، وقد يدخله العطارون في أخلاط الطيب والأطباء في الأدوية والمعجونات، وهو حار شديدالأسخان، (وكان الكنعانيون يستخدمونه حرقا في معابدهم وشعائرهم الدينية تقربا إلى الزهرة). ابن الوحشية، ١٩٩٥، ج ٢/١٢٥٧

٩ - إحسان عباس، ٢٠٠٧/١١٢-١١٣

١٠ - Diodorus,1993:

١١- سناء الحمود، ٢٠٠٢/ ١٠٩-١١٤

١٢ - هتون الفاسي، ١٩٩٣/١٩٧-١٩٩

١٣ - Gluck 1934;15-24

١٤ - إحسان عباس، ٢٠٠٧/١٢٠

١٥- Hammond , P.C,The Nabataeans..:72

١٦- اللتون وجمعها لتونات في اللهجة الشعبية، وهو المعمل الذي يحضر ويحرق فيه الشيد " الجير"، ويتم ذلك على مراحل: يجري بناء حفرة في الأرض أولا، وقد يستعاض عن ذلك بمغارة مناسبة، تجمع الحجارة من المنطقة وتبنى على شكل رجم مقبب بحيث يمكن تلقيم الحطب وإشعاله من تحت البناء. ويقوم عدد من العاملين بجلب

كميات كبيرة من الحطب تكفي لاستمرار الحرق مدة ثلاثة أيام بلياليها تقريبا بحيث تولد درجات حرارة عالية. إثر ذلك تكون الحجارة قد تلظت من شدة الحرارة فتترك حتى تبرد وبذلك تحول إلى " جير " يجري نقله لاستخدامه في اغراض البناء المختلفة ومنها عمل المونة والخلطات وكذلك التبييض أو الدهان.

١٧ – تعتبر صناعات " دباغة الجلود " التقليدية من أوسع صناعات المجتمعات العربية القديمة، وعلاوة على كونها إنتاجا من المواد الخام المحلية الوفيرة في المجتمعات البدوية والزراعية، فهي أيضا تمثل حاجات وأدوات أساسية تكاد تدخل في مختلف مناحي الحياة العملية، وتعد المنتوجات الجلدية بالعشرات ولا يزال الكثير منها شائعا في المجتمعات البدوية والزراعية، وللمزيد انظر:
(الملحق رقم ٣: الصناعات التقليدية في المجتمعات العربية القديمة).

١٨– وهذا لا يعني أن كل وحدات الأوزان النبطية كانت من الحجارة، فالحجارة قد تطلق على أي جسم صلب بما فيه المعادن مثلما لا يزال يجري في مجتمعاتنا هذه، فالبطارية الكربونية الصغيرة الخاصة بأجهزة الراديو كانت تدعى "حجراً"، والمعدن الأبيض الذي يشعل شرارة الولاعات القديمة يدعى حجراً أيضا. وغيرذلك من الوحدات. وقد وجدنا وحدة وزن من البرونز قرب "سيق البارد" شمال البتراء وكان وزنها ٢٥ غم تقريبا مما يمكن افتراضه وزناً آشورياً من شاقلين، علما أن الشاقل كان يبلغ حوالي ١١,٨ غم وفق شروح العهد القديم.

١٩ – سناء الحمود، ١٢١/٢٠٠٢

٢٠ – هتون الفاسي، ١٤٦/١٩٩٣-١٤٨

٢١ – عمر ابو النصر / ١٩٦/١٩٧٠

٢٢-. Hammond 1973:86

٢٣ – هتون الفاسي، ١٩٩٣/ ٢٠٠

٢٤ – البلسان: شجر يبلغ طوله ١٤ قدما ذو ساق ناعمة وأوراق صغيرة يستخرج من فروعه وسوقه البلسم المعروف برائحته العطرة، ويكون ذلك بجرح الساق عدة جروح ليسيل منه صمغ سرعان ما يجف فيجمع في أوعية، ومن استخداماته أنه يمزج في بعض العطور والعقاقير الطبية.
وثمة آراء تقول أن البلسم يجمع من عدة أنواع من الشجر وليس له شجرة محددة.

٢٥ - الدباغ، ج١، ق ١/ ٤٦٣

٢٦ -محمد خطاطبة، ٢٠٠٦/٦٣-٦٤

٢٧ - المحيسن، ٢٠٠٢/١٠٧-١٠٨

٢٨- المحيسن، ٢٠٠٢/١١٢

٢٩ -محمد خطاطبة، ٢٠٠٦/٦٣

٣٠ - دي لاسي أوليري، ١٩٩٠/٢٦

٣١- عبد الرحمن الطيب الأنصاري، لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غربي الجزيرة العربية "، الدارة، ١، ١٩٧٥، ٧٦-٨٥.

٣٢- جواد علي، المفصل، ج ٤/ ٥٥٥-٥٦٧

٣٣ - هتون الفاسي، ١٩٩٣/١٠٧

٣٤ - Meshorer,1975,70

٣٥ - جواد علي، المفصل، ج ٥/٩٢

٣٦- جواد علي، المفصل، ج٤/ ٢٦٣-٢٦٤

٣٧ - ستاركي، الأب جان، " النبط " ترجمة: محمود العابدي، حولية مديرية الآثار العامة الأردنية، ١٥(١٩٧٠)، ٥-١٣

٣٨ - انظر مثلا: جواد علي، المفصل، ج ٤ / ٢٦٣ أو انظر: (هتون الفاسي، ١٩٩٣/ ١٢٩)

٣٩ - هتون الفاسي، ١٩٩٣/ ١٢٦

٤٠ - هتون الفاسي، ١٩٩٣/ ١٥٣

٤١ - جواد علي، ١المفصل، ج ٤/ ٥٥٥- ٥٦٧

٤٢- هيرودت ٢٠٠١/ ١٧٨.

٤٣ - هتون الفاسي، ١٩٩٣/١١٦

٤٤ - إحسان عباس، ٢٠٠٧/ ٣٦

٤٥ - هتون الفاسي ١٩٩٣/١٦٨

٤٦ - Meshorer,1975,70 انظر: محمد مبروك نافع، تاريخ العرب عصر ما قبل الإسلام، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٥٢، ص ٨٧

٤٧ - انظر سليمان الذيب، ١٩٩٨/٦

٤٨ - إحسان عباس٢٠٠٧/١١٥

٤٩ - Josephus ,Jewish Antiquitis , B XV-XV11, p 323-325

٥٠ - لمزيد من التفاصيل انظر: دي لاسي أوليري، جزيرة العرب قبل البعثة، ص ٩٠-٩٣. *ومن الواضح أن سيلي كان كبش فداء لهذا الفشل وفوق ذلك فقد أتهمه سترابو والرومان ب " الخيانة العظمى " وهو في الحقيقة إنما كان يرفض أن يكون دليلا على استعمار أرض أبناء جلدته في جنوب الجزيرة العربية، تماما مثلما يشبه الغرب أعمال المقاومة الوطنية بـ" الإرهاب " في أيامنا هذه.

٥١ - فيليب حتي، ١٩٥٨/ ٢٩٠-٢٩٥

٥٢ - دكتور حسين الشيخ، ١٩٩٣/١١١

٥٣- احمد العجلوني، ٢٠٠٢/١٦٤

٥٤- احمد الجلوني، ٢٠٠٢/١٦٤-١٦٧

٥٥ - فيليب حتى ١٩٥٨/٢٩١

٥٦ -: الفرثيون نسبة إلى المنطقة الإيرانية " فرثيا " أو " بارثيا " أو الأرساكسيون نسبة إلى أرساكس زعيمهم الأول، تغلب أرساكس على السلوقيين في الجزء الشمالي الشرقي من إيران، وتمكن خلفاؤه من تثبيت حكمهم، وسادت هذه الدولة شؤون إيران قرابة خمسة قرون. وكانت خصما عنيدا للرومان مدة طويلة. وامتدت سلطة ملوكها إلى نهري دجلة والفرات وبحر قزوين ونهر السند والمحيط الهندي. وفي عام ٢٢٦ م احتلت مكانها دولة إيرانية أخرى باسم الدولة "الساسانية" التي بقيت حتى سنة ٦٥١م، حين استولى العرب المسلمون على البلاد وحكموها بولاتهم.

٥٧- الدباغ، ق١، ج١/٦٢٢

٥٨ - سليمان الصمادي وعودة الخرابشة، ٢٠٠١/٣٦

٥٩ - فيليب حتي، ١٩٥٨/ ٣٠٩

٦٠ - الدباغ، ق ١، ج ١/ ٦٠٧

٦١ - Josephus.vu ,457-459

٦٢ - Starcky ,op.cit.SDB.906

٦٣ - Starcky ,op.cit.SDB.904

٦٤ - خليل مقداد، ١٩٩٦/٩٩

٦٥ - Bowersock,1983

٦٦ - Meshorer 1975;63

٦٧ - لمزيد من التفاصيل انظر: سماح بركات، حروب اليهود، (رسالة ماجستير غير منشورة) الجامعة الأردنية، ٢٠٠٢، وانظر جوسيفيوس (Josephus,Flavius,The Jewish War.)

٦٨ - إحسان عباس، ٢٠٠٧/٦٥-٦٦

٦٩ - الدباغ، ق ١، ج ١، / ٦٣٢- ٦٣٣

٧٠ - خير نمر ياسين، ٢٠/١٩٩٤

٧١ - الدباغ، ق١، ج١/ ٦١٠

٧٢ - فيليب حتى، ٤٢٧/١٩٥٨

٧٣ - هاشم أبو حاكمة، ٣٠١/٢٠٠٧

٧٤ - هاردنج، ١٨٠/١٩٧١

٧٥ - خليل يحيى نامي،١٩٧٩/ ٨٦

٧٦ - الدباغ، ج١، ق١ /٦١٤، ويجب الانتباه إلى أن السريانية هي نفسها اللغة الآرامية وإن كانت قد تعرضت لبعض التعديل بسبب الاستمرار في استخدامها من قبل بعض الكنائس المسيحية في الصلوات حتى وقتنا هذا، ويذكر كذلك أن بعض القرى في سوريا لا تزال تتحدث السريانية مثل: جبعدين ومعلولا وبخعا.(من كتاب لغة السوريين للمؤلف سمير عبده - webmaster@st-takla.org)

٧٧ - الدباغ، ج١، ق١/ ٤٨٦

٧٨ - د.إحسان عباس٢٠٠٧/ ٢٤

٧٩ - ولفنسون، اسرائيل. ١٧٢/١٩٨٠-١٧٣

٨٠ - Grohmann 1971:25

٨١ - سهيلة ياسين الجبوري، ١٩٩٧/ ٦٦

٨٢ - صلاح الدين المنجد، دراسات في تاريخ الخط العربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي ، ١٩٧٩- ص١٩- ٢٣.

٨٣ - جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج٣، / ٧

٨٤ - هامش: وهو القلم الذي اتخذه اليهود بعد عودتهم إلى فلسطين بعد السبي البابلي الثاني الذي حدث في حدود سنة ٥٨٦ ق.م والذي يستند في الأساس إلى القلم

الآرامي. ويمكن اعتبار القرن السادس قبل الميلاد فترة التحول من الكتابات العبرية القديمة إلى الكتابة العبرية المربعة. عن Driringer.David:Writing.p(128)

٨٥ -بن خلدون، المقدمة ، مج١، ص٥٨٢- ٥٨٣.

٨٦ - صادق محمد البخيت، الأنباط والشعر النبطي/٣١

٨٧ - جواد علي، المفصل، ج ١٨٠/٦

٨٨ - المصدر نفسه / ٣٢٨

٨٩ - جواد علي، المفصل، ج ١٠٨/٥-١١٥

٩٠ - إحسان عباس، ١٤٢/١٩٨٥

٩١ - د.عفيف بهنسي، ١٩٧١/ ١٨١+ ١٨٦

الملاحق

الملاحق

❖ **ملحق (١)- المكابيون والهيروديون اليهود جيران الأنباط:**

دولة اليهود في أثناء حكم المكابيين (الحشمونيين) والهرادسة (الهيروديين): ولأهمية الفترة المشار إليها من حكم المكابيين والهرادسة (١٦٧ ق.م – ١٠٠م) أفردنا لها هذه العجالة:

ابتدأ حكم المكابيين منذ عام ١٦٧ ق.م واستمر إلى العام ٣٧ ق.م حيث بدات حقبة ثانية متميزة، وكان السلوقيون قد منحوا هذه الولاية حكما ذاتيا بعد أن كثرت فيها القلاقل الداخلية، وكان حكام السلوقيين قد حاولوا – وفق السياسة المقدونية العامة – طبع المنطقة بما فيها اليهود بطابع الثقافة الهلينية، إلا أن مقاومة المتمسكين بشريعة اليهود وتميزها ظلوا يثيرون القلاقل والثورات حيث نجح آخرها بقيادة يهودا المكابي في تأسيس سلطة جديدة تجمع السلطات الدينية (الكهانة) والسلطات (الدنيوية- الزمنية)، بدأت هذه السلطة تتعزز وتتقوى نتيجة الخلافات التي كانت تدب في أوساط الدولة السلوقية التي ظلت تتراجع وتفقد الكثير من أراضيها وقوتها في سوريا، مما أتاح للمكابيين السعي لتنفيذ أطماعهم في التوسع تحت الكثير من الحجج التي غالبا ما لبست ثوب مناصرة إخوانهم في الدين، أو لمواجهة "اعتداءات القبائل والأقوام الأخرى" التي تهاجم الجاليات اليهودية في أنحاء مختلفة. وقد كان الإسكندر جانيوس- وهو أحد ابناء يهودا- من أكثر حكام المكابيين عداء ورغبة في التوسع في المناطق المحيطة، ولذلك فقد كانت أغلب الوقائع الحربية قد جرت في عهده، أما الأنباط فلم يقفوا مكتوفي الأيدي إزاء ما كانوا يشاهدونه من تراجع وتحلل للدولة السلوقية، بل فقد برزت أيضا أطماعهم في التوسع ومد نفوذهم إلى حيث كان الإسكندر يتطلع. وكان من سيرة المكابيين ما عرف عن رئيسهم الخامس (هيركانوس ١٣٥-١٠٤ ق.م) من

إكراهه لبعض الأقوام ومنهم الأدوميين وحملهم على التهود بالسيف، وكان اليهود في نهاية رياسته يملكون كل البلاد الواقعة جنوبي جبل الكرمل، عدا مدن الساحل عكا وعسقلان والطنطورا وغيرها. وخلفه ابنه "أرسطوبولس الأول" (واتخذ لنفسه لقب ملك، وكانت مدة حكمه القصيرة مليئة بالجرائم، فقد ترك أمه تموت جوعا في السجن، وقتل أحد إخوته، ثم خلفه أخوه الإسكندر جانيوس Alexender Jannaeus (١٠٣ - ٧٦ ق.م)، الذي سعى إلى تهويد بعض الأقوام المجاورة بحد السيف، وقد بلغت الفتوحات في عهده ذروتها، وفي عهد هذا وقعت أغلب الحروب مع الأنباط، إذ كان من سياسته التوسع ما أمكن ذلك مستغلا الضعف التام الذي أصاب الدولة السلوقية مع بداية عهده تماما. فقد هاجم الإسكندر مناطق في حوران والجولان، وهاجم مدينة غزة، وهي آنئذ تتمتع بوضع المدينة المستقلة، فاستنجدت غزة بالأنباط، وكان الإسكندر قد أعمل فيها حد السيف، فدخلها الأنباط وسكوا فيها النقد. وعقب موت الإسكندر جانيوس خلفته زوجته "سالومي"، ويبدو أن سالومي سعت إلى الاستقرار مع أن جيشها آنذاك بلغ حدا من القوة لم يبلغه من قبل، وقد ساد الهدوء بعض الوقت في عهدها، وقد بدأت في هذه الفترة جيوش الدولة الرومانية بالوصول إلى المنطقة، فقد وصل بومبي دمشق سنة ٧٥م، ومن هناك بدأ بالتوسع لإعادة فرض السلطة على الدويلات الصغيرة في المنطقة ومنها دولة اليهود والأنباط ودويلات سوريا ومدنها جميعها، وكان أول وال روماني عين على سورية " أولوس غابينوس Oulus Gabinius الذي أمر بإعادة بناء المدن التي كان المكابيون قد هدموها مثل "السامرة - سبسطية" وبيسان وغزة والطنطورا، وأمر غابينوس بتجريد كاهن اليهود "هيركانوس الثاني" من لقب الملك، كما فرض الضرائب الثقيلة على اليهود وأمر باعادة المدن اليونانية التي كان المكابيون قد ضموها إلى حريتها السابقة، إلا أنه سمح لليهود، مثلما سمح لغيرهم، بالحفاظ على شرائعهم الدينية وتقاليدهم، ومنحهم الاستقلال الداخلي، لكن اغتيال الإمبراطور الشهير "يوليوس قيصر" أثار القلاقل وأتاح للفرس "الفرثيين"

اجتياح المنطقة والوصول إلى القدس خلال الأعوام ٤٠-٣٨ ق.م، لكن حاكم مصر "أنطوني" قد تمكن من طردهم عندما دخل القدس "أورشاليم" ونقل الحكم إلى "هيرودس بن أنتيباتر" الأدومي وجعله ملكا على اليهود اعترافا من الرومان بخدمات والده "أنتيباتر" عندما كان المستشار الأول لملك اليهود الأخير "هيركانوس". وبذلك انتقل الحكم لأسرة جديدة هي الأسرة "الهيرودية" أو "الهرادسة" (٣٧ ق.م - ١٠٠م)، اهتم الهرادسة بالبناء والتنمية وتلقوا دعما كبيرا من الرومان، وقد وصلت الدولة في عهدهم أقصى اتساع لها، فضمت الجولان وقسماً من شمال شرقي الأردن الحالي وجنوب سورية، إلا أنها لم تكن لتصل إلى جنوب فلسطين حيث كان الأنباط يملكون النقب إلى البحر الأحمر، فيما ظلت عسقلان وغزة مدينتين حرتين تتمتعان بالاستقلال الداخلي، أما في شرقي الأردن، فقد كانت منطقة واسعة قد خضعت لهم وأقاموا فيها بعض مستوطناتهم، وتمتد هذه المنطقة من "وادي الموجب" في الجنوب إلى "وادي اليابس" في الوسط. وكانت "جلعاد" أهم مركز من مراكزهم قرب وادي الزرقاء، وكانت منطقة "ديبون" شمال الموجب أهم مركز من مراكز دولتهم المحاذية لحدود الدولة النبطية، وقد بنيت فيها قلعة "ميخاروس" أو "مكاور" من أعمال مادبا حاليا، وقد اشتهرت هذه القلعة بالجرائم التي وقعت فيها وأهمها قتل "يحيى- يوحنا" عليه السلام إثر احتجاجه على زواج هيرودت من ابنة أخيه "سالومي" التي كانت قد تزوجت عمها الأول أيضا. وقد شملت الأراضي التي احتلها اليهود شرقي النهر منطقة أو مقاطعة "بيريا" التي تحاذي جبال الشراة من الغرب وصولا إلى الأغوار الوسطى تقريبا، وكان "هيرودس أنتيباتر قد تزوج من ابنة الحارث الرابع"، ولكنه قام بتطليقها مما كان سببا للحارث لتجريد حملة عسكرية كبيرة عليه حاصرت القدس وكادت تفتحها لولا تدخل القائد الروماني "سكاوروس" الذي كان يجتاح المنطقة لإعادة ترتيبها. وهو نفسه الذي سيحاصر البتراء بعد ثلاث سنوات ويحرق ممتلكات

الأنباط حولها فارضا عليهم التبعية ودفع الجزية. وقد انتهى حكم الهرادسة في عام ١٠٠م.

❖ **الملحق (٢)- الجمل العربي، سفينة الصحراء، ودبابة الحروب:**

يبدو الجمل العربي للكثيرين منا كتراث احتفالي أو طقس رمزي لحياة سابقة مذ كان عنصرا رئيسيا في حضارات الجزيرة العربية منذ أقدم العصور، ولا يصح تجاوز الحديث عن الجمل ونحن بصدد الحديث عن إسهامات الحضارات العربية ومنجزاتها وسماتها الحضارية المتنوعة، فهذا الحيوان الأليف كان له الشأن الكبير في سير هذه الحضارة وتطورها إن كان في ظروف الحرب أم في ظروف السلم. وينطبق ذلك أكثر ما ينطبق على حضارة الأنباط التي استعرضنا ما استطعنا من عناصرها في صفحات هذا الكتاب، وبما أن التجارة كانت عصب الحضارة النبطية منذ نشأتها حتى غيابها، فإن الجمل كان عصب تلك التجارة بدون منازع. وبالطبع لم تتوقف مكانة الجمل على دوره التجاري فقط، فهو أيضا جزء لا يتجزأ من كثير من مناحي الحياة المختلفة، فهو مركبة البدوي الجاهزة في كل وقت للانطلاق والتنقل سعيا وراء الكلأ والماء، وهو أيضا المصدر الغذائي المهم الذي يزود العربي بحليبه ولحومه ووبره وجلده، وكل ذلك مهم في الحياة اليومية، أما أهميته التي لا تدانيها أهمية، فهو "المحفظة النقدية" للبدوي حيث فيها يجمع مدخراته ويراكم رأسماله ومنه يكتسب جزءا من مكانته الاجتماعية، وزد على ذلك ما للجمل من دور في الرياضة والتسلية عندما كان العرب ينظمون سباقات الإبل في فلوات الصحاري والسهول ليقضوا شيئا من وقتهم في الترفيه المفيد اجتماعيا ورياضيا. ولأجل كل ذلك وجب علينا استعراض بعض المعطيات المتعلقة بهذا الحيوان الذي لعب هذا الدور الخطير في حضارة الأنباط خصوصا في الحضارات العربية عموما.

استئناس الجمل: (عبد السعود، ١٩٩٦/٩-١٠٣)

يعتقد أن زمن صيد الجمل واستئناسه ووضعه تحت سيطرة الإنسان كان في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد، أو مع بداية الألف الثالث قبل الميلاد.

وكان ترويض الجمل من أهم التطورات الاقتصادية البارزة للشرق الأوسط القديم، حيث مكن المجموعات القبلية من الحركة والتنقل عبر المناطق والأراضي الصحراوية القاحلة.

وغير استئناس الجمل من حيثيات المعارك الحربية، من خلال قدرة الجمل على نقل أحمال ثقيلة، ثم عبور مسافات سامقة، ثم الصبر على العطش عدة أيام في الصيف، وعدة أسابيع في الشتاء.

واقترح البعض أن أول استئناس للجمل حدث في شبه جزيرة عمان على الخليج العربي في الألف الثاني قبل الميلاد. وأقدم السجلات الخاصة باستخدام الجمل في شبه الجزيرة تعود إلى سنة ١١٠٠ قبل الميلاد عندما قام المدينيون من شمال شبه الجزيرة العربية بقيادة أول غزوة بالجمال عرفت في التاريخ إلى فلسطين.

الجمل في الحروب النبطية:

إن التاريخ المشار إليه يمثل الحد الأدنى لمعرفتنا باستخدام الجمل في الحروب، ولا بد أن وقتا طويلا قد مر قبل أن يتمكن الإنسان العربي من استخدامه في مثل هذا النشاط الجماعي، وربما عد ذلك الوقت بمئات السنين إلى أن يصلنا بيانات او معطيات تاريخية أو أثرية تساعدنا على تحديد أكبر لوقت استخدام الجمل في الحروب ما دامت التقديرات تشير إلى أن الاستئناس قد جرى بين القرنين الثالث والرابع قبل الميلاد.

ولا بد من أن الأنباط كانوا محترفين في السيطرة على جمالهم الكثيرة قبل وصولهم إلى منطقة الشراة الأدومية، فهم كانوا – بلا شك – من ضمن القبائل العربية في شمال شبه الجزيرة العربية التي ما فتئت تمارس نشاطين أساسين: الغزو والحرب، ثم تنظيم القوافل التجارية الكبيرة المتنقلة بين الشرق والغرب. وعلى كل حال فإن النشاطين متكاملان مع ما يبدو فيهما من تناقض، إذ لا تستوي الحرب مع التجارة والنقل على وجه التعميم، أما في حال شمال شبه الجزيرة العربية إبان الألف الأول قبل الميلاد، أو النصف الثاني منه تخصيصا، فالأمر مختلف ونحن نعرف الصراع الشديد

الذي ظل يدور بين القوتين الكبيرتين في الشرق دولة بلاد النهرين آشورية كانت أم فارسية، مقابل دولة الفراعنة المصريين في الغرب. وقد زودنا هيردوت (هيردوت ٢٠٠١/ ٢٢٠) بخير مثال لحيثيات ذلك الصراع فيما يخص القبائل العربية حينما عزم " قمبيز" الفارسي (٥٢٥ ق.م) على غزو مصر فاستبق ذلك بالاتفاق مع ملك القبائل العربية (ددان) لتوفير إمدادات الجيش من المياه بواسطة قرب ضخمة صنعت من جلود الحيوانات (وهي على الأغلب جلود الجمال لضخامتها ومتانتها). ومن سجلات الملك الآشوري تجلات بلاسر (٧٤٥-٧٢٧ ق.م) نعرف أن القبائل العربية في شمال شبه الجزيرة ظلت تشكل خطرا على التجارة والسيادة الآشورية مما عرضها لحملات عسكرية متلاحقة لم تنته بحملة نابونئيد الآشوري (٥٥٢ ق.م) ولا بحملة إنتيجنيوس الإغريقي عام ٣١٢ ق.م. وفيما يخص الجمل في هذه الأحداث المصيرية، فنحن نعرف من خلال حيثيات تلك الحملات أن القبائل العربية سرعان ما كانت تبادر إلى نقل مضاربها على وجه السرعة لتأتي القوات الغازية لتجد أمامها صحراء مترامية الأطراف، قاحلة الشعاب، جافة الأودية فتنسحب بقليل من الأسرى دون أن تتمكن من فرض سيطرة حقيقية على الأرض أو السكان، لأن السكان فروا بسهولة ويسر مع كامل متاعهم وأملاكهم التي تنحصر في الإبل والأغنام. وما كان كل ذلك ليحدث لو لم تتوفر لهم وسائل النقل السريعة الجاهزة للانطلاق في كل لحظة. وبذلك لم يتقبل العرب السيطرة الأجنبية ولم يمكنوها من الرسوخ في أرضهم، ولذلك ظل عشقهم للحرية عنصرا أساسيا في ثقافاتهم، وربما بما يزيد على المنسوب المطلوب بذلك الذي يكاد يقترب من رفض الانصياع للقانون والنظام القائم على التنازل عن بعض الحقوق الشخصية.

وبخصوص الأنباط فقد وردنا من ديودور السقلي: "لقد آلوا على أنفسهم ألا يبذروا حبا، ولا يغرسوا شجرا يؤتي ثمرا، ولا يعاقروا خمرة، ولا يشيدوا بيتا، ومن فعل ذلك كان عقابه الموت، وهم يلتزمون بهذه المبادئ لكنهم يعتقدون أن من تملك شيئا استمرأ ما ملك واضطر من أجل ذلك أن ينصاع لما يفرضه عليه ذوو القوة والجبروت".

لكن الأنباط – فيما بعد – راحوا يميلون إلى الاستقرار رويدا رويدا دون أن يتخلوا عن الجمل وأعماله، بل إنهم راحوا يتوسعون في استخدامه وخصوصا في حروبهم، لكن مع ذلك فقد استهوتهم حياة الاستقرار، وربما بتشجيع من الإغريق الذين بدؤوا بنشر ثقافتهم بسرعة فائقة منذ أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، وما أن إنتهى القرن الأول الميلادي، حتى كان الأنباط غارقون في حضارة غنية وثرية، خصوصا في جوانبها المادية، مما كان معه من الصعب مواجهة الاجتياح الروماني الجديد، الذي سهل عليه فرض الجزية عليهم بالفضة، ثم سرعان ما فكك دولتهم وضمها إلى ممتلكات التاج الروماني.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾(الغاشية:١٧).د.زغلول النجار، جريدة الأهرام (القاهرة) ٢/٢/٢٠٠٤.

تشير هذه الآية القرآنية الكريمة إلى ما في خلق الإبل من إعجاز يشهد للخالق (سبحانه وتعالى) بالألوهية ، والربوبية ، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه ، كما يشهد له (سبحانه) بالقدرة على إفناء ما قد خلق وعلى إعادة خلقه من جديد (أي بعثه) والإبل تنتمي إلى مجموعة من الحيوانات الثديية المشيمية المجترة (Ruminanr Placental Mammals) وإلى قسم خاص منها يعرف باسم ذوات الحافر (الخف) مزدوج الأصابع(Even-ToedUngulates=Artiodactyla) وهي من آكلات العشب التي يجمعها القرآن الكريم تحت مسمى الأنعام لما فيها من نعم الله العظيمة على الإنسان ، وتشمل كلا من الإبل ، والبقر ، والضأن ، والمعز (الماعز) ، وتضم الإبل بالإضافة إلى الجمال مجموعة الغزلان وكلاهما يصنف في عائلة واحدة تعرف باسم عائلة الإبليات أو الجمليات وبها نوعان متميزان هما نوع الجمل (camelus) (Camelides) ونوع اللاما (Lama) ، ومن الجمال ما له سنام واحد وهو الجمل العربي (Camelusdromedarius) ومنه ما له سنامان وهو الجمل الآسيوي (Camelusbactrianus) وينتشر في آسيا الوسطى وصولا إلى منشوريا في بلاد الصين. والإبل بأنواعها تتميز عن جميع الأنعام بميزات بدنية، وتشريحية، ووظائفية

عجيبة ألمح إليها القرآن الكريم بقول الحق (تبارك وتعالى): ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾(الغاشية:١٧).

فالإبل عمرت الأرض قبل خلق الإنسان بحوالي الخمسين مليون سنة وازدهرت ازدهارا هائلا في عصر الأيوسين المعروف باسم فجر الحياة الحديثة. والجمل العربي الذي يعيش في المناطق الصحراوية الجافة القاحلة الشديدة الحرارة في نهار الصيف ، والشديدة البرودة في ليل الشتاء قد تم استئناسه قبل أربعة آلاف إلى خمسة آلاف سنة في شبه الجزيرة العربية من مجموعة برية كانت تعيش فوق هضاب حضرموت. ومن الجزيرة العربية انتشرت الجمال العربية إلى كل من إفريقيا وآسيا وجنوب أوروبا عبر الوجود الإسلامي في تلك البلاد خاصة في شبه الجزيرة الأيبيرية (بلاد الأندلس).

وقد ثبت للدارسين والمراقبين أن الجمل العربي هو بحق سفينة الصحراء وأنه أصلح الوسائل الفطرية للسفر والحمل والتنقل في الأراضي الصحراوية الجافة، فهو يستطيع قطع مسافة تصل إلى الخمسين ميلا في اليوم متحملا الجوع والعطش عدة أيام متتالية في شدة حرارة نهار صيف الصحراء ، ويستطيع حمل أكثر من نصف طن من المؤن والركاب والسير بهم وبها لأكثر من عشرين ميلا في اليوم دون طعام أو شراب عدة أيام متتالية ، وذلك لما خص الله (تعالى) به هذا الحيوان من ميزات جسدية ، وتشريحية ، ووظائفية لا تتوافر لغيره من الحيوانات ، ومن هذه الميزات ما يمكن إيجازه في النقاط التالية.



أولا من الصفات الجسدية للجمل العربي:

(١) **ضخامة الجسم**، وارتفاع القوائم ، وطول العنق في تناسق عجيب يمكن الجمل العربي من سرعة الحركة، واتساع مجال الرؤية ، ومن اختزان كميات كبيرة من الماء والغذاء والدهون والطاقة التي تعينه على احتمال الجوع والعطش فترات لا يقوى عليها حيوان آخر.

(٢) **لرأس الجمل أنف ذو منخارين** أعطاهما الله (تعالى) القدرة على الانغلاق كليا تحاشيا لرمال الصحراء العاصفة ومنعا لجفاف القصبة الهوائية وزوج من العيون الحادة الإبصار، ترتفعان فوق رأسه المحمول على عنقه الطويل ، وجسده المرتفع عن الأرض مما يوسع مجال الرؤية ، ولكل واحدة من هاتين العينين المندفعتين إلى الخلف طبقة من الأهداب تقيانهما من هبوب العواصف الرملية في الصحراء وما تحمله من أذىً وقذىً . ولفم الجمل شفتان عريضتان السفلى منهما مشقوقة حتى تمكنه من تناول الأعشاب الشوكية دون أن تؤذيه .

(٣) وعلى جانبي رأس الجمل أذنان صغيرتان يكتنف كلا منهما شعر كثيف لوقايتهما من الرمال العاصفة ، خاصة وأن الله (تعالى) قد أعطاهما القدرة على الانثناء إلى الخلف ، والالتصاق بجانبي الرأس لمنع دخول الرمال فيهما .

(٤) أقدام الجمل منبسطة على هيئة الخف المكون من نسيج دهني سميك يعين الجمل على السير فوق الرمال الناعمة وفوق غير ذلك من أنواع التربة الخشنة والصخور الناتئة.

(٥) ذيل الجمل محاط بشعر كثيف يحمي أجزاء جسده الخلفية من كل أذى خاصة من الرياح العاصفة المحملة بالرمال.

(٦) طول سيقان الجمل تبعده عن التأثر بحرارة الأرض ، وارتفاع سنامه يبعد غالبية جسده عن التأثر بحرارة الشمس لأن تكتل كمية كبيرة من الدهون في منطقة السنام يحول دون انتشار حرارة الشمس إلى داخل الجسم ، خاصة أن الخالق العظيم قد ألهم الجمل بالوقوف متعامدا مع أشعة الشمس قدر الاستطاعة حتى لا يتعرض لها من جسده إلا أقل مساحة ممكنة .

(٧) خلق الله (تعالى) للجمل وسادة حرشفية/ قرنية أسفل صدره تعرف باسم الكلكل ، ووسائد مشابهة فوق كل ركبة من ركبه ، وهذه الوسائد تمكن الجمل من الرقود على الأرض مهما كانت قاسية وخشنة دون أذى كما تعينه على رفع جسده عن الأرض لعزله عن حرارتها وللسماح لتيار الهواء ليتحرك بينه وبين الأرض لتهويته وتلطيف درجة حرارته.

(٨) **جعل الله (سبحانه وتعالى) للجمل جلدا غليظا جدا**، قليل المرونة، قادرا على تحمل العواصف الحارة المحملة بالرمال عند هبوبها ، وعلى مقاومة لسعات الحشرات وقرصات غيرها من الحيوانات، خاصة أن هذا الجلد يغطيه وبر سميك يدفئ جسم الجمل في الشتاء ويحمي حراراته من التصرف إلى الخارج ويحميه من حرارة الشمس الحارقة في الصيف، خاصة وأنه يعكس أشعتها بلونه الفاتح، وجلد الجمل يمتاز بقلة انتشار الغدد العرقية فيه مما يقلل من فقدان مخزونه المائي عن طريق العرق.

(٩) **كذلك يساعد طول عنق الجمل وارتفاع أقدامه على تمكينه من تناول أوراق الأشجار العالية**، وتساعد شفته السفلى المشقوقة على تناول الأعشاب الشوكية دون أن تؤذيه ، خاصة أن الله (تعالى) قد جعل للجمل ميلا فطريا للأعشاب المالحة التي تكثر في الصحاري الجافة وذلك مثل أنواع الحلفا (Halophytes)، وللجمل قدرة فائقة على استيعاب كميات كبيرة من أملاح هذه الأعشاب دون التأثير على درجة ارتوائه أو شعوره بالعطش ، وذلك من مثل أملاح الصوديوم، والكالسيوم، والسلينيوم، والفوسفور، والنحاس، وغيرها. وكل واحد من هذه الأملاح يلعب دورا مهماً في حياة الجمل ، وفي تخليق أعداد من الإنزيمات اللازمة لنشاطه الحيوي. والجمل يستهلك من هذه الأملاح ما يحتاجه ويختزن الباقي في الكبد لاسترجاعه عند الحاجة إليه.

ثانيا- من الصفات التشريحية للجمل:

(١) **الجمل من الثدييات المشيمية المجترة**، ولكنه يختلف عن كثير منها بتضاؤل المعدة الثالثة ، وبوجود ما يسمى ــ مجازا ــ باسم الأكياس المائية في المعدة

الأولى ، وهذه الأكياس عبارة عن انثناءات تضم الملايين من الخلايا الغددية التي تلعب دورا رئيسيا في تفعيل عملية الهضم وإنتاج كم كبير من السوائل.

(٢) **كذلك فإن البلعوم الطويل للجمل** يحتوي على عدد هائل من الغدد التي تعمل على ترطيب الوجبة الغذائية الجافة مما يعين على سهولة تحركها إلى باقي أجزاء الجهاز الهضمي خاصة أن الجمل يعتمد في غذائه أساسا على الأعشاب الجافة، وأوراق الأشجار الشمعية القاسية .

(٣) **زود الله (سبحانه وتعالى) الجهاز الهضمي للجمل** بالعديد من الإنزيمات المنتجة فيه ، والكائنات الدقيقة المتعايشة معه لتقوم بتحليل المواد السيليولوزية القاسية في معدة الاجترار إلى عدد من المركبات النيتروجينية مثل الأمونيا واليوريا ثم بناء عدد من الأحماض الأمينية، والبروتينات والدهون، وفي تجهيز عدد من الفيتامينات اللازمة لحياة الجمل، ومن العجيب أن يصل تركيز أحد الفيتامينات المهمة مثل فيتامين د في جسم الجمل إلى خمسة عشر ضعفا لما هو موجود في أجساد باقي الحيوانات المجترة على الرغم من فقر غذاء الجمل بصفة عامة، وذلك لأن هذا الفيتامين يلعب دورا مهما في تركيز الكالسيوم في العظام وهو أمر يحتاجه الجمل بهيكله العظمي الضخم.

ثالثا- من الصفات الوظائفية لأعضاء جسم الجمل:

(١) **الجمل من ذوات الدم الحار**، ولكن الله (تعالى) قد وهبه القدرة على تغيير حرارة جسده ليتوافق مع درجات الحرارة المحيطة به صيفا وشتاء ، ونهارا وليلا دون أن يصاب بأذىً ، ويتراوح المدى الحراري لدماء الجمل بين٣٤ إلى٤٢ درجة وهو مدى يعتبر قاتلا للعديد من الأحياء.

(٢) **يؤدي نقصان كمية الماء في أجسام** معظم الحيوانات إلى زيادة لزوجة دمائها مما يؤدي إلى ارتفاع درجة حرارة الجسم وينتهي بالكائن إلى الوفاة . أما الجمل فتبقي لزوجة دمه ثابتة مهما نقص الماء في جسمه مما يسمح لعملية النقل الحراري أن تتم بين القلب والأطراف .

(٣) الارتفاع في درجة حرارة جسم الجمل يعين على نقص استخدام الأكسجين مما يبطئ من عملية التمثيل الغذائي في داخل جسمه وبالتالي يحد من ارتفاع درجة حرارته وهذا بعكس المعروف من الحيوانات.



(٤) يستطيع الجمل العيش دون شرب الماء عدة أسابيع، وكمية الماء التي يتناولها ترتبط بنوعية الأكل الذي يأكله ، وعلى درجة الحرارة الخارجية حوله، وقدر الماء الذي سبق له تناوله.

وفي الجو البارد يستطيع الجمل العيش على كمية الماء الموجودة فيما يتناوله من طعام إذا كان غضا طريا، وفي هذه الحالة يمكنه الاستغناء عن شرب الماء مدة تصل إلى الشهر الكامل، أما في الأجواء الحارة ومع تناول الطعام اليابس فان الجمل بإمكانه الاستغناء عن شرب الماء مدة تصل إلى الأسبوع. ولذلك وهب الله (تعالى) الجمل القدرة على تحمل ندرة كل من الماء ومصادر الغذاء في الصحراء، وقلة تنوع تلك المصادر، وضعف محتواها الغذائي، كما أعطاه القدرة على شرب كميات كبيرة من الماء عند توافره دون أن يؤذيه ذلك، وأعطاه القدرة كذلك على تحمل إنقاص وزنه بمعدل الثلث، وزيادته بنفس المعدل دون التعرض لأية مخاطر صحية علما بأن ذلك قد يودي بحياة غيره من الحيوانات.

هذه الصفات قليل من كثير مما وهب الخالق (سبحانه وتعالى) الجمل، وهي لم تدرك إلا في القرن العشرين، والتلميح إليها في الآية التي نحن بصددها لما يشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق، ويشهد للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة

فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

❖ الملحق (٣) – النباتات العطرية والطبية التي عرفت في التجارة النبطية:

البخور، المر، البلسم: سيلاحظ القارئ أن أنواع النباتات التي تستخرج منها هذه المستحضرات الطبية والعطرية متشابه إلى حد كبير خصوصا في طرق الاستخراج، ويغلب الظن أن الفروق بين هذه المستحضرات إنما يكون بنكهة الرائحة التي قد تختلف من جنس إلى آخر من تلك النباتات.

١- **البخور:** يمكن عمل البخور بالأعشاب أو بعضها (حمزة الجبالي، ٢٠٠٢/٨٠)إن المادة الأساسية في البخور هي النباتات العطرية، وهي عبارة عن صموغ بعض هذه النباتات وبعض زهورها وأوراقها ذات الروائح الراتنجية، وعادة ما يجري خلط هذه المواد بعد سحقها ثم يجري إخراجها على شكل قوالب أو عيدان بما يصلح معه إحراقها عند اللزوم.

٢- **المر:** يقول ابن وحشية عن نبتة المر: هذه شجرة عربية ذات شوك، وإنما قلنا أنها عربية، لأن نباتها في بلادهم أجود وأدسم مما ينبت منها في جميع الأراضي، فالعرب يشطرونها فيسيل منها رطوبة كثيرة تجمد، وربما على الشجرة وربما إذا وقعت منها، فهم يبسطون تحتها شيئا تجتمع تلك الرطوبة عليه وتجمد، وهي سريعة الانجماد والانعقاد، إذا ذاقها لدغت لسانه وفاه، وقد يدخله العطارون في أخلاط الطيب والأطباء في الأدوية والمعجونات، وهو حار شديد الأسخان، (وكان الكنعانيون يستخدمونه حرقا في معابدهم وشعائرهم الدينية تقربا إلى الزهرة. (ابن الوحشية، ١٩٩٥، ج ١٢٥٧/٢)

٣ – **البلسم: Balsam:** وهو راتنج زيتي عطري ينتج من عدد من النباتات المتخشبة، ويستعمل كأساس للأدوية والعطور (توفيق الحاج يحيى، ١٣٤/٢٠٠٣) ويحضر من شجر البلسان أو البيلسان، وتاريخ البيلسان قديم قدم الإنسان، استعمله اليونانيون بكثرة، وكذلك سكان روما القديمة، ويدخل في الكثير من المستحضرات الطبية، وتشتمل في ذلك أزهارها وعنبياتها وأوراقها، وقشرتها الثانية (حسان قبيسي ،٢٠٠٢/١١): وهو شجر

يبلغ طوله ١٤ قدما ذو ساق ناعمة وأوراق صغيرة يستخرج من فروعه وسوقه البلسم المعروف برائحته العطرة، ويكون ذلك بجرح الساق عدة جروح ليسيل منه صمغ سرعان ما يجف فيجمع في أوعية، ومن استخداماته أنه يمزج في بعض العطور والعقاقير الطبية. والبيلسان أجناس متعددة قد تصل العشرين جنسا، وأكثر هذه الأجناس المستخدمة طبيا (البيلسان الأسود)، ويحوي زيتا ثابتا غنيا بالمواد المرقئة (مضادات حيوية) والمواد المسكنة والمطهرة والمعرقة والمقشعة والمدرة، ويستخدم البيلسان مسكنا للآلام الرثوية (المفاصل) والصداع وآلام عرق النسا، خافض للحرارة، منخفض للإلتهاب والتخريش، مقشع للبول، ملين ومنقٍّ للدم. (توفيق الحاج يحيى، ٢٠٠٣/ ١٨٧)

وثمة آراء تقول أن البلسم يجمع من عدة أنواع من الشجر وليس له شجرة محددة.

❖ **ملحق (٤) – قوائم الآنية والأدوات المتخصصة (الصناعات اليدوية التقليدية):**

وهذه أسماؤها وفق ما هو دارج إلى وقت قريب في بعض لهجات المنطقة (الأردن – فلسطين) مع الإشارة إلى بعض الاختلافات في هذا المجال:

أولا- الأواني الجلدية:

أ – الأواني لحفظ السوائل:

١- **سقا:** يصنع من جلد الماعز ويستخدم لخض اللبن واستخراج الزبدة.

٢- **سعن:** من جلد الجدي، للمياه وهو أصغر من القربة.

٣- **مروب:** لحفظ الحليب وتحويله إلى لبن رائب (زبادي).

٤- **مسون:** من جلد الماعز، لا يدبغ ليظل طريا، وينفخ بالهواء لخض اللبن.

٥- **قربة:** وهي من جلد عنز كبيرة الحجم، يستخدم لجلب المياه.

٦- **شراع وشرعة:** يصنع من جلد الجدي ويستخدم لحفظ الحليب او الجبنة.

٧- **عكه:** لحفظ الماء وهي صغيرة الحجم.

ب – أدوات جلدية أخرى:

١- **الأحذية للقدم والأغطية للساق بأنواعها وأشكالها كالحذاء والصندل والخف.** وقد عرف الأنباط معظم هذه الأشكال ووجد بعضها في قبورهم وشوهد آخر في بعض الرسومات.

٢ – **مستلزمات الحيوانات من سيور وأحزمة وأربطة وأسرجة** وبرادع لظهور الدواب، ومن ذلك مستلزمات "عدة الحراثة" وهي تشد أجزاء المحراث وتربطه بالحيوان، وحيوانات الحراثة يستخدم الجلد لها بكثرة حتى أنه يصنع منه " نظارات " تحول بين الحيوان والنظر يمنة ويسرة.

٣ – **مستلزمات منزلية:** فبالإضافة إلى استخدامات حفظ السوائل ونقلها، ثمة استخدامات أخرى كثيرة كتغطية بعض الآنية الخشبية والقشية بالجلد لحفظه ولحفظ السوائل أو الأطعمة أو غير ذلك فيها.

٤- **الجلد في الآلات الموسيقية:** وذلك كالربابة والدف والطبل الذي يصنع من الجلد الرقيق، وأفضلها ما يصنع من جلد الغزال.

٥- **عدد حربية:** من المرجح أن القدماء ومنهم الأنباط استخدموا الجلد كنوع من الدروع والأقنعة الحربية، ومن ذلك أغطية الرأس والساق والأذرع، وقد يستخدم الجلد في صناعة المقاليع التي يضرب بها الحجارة.

ثانيا– الأواني والأدوات الصوفية المغزولة والمنسوجة:

١- **كنف:** يعلق في الكتف، يصنع من الصوف المغزول. وهو بمثابة حقيبة المسافر أو الراعي.

٢- **حذل:** حقيبة لظهر المرأة تحمل فيه طفلها، وتصنع من الصوف.

٣- **خرج:** لظهر الحمار وله حقيبتان جانبيتان ويصنع من الصوف المخلوط بشعر الماعز، وقد يصنع من الجلد. وقد يحمله بائع متجول أو مسافر راجل.

٤- **شنيف:** كيس كبير عرضه ضعفا ارتفاعه، يحمله الرعاة على أكتافهم، ويصنع من خليط الصوف وشعر الماعز.

٥- **علو:** يصنع من الصوف والشعر، على شكل مخدة طويلة حيث تحشى بالصوف، وتستخدم كمخدة وقد تستخدم كأريكة أو ما شابه ذلك.

٦- **شطنية – خيشة:** كيس كبير وهو أكبر أحجامها على الإطلاق، ويصنع من الكتان، ويسمى خيشة، ويستخدم للتبن الخفيف الوزن. وقد تتسع الشطنية لأكثر من ٨٠ كغم.

٧- **فردة:** كيس متوسط الحجم من الصوف والشعر يتسع لأكثر من خمسين كغم من الحبوب.

٨- **كيس (شوال):** يبدو ألاّ فرق بين الكيس والشوال، ومن المحتمل أن يكون الكيس عاما بينما الشوال للكيس الصوفي الذي يتسع لحوالي ٥٠ كغم من الحبوب.

ثالثا- أوانٍ من الصلصال أو من القش أو الخشب:

١- **صومعة:** وهي من الطين (الصلصال) المخلوط بالقش أو التبن الناعم لزيادة التماسك، وأحجامها متنوعة، يستخدم الكبير منها لتخزين مئات الكيلوغرامات من الحبوب او الدقيق، وبعضها متوسط وآخر صغير لا يتسع لأكثر من عشرات الكيلوغرامات.

٢- **مصحان:** صحن معدني عميق.

٣- **مجور:** إناء عام غير مخصص، فكل صحن صغر او كبر مجور، وقد يصنع من الفخار أو من الخشب.

٤- **قدح:** أشبه باللكن أو الصحن الكبير العميق وهو يصنع من القش، وبعضهم يغطيه بالجلد، له عدة استخدامات كحفظ الخبز او البيض أو الخضار والفواكه...إلخ.

٥- **قوطية:** إناء من القش أشبة بالجرة الصغيرة، له استخدامات متعدده.

٦- **هنابة:** صحن من الخشب يتسع لطعام شخص أو اثنين.

٧- **باطية:** صحن من الخشب يتسع لطعام أسرة كاملة أو عدد من الاشخاص.

٨- **منقلة:** وهي طبق كبير مصنوع من قصب الحبوب، وقطره قريب من متر على الأكثر وقد يقل عن ذلك، يستخدم كمائدة للطعام أو لنقل الخبز من الطابون وله استخدامات أخرى كثيرة كطبق مسطح.

٩- **كانون التدفئة:** ويصنع من الصلصال.

١٠-**مواقد الطبخ وأفران الخبز (التنور والطابون)**، وتصنع من الصلصال.

١١-**أحواض مائية للحيوانات** ومذاود أعلافها وتصنع من الحجر أو الصلصال.

رابعا- الأواني الفخارية:

وفي المتاحف الكثير من هذه الأواني بحالة جيدة، وهي تكاد تشكل غالبية الأواني المنزلية المعدة للاستخدام اليومي:

١- **الزير الضخم:** ويستخدم لحفظ السوائل، خصوصا الماء، ويتسع بعضها لما يقرب من متر مكعب من الماء، ثم يقل عن ذلك.

٢- **الزير الصغير أو الجرة:** وهي لتأمين حاجات الأسرة اليومية من ماء الشرب والطهو.

٣- **العسلية:** وهي جرة صغيرة الحجم تستخدم لحفظ السوائل كالعسل (ومنه جاءت التسمية) والدبس والخمر واللبن.

٤- **قطوسة:** وهي جرة أصغر من العسلية، تستخدم لحفظ السوائل أو المخللات والمربى وما شابه ذلك.

٥- **الصحون وأطباق الطعام:** وهي كثيرة ومتعددة الأشكال والأحجام. زبدية: إناء فخاري يستخدم كصحن ويستخدم أكثر لمرس اللبن الجميد وللطعام السائل. ومنها: كعد: وهو أصغر الأواني الفخارية حجما، شكله نصف كرة ويستخدم للطعام والسائل خصوصا.

٦- **أباريق السوائل:** وهي متعددة الأشكال والأحجام.

٧- **قوارير الطيوب والزيوت ومواد التجميل:** وعرف عن الأنباط مهارتهم في تصنيعها، وهي تصنع من مواد مختلفة كالزجاج والألباستر والفخار الرقيق أيضا.

٨- **أسرجة الإضاءة وهي أيضا متعددة الأشكال والأحجام**، ومنها ما هو ذو طابع نبطي خالص، وأخرى تبدو فيها ملامح هلينستية أو مصرية أو فارسية أو سورية.

المراجع والمصادر العربية:

- القرآن الكريم.
- الكتاب المقدس (العهد القديم).

١- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، المجلد الأول، دار البيان.

٢- ابن كثير، الحافظ عماد الدين ابي الفداء اسماعيل الدمشقي المتوفى ٧٧٤ هج، المقدمة، المجلد الأول: إختصار وتحقيق: محمد على الصابوني (مكة المكرمة – المكتبة الفيصلية) (بيروت – دار الفكر).

٣- ابن الكلبي، أبو المنذرهشام بن محمد (ت ٢٠٤ هج)، كتاب الأصنام، ج ١،تحقيق: احمد زكي باشا القاهرة – الدار القومية للطباعة والنشر) ١٩٢٤.

٤- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري الأفريقي المصري (ت ٧١١ هج)، معجم لسان العرب، خمسة عشرة جزءا، (القاهرة – دار المعارف) ١٩٦٨.

٥- ابن وحشية (أبو بكر احمد بن قيس الكسداني - القرن الرابع هجري / العاشر ميلادي) ،**الفلاحة النبطية**، الجزء ٢، تحقيق: توفيق فهد ،(دمشق)، ١٩٩٥.

٦- أبو دية، سعد، معان: دراسة في الموقع، ١٩٤٨.

٧- أبو حاكمة، هشام، الأساطير المؤسسة للتاريخ الاسرائيلي القديم، ط١، (عمان- دار الجليل للنشر)، ٢٠٠٧.

٨- أبو طالب، محمود ،آثار فلسطين في العصور القديمة، (عمان – وزارة الثقافة والشباب) ١٩٧٧.

٩- أبو النصر، عمر، تاريخ العرب عصر ما قبل الإسلام، (القاهرة – مطبعة السعادة)، ١٩٧٠.

١٠- اسماعيل، حلمي محروس، الشرق العربي القديم وحضاراته، (الإسكندرية- مؤسسة شباب الجامعة) ١٩٩٧م.

١١- أمين، غالي إبراهيم، ١٩٧٦، سيناء المصرية عبر التاريخ،(القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب)،١٩٧٦م.

١٢- الأنصاري ،عبد الرحمن الطيب، لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غربي الجزيرة العربية "، الدارة، ١، ١٩٧٥.

١٣- البخيت، صادق محمد، الأنباط والشعر النبطي " في مدخل تاريخي موجز، لا مكان ولا تاريخ نشر.

١٤- بهنسي، عفيف، تاريخ الفن والعمارة، (المطبعة الجديدة)، ١٩٧١.

١٥- الجبالي، حمزة، موسوعة الأعشاب والنباتات الطبية، خواصها وعلاجها، (الضفة الغربية-الخليل، الأردن - عمان) ٢٠٠٢.

١٦- الجبوري، سهيلة ياسين، أصل الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الأموي، (رسالة ماجستير منشورة) جامعة بغداد - بغداد، ١٩٩٧.

١٧- ج بيك، فردريك، تاريخ شرقي الأردن وقبائلها، تعريب: بهاء الدين طوقان (عمان - الدار العربية للنشر)،١٩٣٥.

١٨- جوسن، أنطون، العادات العربية في بلاد مؤاب، ترجمة سامي النحاس، عمان، ١٩٩٧

١٩- جوسن وسافينياك، رحلة إستكشافية أثرية إلى الجزيرة العربية، ترجمة: صبا فارس، (الرياض- دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٤ هج).

٢٠- حتى، فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ترجمة: ادوارد جرجي وجبرائيل جبور، (بيروت)، ١٩٤٩.

٢١-..........، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ترجمة: جورج حداد وعبدالكريم رافق، بيروت، ١٩٥٨.

٢٢- الحوت، محمود سليم، في طريق الميثيولوجيا عند العرب، ط٢، (بيروت-دار النهار للنشر)، ١٩٧٩.

٢٣- خلف، علي حسين، (عمان - المؤسسة العربية للدراسات والنشر)، ١٩٩١.

٢٤- الخطاطبة، محمد فاضل، عمارة الأنباط السكنية، ط ١(رسالة ماجستير مطبوعة) (الرياض - مطبعة الملك فهد الوطنية) ١٤٢٧ هج / ٢٠٠٦م.

٢٥- الخطبا، فوزي، الطفيلة: الانسان والتاريخ، ط١ (عمان- دار الفيحاء - دار عمان) ١٩٨٥.

٢٦- الدباغ، مصطفى مراد، بلادنا فلسطين، ج ١، ق ١ (فلسطين - مطبوعات رابطة الجامعيين (الخليل)، ١٣٩٣ هج/١٩٧٣م.

٢٧- دويدري، رجاء وحيد، جغرافية سوريا والوطن العربي، (دمشق، مطبعة طبرين)، ١٩٨٢م.

٢٨ - الروضان، عبد عون، موسوعة تاريخ العرب، ج١، (عمان - الأهلية للنشر والتوزيع) ٢٠٠٤.

٢٩- زودن، فون، مدخل إلى حضارات الشرق القديم، ترجمة: فاروق إسماعيل، ط ١، (دمشق - دار المدى. للثقافة والنشر)، ٢٠٠٣.

٣٠- زيادين، فوزي، عمان الكبرى: آثار وحضارة، أمانة عمان - عمان، ٢٠٠٥.

٣١- الذيب، سليمان، نقوش الحجر النبطية ،(الرياض، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية)، ١٩٩٨.

٣٢- السالم، عبد العزيز، تاريخ العرب قبل الاسلام (الاسكندرية: مؤسسة الثقافة الجامعية) ١٩٧٣م.

٣٣- ا لسرحاني، سلطان طريخم، وادي السرحان، ط ١، (الدوحة - دار الثقافة) ١٩٨٧.
٣٤- سوسة ،احمد، العرب واليهود في التاريخ ،ط٤ ،(بغداد - مطبعة دار الحرية) ١٩٧٢م.
٣٥- شقير، نعوم، تاريخ سيناء القديم وجغرافيتها، (عمان - دار الجليل، بيروت) ط ١، ١٩٩١
٣٦- الشيخ، حسين، الرومان، (الإسكندرية - دار المعرفة الجامعية) ١٩٩٣.
٣٧- عاقل، نبيه، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، دمشق ١٩٧٢.
٣٨- عباس، د.احسان، تاريخ دولة الأنباط، (عمان - منشورات وزارة الثقافة) ٢٠٠٧.
٣٩- العدوان، مفلح، موسوعة القرية الأردنية (بوح القرى) جزء١، ط١، (عمان - سلسلة إصدارات مركز الرأي للدراسات - ص٢٠٠٨،٤٦).
٤٠- العجلوني، احمد، حضارة الأنباط من خلال نقوشهم، (الأردن - البتراء - بيت الأنباط للتأليف والنشر)٢٠٠٣.
٤١- علي، د.جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج ٣، ج ٥،ج ٦، ج٧: ط ٢، (بيروت- دار العلم للملايين، بغداد - مكتبة النهضة ١٩٧٦) ط ٣ (١٩٨٠).
٤٢- العلي، صالح، محاضرات في تاريخ العرب، ج ١، بغداد، ١٩٥٩.
٤٣- عمرو، د. خيرية، الإنسان والأرض في وادي موسى عبر العصور، باسم الطويسي (محرر)، التاريخ الاجتماعي لمنطقة البتراء وجوارها، (الأردن- مركز الأنباط للدراسات - البتراء)، ٢٠٠٣.

٤٤- الفاسي، هتون أجواد، الحياة الاجتماعية في شمال غرب الجزيرة العربية (في الفترة ما بين القرن ٦ ق.م والقرن الثاني ميلادي)، الرياض، ١٤١٤ هج/١٩٩٣م.

٤٥- قبيسي، د. حسان، معجم الأعشاب والنباتات الطبية، ط٥ (بيروت - دار الكتب العلمية) ٢٠٠٢.

٤٦- الكفافي، زيدان عبد الكافي، تاريخ الأردن وآثاره في العصور القديمة(العصور البرونزية والحديدية)، ط١، (عمان - دار المقتبس للنشر) ن ٢٠٠٦.

٤٧- كنعان، توفيق، الأولياء والمزارات الإسلامية في فلسطين، ترجمة: نمر سرحان، تحرير: حمدان طـــــه، (فلسطين - منشورات وزارة الثقافة الفلسطينية - دار الناشر) ١٩٩٨.

٤٨- المحيسن، زيدون، دراسات في علم الآثار الاجتماعي، وزارة الثقافة، ٢٠٠٧

٤٩-. ....، هندسة المياه والري عند الأنباط العرب، (البتراء - بيت الأنباط)، ٢٠٠٢.

٥٠-. ....، الحضارة النبطية ،(إربد - مؤسسة حمادة)٢٠٠٤ م.

٥١- المقداد، خليل، حوران عبرالتاريخ، ط ١(دمشق- دار حوران)، ١٩٦٦.

٥٢ - المنجد، صلاح الدين، دراسات في تاريخ الخط العربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي، (بيروت، دار الكتاب الجديد، ط٢، ١٩٧٩).

٥٣- نافع، محمد مبروك، تاريخ العرب قبل الإسلام،(القاهرة، مطبعة السعادة)، ١٩٥٢م.

٥٤- نامي، خليل يحيى، أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الاسلام، (الكويت- المجلس الوطني للثقافة والفنون والنشر) ١٩٧٩.

٥٥- هاردنج، لا نكستر، آثار الأردن، ترجمة: سليمان موسى،(عمان - وزارة السياحة) ١٩٧١.

٥٦- هدسون، جيمس، جغرافية فلسطين المحتلة ،(بيروت- مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية)، ١٩٦٩م.

٥٧- هيردوت، تاريخ هيردوت، ترجمة: عبد الإله الملاح (أبو ظبي - المجتمع الثقافي)، ٢٠٠١م.

٥٨- ليبي، وليم و هوسكنر، فرانكلين، وادي الأردن والبتراء، ترجمة احمد عويدي العبادي، ٢٠٠٥.

٥٩- ولفنسون، اسرائيل. تاريخ اللغات السامية.(بيروت: دار القلم) ١٩٨٠.

٦٠- ياسين، خير نمر، الأدوميون: تاريخهم وآثارهم، (عمان- الجامعة الأردنية)، لا ط، ١٩٩٤.

٦١- ياسين، خير نمر، جنوبي بلاد الشام: تاريخه وآثاره في العصور البرونزية، (عمان -منشورات لجنة تاريخ الأردن) ١٩٩١.

٦٢- يحيى، توفيق الحاج، النباتات والطب البديل، (بيروت- الدار العربية للعلوم) ٢٠٠٣.

دراسات الماجستير والدكتوراة غير المنشورة:

١- بركات، سماح، حروب اليهود، (رسالة ماجستير غير منشورة) الجامعة الأردنية، ٢٠٠٢،

٢- الحمود، سناء، النقوش والكتابات المتعلقة بالعلاقات الخارجية للأنباط (رسالة ماجستير غير منشورة) جامعة اليرموك ٢٠٠٢ م.

٣- الحموري، خالد أكرم، مملكة الأنباط: دراسة في الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة البصرة، ١٩٩٧.

٤- شرمة، احمد، العمارة الأدومية (رسالة ماجتسير غير منشورة) الجامعة الأردنية، ١٩٩٧.

٥- شديفات، يونس عبدالله يونس، عادات الدفن النبطية في خربة الذريح: دراسة مقارنة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٤٤م.

٦- الشياب، عاطف، المعابد النبطية، (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة اليرموك، ١٩٩٠.

٧- الطويسي، سعد احمد، دراسة للمخلفات النبطية المكتشفة في حفريات وادي موسى، (رسالة ماجستير غير منشورة) الجامعة الأردنية، ٢٠٠١.

المراجع الاجنبية:

1 Browning, Lain ,Petra, ,4th edition.(London, Catto & Windus ,1944)

2 Glueck,N.DEITIES andDolphins , Newyork ; Farrar,Strauss and Giroux. 1965.

3 Josephus,Flavius,The Jewish War.

4 Josephus,Flavius,Antiquities of the Jews.Translated by h.st.J.Thackeray.Cambridg,Harvrd University.1950-1961.

5 Browning, Lain ,**Petra**,London,4th edition,1944. Chatto & Windus ltd-London)

6 Starcky ,J:

7 Strabo: The Geography of Strabo , The loeb classical library , Cambridge,mass,1961.

8 Hammond ,P.C " **The Temple of the Winged lions" Petra, rediscoverd ,Lost city of the Nabataeans**, Glenn Markoe, Editor(2003),pp.223-229

9 Hammond.P.C, **The Nabataeans,Their History,Culture & Archaelogy**(Gothenburg,Sweden,Paul Astrom Forag,1973).

10 Hammond ,P.C ,**The E xcavation of the Theater of Petra ,1961-1962**.(London:Beruard Quaritch ,LTD.1965.

11 Diodorus: Diodorus of Sicily , The loeb classical library , Newyork ,1937.

12 Littmann ,E , Nabataean Inscriptions from the southern Hawran. ,puplcations of the Princeton University,A,E,J,Brill,leiden, 1914

13 Dalman,G " Petra und Seine Felsheiligt Umer. 1908 Leipzig

14 Glueck,N. Deities and Dolphins,(New york,Ferrar,Straus & Giroux,1965).

15 Gluck ,N.The Other Side of Jordan,(Cambridge,ASOR,1970).

16 Starcky, op.cit. SD.b,pp 888-900.

17 Negev.A," **Petra, rediscoverd ,Lost city of the Nabataeans,** Glenn Markoe, Editor(2003),pp.101-106

18 Gawlikowski ,1975:41

19 Meshorer, Y. Nabataean Coins. QEDEM 3,Jerusalem: Insitute of Archaeology ,Hebrew, University of Jerusalem. 1975.

20 Bowersock, G.w. **Roman Arabia**. London: Harvard University Press 1983.

21 78 Grohmann 1971:25

22 Department of Antiquites & Museums: An introduction to Saudi Arabian Antequites.(Ministry of Excavation – kingdom of Saudi Arabian) 1395 A.H-1975 A.D.

23 Kuhlenthaland Fischer,200

24 45 - Negev,1997: 63

25 Bower sock G.W. roman Arabia . London: Harvard university press, 1983.

26 Kuhlenthaland .M. and fischer. H. petra, Die Restaurienung der Grabfassaden.

27 Negev. A. the architecture of mampis. Final report. The middle and the late nabataen periods. QEDEM 26.

28 Starcky. J. Nourlles stetes funeraires a petra. ADAJ 10:43 – 49.

29 Zaydaine . F. Photogram metrische Arbeiten in petra. BJ 180:237.

30 Wriht. G.R.H. structure of the Qasr bint Farun.A preliminary review PEQ. 93: 8-37.

31 Gawlikowski. M . les tombeaux anoyms, berytus 22: 35- 41.

الدوريات والمجلات:

١- جارت بوردن، روبرت ميللر، كريستوفر ايرنز " التنقيبات الأولية في تيماء"، أطلال، عدد ٤، ١٤٠٠ هـ م ١٩٨٠ م. ص ٨١-١٢٧.

٢- ستاركي، الأب جان، " النبط " ترجمة: محمود العابدي، حولية مديرية الآثار العامة الأردنية، ١٥(١٩٧٠)، ٥-١٣.

٣- السعود، د.عبدالله مسعود، استئناس الجمال وطرق التجارة الداخلية في الجزيرة العربية، مجلة أطلال، عدد ١٤، ١٤١٦ هج/١٩٦٦ م.

٤- المعاني سلطان عبدالله " نقوش عربية قديمة من شرقي محافظة المفرق/الأردن، مجلة دراسات تاريخية، العددان ٨٧-٨٨ (أيلول - كانون أول ٢٠٠٤)

٥- النجار، د.زغلول، جريدة الأهرام (القاهرة) ٢/٢/٢٠٠٤

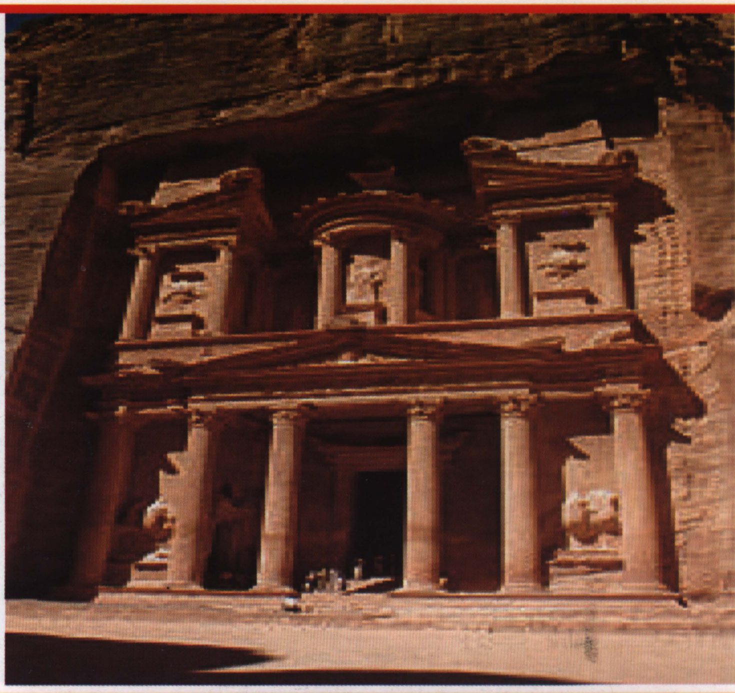
6- G.R.H.WRIGHT.Structure of the Qasr Bint Far,un. APrliminary Review,in PEQ 93,p.8-37.

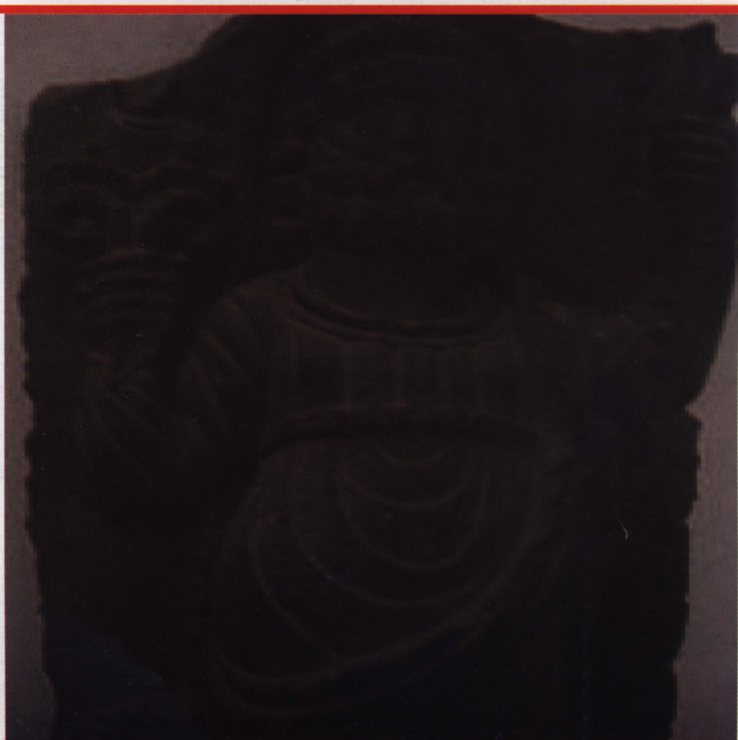
7- Lawler ,endrew,Reconstracting Petra ,Smithsonian,Jan 2007,vol,38 Issue3,p42-49.8p.8c.

8- Starcky ,Jean. The Nabataeans: A Historical Sketch ,in BA 28\ 4(1955).pp.84-106.

مواقع الانترنت:

- موقع www.swaida.com
- webmaster@st-takla.org
- www.nabatae.net
- www.al-ola.com








yabeyrouth.com







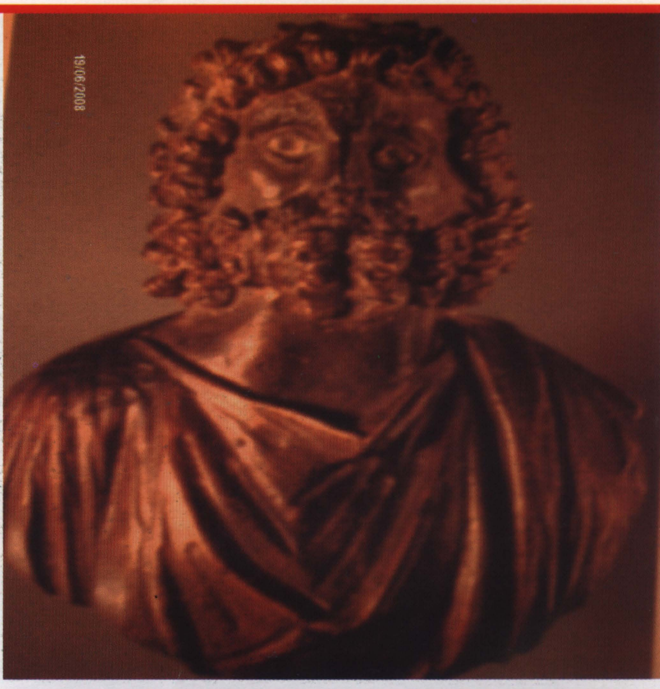






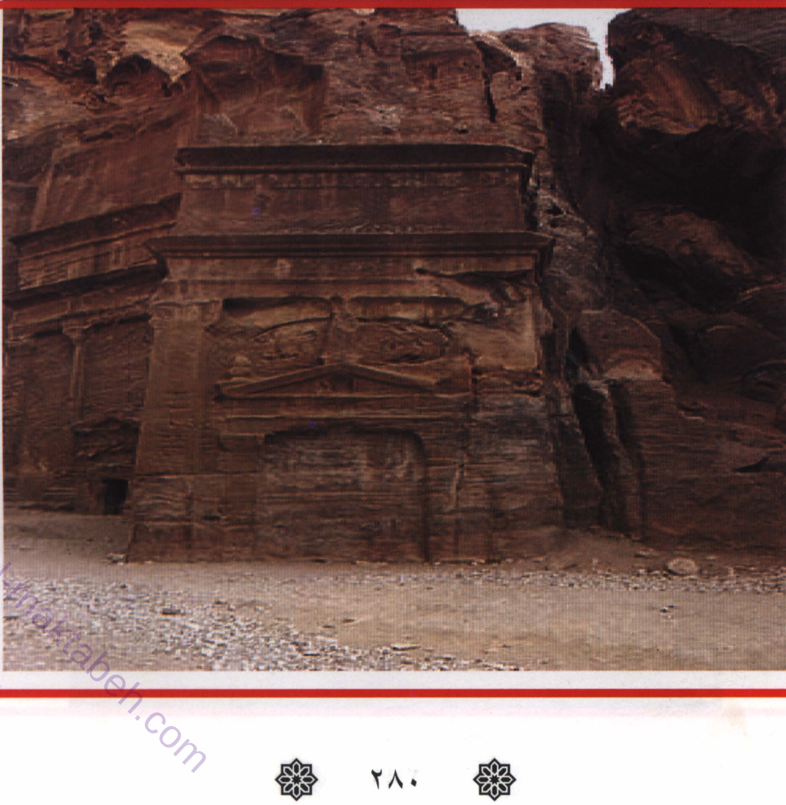

19/06/2008




19/06/2008


19/06/2008


19/06/2008

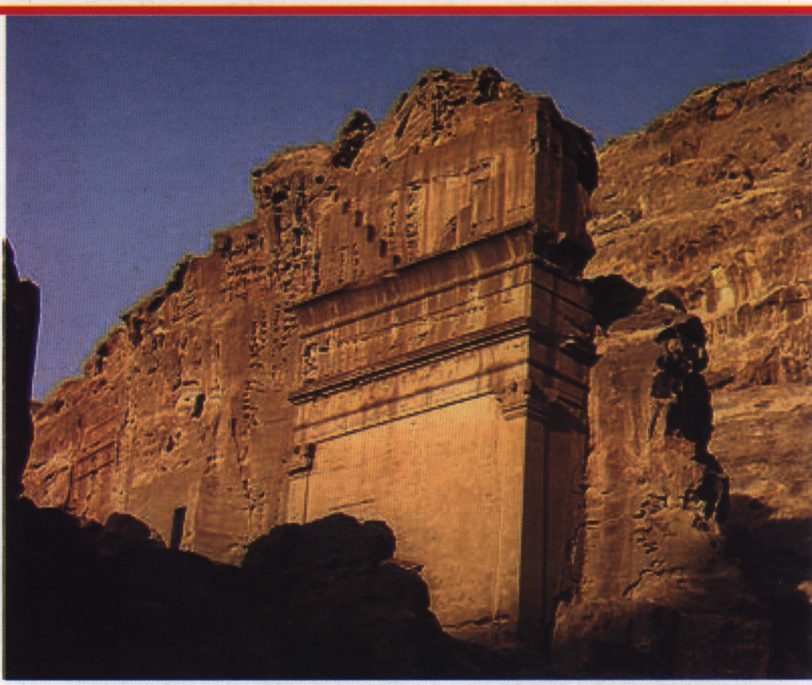



لورنس العرب
١٩١٧











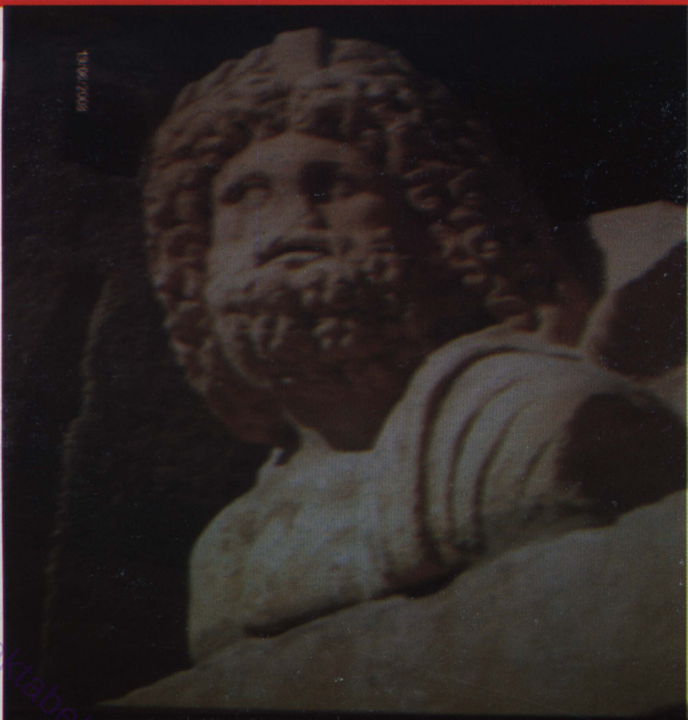









19/06/2008








KH. TANNUR
ATARGATAS NABATEAN
GODDESS OF FRUITS AND
FERTILITY


19/06/2008